
مذكرات
زوكوف
فى مذكراته التى كتبها تحت عنوان نكريات وتاملات ! والتى اهداها الى الجندى السوفيتى !: يقدم ماريشال الاتحاد السوفيتى زوكوف من خلال حياته الشخصية عرضا مثيرا لكثير من اخطر احداث العصر . وتبدا الاحداث من الحرب العالمية الاولى : الى قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية فى روسيا فبناء الجيش الاحمر فى معمعة كفاح الشعب الروسى ضد القيصر والراسمالية والتدخل الاجنبى المسلح : فالحرب الروسية اليابانية عام ١٩٣٩ : ثم بوادر الحرب العالمية الثانية ومحاولات ستالين المستميتة للقضاء على النازية فى بداية عدوانها على اوروبا : فمعاهدة عدم الاعتداء بين المانيا النازية والاتحاد السوفيتى: فالهجوم الالمانى على روسيا وهزيمة القوات المسلحة السوفيتية فى بداية الحرب . فالمقاومة البطولية للغزو : فالانتصار التاريخى فى ستالينجراد الذى كان بداية لمطاردة القوات الفاشية والنازية حتى عقر دارها ودحرها فى برلين .
وهو فى منكراته يكشف لاول مرة عن كثير من الوثائق والمفاوضات السرية والاحداث الخطيرة التى دارت وراء الكواليس وفى ادارات المخابرات واجتماعات العسكريين والسياسيين .
ثم هو يقدم شهادته التاريخية فى تقييم اسباب هزيمة وانتصار الاتحاد السوفيتى ودور ستالين فى ذلك كله مع ابداء رايه الشخصى فى كثير من رجال الغرب والشرق البارزين مثل ايزنهاور وديجول وخروشوف وتشرشل ومونتجمرى وهتلر

مذكرات زوكوف

والزعماء الثلاثة

مذكرات زوكوف



فى مذكراته التى كتبها تحت عنوان ذكريات وتأملات ! والتى اهداها الى الجندى السوفيتى !: يقدم ماريشال الاتحاد السوفيتى زوكوف من خلال حياته الشخصية عرضا مثيرا لكثير من اخطر احداث العصر . وتبدا الاحداث من الحرب العالمية الاولى : الى قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية فى روسيا فبناء الجيش الاحمر فى معمعة كفاح الشعب الروسى ضد القيصر والراسمالية والتدخل الاجنبى المسلح : فالحرب الروسية اليابانية عام ١٩٣٩ : ثم بوادر الحرب العالمية الثانية ومحاولات ستالين المستميتة للقضاء على النازية فى بداية عدوانها على اوروبا : فمعاهدة عدم الاعتداء بين المانيا النازية والاتحاد السوفيتى: فالهجوم الالمانى على روسيا وهزيمة القوات المسلحة السوفيتية فى بداية الحرب . فالمقاومة البطولية للغزو : فالانتصار التاريخى فى ستالينجراد الذى كان بداية لمطاردة القوات الفاشية والنازية حتى عقر دارها ودحرها فى برلين .

وهو فى مذكراته يكشف لاول مرة عن كثير من الوثائق والمفاوضات السرية والاحداث الخطيرة التى دارت وراء الكواليس وفى ادارات المخابرات واجتماعات العسكريين والسياسيين .

ثم هو يقدم شهادته التاريخية فى تقييم اسباب هزيمة وانتصار الاتحاد السوفيتى ودور ستالين فى ذلك كله مع ابداء رايه الشخصى فى كثير من رجال الغرب والشرق البارزين مثل ايزنهاور وديجول وخروشوف وتشرشل ومونتجمرى وهتلر

والزعماء الثلاثة

مع وصف صادق للزعماء الثلاثة ستالين ، وهتلر ، وتشرشل الذين تصدروا الاحكام والمسؤوليات ... اثناء الحرب العالمية الثانية .

اشرف على نشرها واختيارها

عمر ابو النصر

(تصدر عن مكتب « عمر ابو النصر » للتأليف والترجمة والصحافة)
بناية درويش ـ شارع سورية ـ بيروت

١٩٧٠

تقديم هذه المذكرات

يقسم هذا الكتاب الى قسمين خصصت القسم الاول منه .. بوصف الاشخاص الثلاثة الذين تصدروا الاحكام والمسؤوليات اثنـاء الحرب العالمية الثانية ، ستالين وهتلر وتشرشل واغفلت (روزفلت) الذي جـاء في آخـر المطاف ، وذهب لمآبه قبل انتهاء الحرب ..

واما القسم الثانـي فخاص بمذكرات الجنـرال زوكـوف اوجوكوف القائد الروسي الكبير الذي صدّ الهجوم الالماني ، عـن ستالينغراد ، ومضى يطارد الالمان حتى احتل برلين ، قبل وصول الحلفاء اليها ..

وزوكوف يعطينا فـي مذكراته صورة دقيقة صادقة عـن المعارك التي وقعت في الجبهـة الروسية ، والتـي خاضها ، او شارك فيهـا مـع القواد الاخرين ، والصورة صادقة لا دعاية فيها ، ولا تزوير للتاريخ والحوادث ..

وهو بالاجماع من اعظم القواد المعاصرين وابعدهم نظـرا واكثرهم حيلة واشدهـم عزمـا ..

يعرف اين يجب الهجوم واين يكـون الدفاع ومذكراته تقـدم للقارىء صورة كاملة للحرب على الجبهة الروسية بقلم قائد روسي شارك فيها وكـان مـن المنتصرين ...

القسم الأول

الزعمـاء الثلاثـة

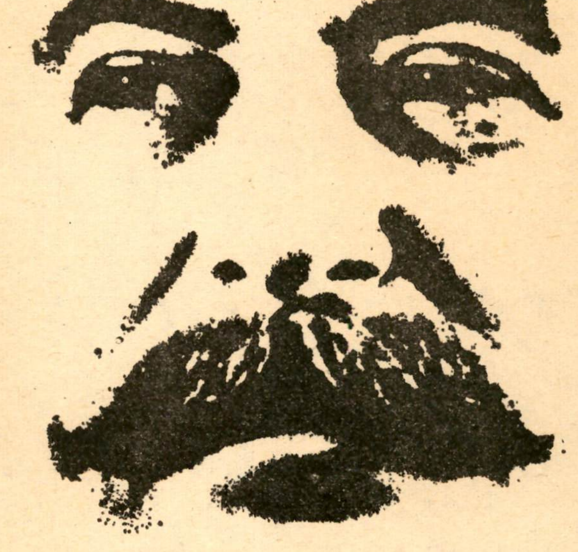
الذين شاركوا في الحرب العالميـة الثانية ، وأثّروا فـي مصايرها ، وكانت لهم اليد الطولى في توجيهها ..

ستالـين

هتلـر

تشرشل


ستالين



١

ستالـــين

الرجــل الفــامض

لسنوات خلت انتقل (ستالين) لمآبه وحل مكانه آخرون ؟ فمن يكون هذا الرجل الذي وقف في وجه هتلر وحكم روسيا حكما حديديا لم يحكمها به شخص قبله ولا بعده ..

لقد اجتمع (هيولومنجن) الذي كان مترجما لونستون تشرشل رئيس الوزارة الانكليزية اثناء الحرب اليه اكثر من مرة ونفذ الى مجالسه الخاصة التي لا يدنو منها الا المقربون . وفي هـــذا الفصل يقـــدم الكاتب البريطاني دراسة دقيقة للرجل الرهيب الذي بقي اسمه مغلفا بالغموض :

« مات ستالين منذ اكثر من عشر سنوات ودفن مرتين المرة الاولى في مقبرة العظماء بالساحة الحمراء اثناء حفل كبيـــر والمـــرة الثانية بعيدا عـــن الانظار عند اقدام جدار الكرملين .

وفي الاتحاد السوفياتي ، قبل ١٨ شهرا قال لـــي ثلاثة اشخاص « ان ستالين قد ولى الا ان ظله ما زال معنا » .

ولكن واحدا منهم ، وهو رجل مسن ، قالها بصوت مرتجف كما لـــو ان الروح يمكن ان ترتد الى صاحبها .

ويقول زعماء الحزب الشيوعي الذيـــن خلفوه ، وعلـــى راسهم نيكيتـــا خروشوف ، ان الرجل الذي القى ذلك الظل الطويل الامد كان بالتأكيد رجلا شرسا اجرم بارتكاب جرائم وفظائع لا توصف كما قتل السكان بالجملة ، ومع ذلك فان المرء يمكن ان يخرج بانطباع اخر عنه لدى الاجتماع اليه .

لقد استمعت ورايت زعماء الغرب اثناء المؤتمرات والمآدب التي اقيمت اثناء الحرب .. يمتدحون ستالين ويتملقونـــه فـــي السر والعلن كمـــا كـــان ستالين يتملقهم بدوره .

رايتهم يصافحون بحرارة تلك اليد التي قال عنها خروشوف انها كانت السبب في مقتل آلاف الاشخاص الابرياء .

ولو كنت في وضع يمكنني من ان اكيل بدوري المديح والملق الرجل ، لفعلت ذلك بلا ريب . فانا لم يراودني الشك في حقيقته الا في الآونة الاخيرة وربما كان ذلك لتمكني ، بصفتي مترجما ان اجلس عن كثب واراقب الرجل وادرس تصرفاته .

البوليس السري

ان بعض الجواب على اللغز يكمن في الغموض الذي احاط ستالين نفسه به ، فذلك الجو المصطنع من التعقيدات الذي يلمسه المرء حتى قبل ان يلج بوابة الكرملين ، يترك في الغالب اثره عليه حتى ولو بصورة لا شعورية .

لقد كنا دائما ، وكذلك جميع الزائرين الاجانب ، يطلب الينا ان نتوجه الى بوابة بورفيتسكي التي تقع على ابعد مسافة من مكتب ستالين ، وكنا نتوجه بالسيارة الى الكرملين عبر مجموعات من رجال البوليس تتالف كل مجموعة منها من رجلين او ثلاثة يرابطون بصورة مستديمة عند كل تقاطع طرق ويتصلون هاتفيا بتقاطع الطرق التالي فيسمح لنا عندئذ بالمرور .

وكانت سيارة سوداء تؤدي مهمة ارشادية تقودنا مسافة الخمسين مترا المؤدية الى البوابة الرئيسية . وعندما نجتاز البوابة الخارجية يبدأ جرس بالدق بصورة مستمرة ، وتحتوي البوابة المقببة على غرف للحراس من الجانبين ، وكان احد ضباط البوليس السري برتبة ماجور يدقق باوراق السائق ثم ينظر الى داخل السيارة بينما يقف من حوله ثلاثة او اربعة من ضباط الصف في حالة تأهب . وكانوا جميعا يحملون المسدسات .

ولم يكن الجرس يكف عن الدق الا عندما نخرج من بوابة التفتيش . وعند مدخل قاعة مجلس الشيوخ كان يحيينا فريق آخر من الحراس حاملي المسدسات ، مؤلف من كولونيل وضابطين او ثلاثة برتبة كابتن وعدد من الملازمين . وكان مصعد ينقلنا ببطء مسافة طابقين بمصاحبة الكولونيل ثم نسير في ممرات طويلة مرتفعة السقوف يقف عند كل منعطف منها حارس مدجج بالسلاح .

وعدا عن الحراس المسلحين ، كانت الممرات مهجورة . كان هناك في داخل البناء نفس السكون الرهيب المخيم على الساحة في الخارج . وبدا المكان مشبعا برائحة التبغ الروسي الاسود .

كانت هنالك ابواب ضخمة مغلفة بالجلد الاخضر والبني وقد دخلنا من احدها الى شقة مجاورة لمكتب ستالين .

كـــان هناك عدد صغير من الضباط المسلحين ، يؤلفـــون الحـــرس الشخصي واقفين في ركن من الغرفة ، وقد وقف على رأسهم ضابط يحمل رتبة جنرال . وبدون ان يعلن عنا فتح بهدوء البـــاب المفضي الـــى غرفـــة المطالعـــة والمؤتمـــرات .

وعند الطرف الآخر من الغرفـــة وعلى مسافة خطوات قليلة من المكتب وقف رجـــل مسن يبدو عليه التواضع الجم وكانت ذراعه اليسرى الشبـــه مشلولـــة محنية عند الكوع بحيث استندت يده على خاصرته . كـــان يرتدي بزة رمادية بسيطة تزرر حتى العنق ويضع وساما واحدا فقط هو نجمة بطل الاتحاد الســوفياتي المذهبة وقد بدا بنطلونه واسعا جدا بحيث كاد يخفـــي مقدمة حذائه وبدا كرجل مسن من طراز قديم .

وعند دخولنا خطا خطوة واحدة او اثنتين نحونا فوق السجادة الفاخرة وكان مترجمه يقف الى جانبه ولكن الى مسافة قليلة الى الوراء .

انحنى قليلا وامال راسه جانبا بحيث تجنب النظر الـــى اي شخص مباشرة . وصافح ستالين جميع اعضاء فريقنا وكانت قبضة يده محكمة ولكن غير قوية ولم تكن راحة يده كبيرة ولكنها كانت لينة .

دعانا ستالين للجلوس حول مائدة المؤتمر الطويلـــة التـــي تحتل ثلثي الغرفة التي طولها ٣٠ قدما على المقاعد القريبة من مكتبه . وكان على المكتب ثلاث علب مستديرة تحتوي على عشرات من اقلام الرصاص المدببة ومحبرة كبيرة من الرخام وشمعدان من المعدن يرتكز الى قاعدة رخامية .

لا تحـــول ..

لم يجلس ستالين عند راس الطاولة بل تجاهنا وظهره الى الجدار الذي كانت تعلق عليه صور بعض العظماء السوفيات امثـــال سوفوروف وخصم نابليون كوتوزوف وكانت ظهورنا متجهة الى النوافذ التي تغطى في الليـــل بستائر حريرية بيضـــاء .

وكانت على الطاولة منافض للسجاير وعدد من العلب الخضراء الموشاة بالذهب تحتوي على سجاير دوكات ولوكس وهـــي اشهر انواع السجايـــر

الروسية . وكان ستالين يدخن من هذه السجاير في غالب الاحيان.. وقد رأيته مرة واحدة فقط او مرتين خلال ست سنوات يدخن من غليونه .

وخلال الحديث كان ستالين يلتقط قلم رصاص ويخطط على الورق فيرسم في بعض الاحيان اشكالا هندسية تتحول الى حيوانات ذات نظرات وحشية . وفي احيان اخرى يرسم سهاما سوداء عريضة كتلك المستعملة على الخرائط الحربية .

وبعد ساعة او نحو ذلك تقدم زجاجات الشاي مع شرح الليمون داخل اوعية فضية مع قطع الشوكولا . ولم تكن تقدم الكحول في امثال هذه المناسبات .

ان ستالين لم يكن يتجاوز بحال الخمسة اقدام وخمس بوصات طولا وكان قوي البنية الا انه لم يكن عريض المنكبين . وفي هذا الوقت ، اثناء الحرب .كان في الرابعة والستين الا ان حركاته كانت خفيفة كحركات القط وكان شعره رماديا كثيفا وشارباه كبيرين الا ان بشرته كانت مغضنة .

وما ان يفيق المرء من دهشته لدى مشاهدة صورة الامبراطور تنكمش امامه الى اقل من حجم الرجل العادي حتى يحدث صوت ستالين صدمة ثانية له . انه ايضا كان بلا لون ولا نبرات وكان على وتيرة واحدة . ويتميز بلهجة جيورجية . وكنت اسمع اللهجة الجيورجية عند الاستهزاء فقط ، واثناء الثواني القليلة الاولى وجدت من الصعب اخذ كلمات ستالين ماخذا جديا . لقد جعلته لفترة من الوقت يبدو مضحكا .

وقد تبين لي فيما بعد ان ستالين كان يتصنع المواقف ويتخذ لنفسه مظاهر مختلفة فحينا كان يبدو امام الزائرين بمظهر الرجل المتواضع الذي يدين بكل شيء الى الشعب وحينا كان يظهر بمظهر الزعيم المتغطرس امام زملائه . وانما خلال فترة ست سنوات لم اسمعه مرة واحدة يضحك ضحكة طبيعية عالية ، واعلى ضحكة سمعتها منه كانت عندما راح المارشال مونتغمري يمازح مولوتوف في حفلة بالكرملين .

فقد تحدث لوزير الخارجية العبوس عما اشيع من انه .كان يحيا حياة صاخبة اثناء زيارته لنيويورك . واخذ ستالين يعلق على النكتة ويتوسع بها مطولا بحيث بات المرء يشعر ان هناك بعض التهديد متصلا بالنكتة . وكان مولوتوف يستسلم لكونه هدفا لنكات ستالين الا انني لم الاحظ اية ادلة على وجود مضايقة متبادلة .

ولكني رأيت وجه مايسكي يشحب شحوب الموت عندما شرب ستالين نخبه في حفلة مشيرا اليه على انه الشاعر الدبلوماسي . فقد سبق ان كان هناك شاعر دبلوماسي في السلك الخارجي الروسي هو الكساندر غريبويدوف سفير القيصر لدى ايران وقد اغتيل في سفارته بطهران ولم يثأر القيصر لمقتله .

وفي احد الايام رأيت ترجمان ستالين بافلوف يرتعد خوفا من سيده . فقد اهدى احدهم لبافلوف نسخة او نسختين من كتاب لشاعر بريطاني ويبدو ان ستالين علم بالامر فقال في حضرته وهو يتصنع المزاح، « ان بافلوف اصبح على علاقة ودية جدا بالاجانب ».
وبعد ذلك غدا من المتعذر علي ان اتبادل الاحاديث الودية مع بافلوف قبل الاجتماعات وبعدها . وقد حاولت ان ادعوه الى المآدب ولكنه كان يعتذر عن عدم قبول جميع الدعوات .

مثل القبر

وفي الحفلات كان يخيم على افراد الوفد السوفياتي صمت شبيه بصمت القبور وتسري في اوصالهم قشعريرة تكاد تحبس انفاسهم لدى ظهور ستالين . وعندما يتكلم كان التوتر يخف قليلا ولكنه لا يتلاشى . ولا اذكر اني شعرت بالاسى للعلاقات بين مخلوقين بشريين الا عندما رأيت فيشنسكي ، الدبلوماسي والنائب العام السابق القاسي القلب ، في حضرة ستالين . كان فيشنسكي يتصرف مثل كلب مذعور فينحني ويومىء برأسه موافقا ويتراجع امام سيده وكان ستالين يحتقره بوضوح . وفي احدى جلسات مؤتمر يالطة سمعت ستالين يقول لعدد من مرافقيه بينهم فيشنسكي نفسه :« مع فيشنسكي كل شيء ممكن . انه يهب لعمل اي شيء نقوله له ».

وكانت درجات الخوف من ستالين التي تتراوح بين افراد الخدم المرتجفين في مآدب الكرملين حيث يقف رجال البوليس السري خلف كل واحد منهم بالثياب العادية (بمعدل واحد لكل خادمين) .

وقد كان يعامل كبار الدبلوماسيين امثال ماليك وزورين وغروميكو وكبار الضباط امثال بولغانين وفاسيلفسكي وكونييف وفورونوف كما لو كانوا سعاة وكانوا يتصرفون على ذلك النحو في حضرته .
وبين الدبلوماسيين بدا لي ان ليتفينوف كان اكثرهم احتفاظا بكرامته

ومهابته . الا ان ليتفينوف كان يبدو دائما منطويا على نفسه .

وبدا ان مولوتوف فقط كان متحررا من عقدة الخوف التي ارتسمت بصورة دائمة على وجوه الاخرين فقد كان ستالين يسخر منه جهارا وكان هو يتقبل السخرية بدون مبالاة .

وقد ذكرتني العلاقة بينهما بالعلاقة بين معلم المدرسة والتلميذ المجتهد . فعندما كانت تثار نقاط دقيقة اثناء المحادثات مثل المحادثات التي جرت حول برلين في الكرملين ، كان مولوتوف يبدو وكأنه حضر درسه واعد الاجوبة لستالين وفي بعض الاحيان كان يكب فوق المائدة ليصحح ارقام سيده . ولم ار اي رجل آخر بين مستشاري ستالين يجرؤ على مقاطعته او التصحيح له . واثناء جنازة ستالين في ٩ اذار عام ١٩٥٣ ، القى مولوتوف ومالينكوف وبيريا خطبا تأبينية وكان مولوتوف الوحيد بينهم الذي قيل انه بكى وانا اصدق ذلك .

كان ستالين يطلب في الحفلات الاجتماعية الى الاميرالات ان يحضروا له زجاجات الشاي ويطلب الى الجنرالات ان يحضروا القهوة .

وفي احدى المرات عندما سأل ستالين المارشال مونتغمري بعد العشاء اذا كان يرغب في مشاهدة فيلم في السينما الخاصة بالكرملين واعتذر الاخير عن ذلك بحجة انه سينهض باكرا في اليوم التالي لكي يعود الى بريطانيا علت وجوه الضباط الذين كانوا هناك علامات الاستغراب كما لو كانوا لا يصدقون اذانهم واستخلصت من تمتمتهم كلمة « سميلو » اي تلك جسارة ولكن عندما تحول ستالين اليهم وحدجهم بناظريه التزموا الصمت فورا .

كلب مسن لا نفع منه

واقرب معاملة الى الشفقة كانت معاملة ستالين لفوروشيلوف الا انها كانت خالية من العطف . كان فوروشيلوف يقف في حضرة ستالين وقفة ضابط عسكري ذي امجاد غابرة وكان ستالين يعامله ككلب مسن لا نفع منه وقد ابقى عليه كتذكار لايام اكثر مغامرة . وحسب الروايات السوفياتية، كان فوروشيلوف احد الضباط العظام في الحرب الاهلية ضد البيض . وكان يظهر في كل مكان ببزة مارشال وبقي عضوا بالمجلس الحربي الا ان ستالين كان يذله وقتما يشاء .

وفي اول جلسة كاملة بمؤتمر طهران قال ستالين انه لم يتوقع ان تجري اية مناقشات عسكرية ولهذا فهو لم يحضر اي خبراء عسكريين . ولكنه اضاف قائلا ان فوروشيلوف قد يؤدي المهمة وسيحاول جهده . وكان فوروشيلوف ينظر الى ستالين بعينيه الصغيرتين المستديرتين ولم يرف له جفن .

اما تصرف ستالين مع الاجانب فكان مختلفا .. كان يتصنع الاهتمام ولم يسمح لنفسه ان يبدو متضايقا ولكنه مع ذلك كان يحب مضايقة الآخرين .

استقبل ستالين في الكرملين عام ١٩٤٨ ، اي بعد ثلاث سنوات من توقيع معاهدة بوتسدام ، ثلاثة مندوبين غربيين جاؤوا يحاولون ايجاد حل ما لحصار برلين . فقبل ان تنته المجاملات والتحيات التقليدية بادر المندوبين بقوله :

« هل لديكم سلطة للتفاوض ؟ »

وكان ستالين يعلم ان المحادثات ستكون استطلاعية فقط في تلك المرحلة وقد قصد بملاحظته تلك ان يتسلم المبادرة ويضع الغربيين في موقف دفاعي .

وكرر المناورة نفسها في الاجتماع التالي عندما قال :

« هل تريدون تسوية القضية برمتها الآن ؟ لدي خطة بشأن برلين وهي مكتوبة وجاهزة في انتظار موافقتنا » .

كان يتشدد في مواقفه ويتراخى حسبما تدعو الحاجة وكان يرسل الى تشرشل واحيانا الى روزفلت برقيات عنيفة يتحدث فيها عن فشل مزعوم لقوافل الحلفاء في نقل مواد حربية الى روسيا . ولكن عندما زار مبعوثا تشرشل ، ايدن وايسماي ستالين بعد ذلك بوقت قصير كان يبدو ستالين امامهما في غاية اللطف والبشاشة . لقد سمعته يتحول من التهديد الى المنطق المجد في اقل من دقيقة وينتقل من المجاملة واللطف الى التوبيخ الفظ بسرعة مماثلة كل ذلك دون ان يرفع صوته .

زيارة مونتغمري

كان يفرض سيادته باشكال متعددة . ففي احدى المرات عندما زاره مونتغمري حمل اليه هدايا بينها اثنان من كتبه وصندوق من الويسكي حملته

بنفسي الى مكتب ستالين ، وقد بادره ستالين بالقول دون ان يلتفت الى الصندوق وقبل ان يكمل مونتغمري عبارات التحية :«نعم ؟ والآن ماذا تريد مني ؟ » .

وقد بقي ستالين محافظا على موقف التعالي ذلك طوال المقابلة . وقبل انتهائها بقليل ، اخرج مونتغمري كتاب اوتوغراف وطلب الى ستالين بكل تهذيب ان يكتب شيئا فيه فتصرف ستالين كما لو انه لم يفهم ما قيل (رغم اني تذكرت بانه في بوتسدام مشى ستالين حول المائدة في احدى المناسبات واخذ يجمع اوتوغرافات على لائحة الطعام) .

اما الآن فظل يتظاهر بعدم الفهم الى ان اضطر مونتغمري الى اتخاذ الموقف الذي بدا فيه كما لو كان يستجدي . ثم نهض ستالين متباطئا عن مائدة المؤتمر وسار نحو مكتبه حيث التقط ريشة وكتب جملة دون توقف . وقد حول مونتغمري الكتاب الي لاترجم ما كتب فاذا به يكتفي بنقل « تحياته الى الجنود البريطانيين » .

ذاكرة قوية

وتهكم ستالين على تشرشل من طرف خفي في بوتسدام عندما تحدث البريطانيون عن المصاعب التي سيتعرض لها الشعب البريطاني في الشتاء القادم اذا اضطروا بسبب مقترحات ستالين الخاصة بالمرور لان يزودوا جزءا من اوروبا بالفحم المقتطع من مواردهم المستنزفة . فقد رد ستالين بقوله ان روسيا في وضع اسوأ كثيرا واضاف قائلا ان في استطاعته ان يطلع المؤتمر على حقيقة الاوضاع في روسيا ولكنه يخشى لو فعل ذلك الا يتمالك تشرشل نفسه عن البكاء . وقد احمر وجه تشرشل قليلا وبدا متضايقا .

من الخرافات المتصلة بستالين التي ما زالت قائمة في الخارج انه كان يتمتع بذهن سريع حاد وكلامه مفحم . صحيح ان ذاكرته كانت جيدة وكان يضع هدفه دائما نصب عينيه ، ولكن اذا كان ستالين يوجز الكلام ويتحدث في الموضوع بلا مداورة ، فذلك يرجع لكونه لا يحسن الخطابة . والمرات الوحيدة التي سمعته فيها يتحدث بصورة مطولة كانت عندما يشيد بنفسه (مثلما فعل عندما حاول ان يقنع زعماء الحلفاء بانه هو وليس جوكوف «الذي انتصر في برلين) ... ففي امثال تلك المناسبات كان يتحدث

لمدة ثلاث دقائق تقريبا . ثم ان التحدث بواسطة مترجم يعطيه فرصة طيبة لجمــع افكــاره .

كان معظم الزعماء الغربيين الذين قابلوا ستالين يؤكدون انــه رجــل شجاع . وبقدر ما يتطلب البطش من شجاعة ، كان ستالين متمتعا بنصيب من تلك المزية ولكن اذا كان الانشغال غير الطبيعــي بالسلامــة الشخصيــة والخوف القائم من الموت ينمان عــن الجبن ، اذن فهو كــان ايضا جبانا فــي قلبـــه .

حرص على السلامة

ففي يالطة ، في اليوم الذي كان مقررا فيه ان يحضر ستالين طعــام العشاء في فيلا فورنشوف حيث كان يقيم الوفد البريطاني ، بدأت مهمــة المحافظة على ستالين في الصباح وكانت اكثر تشديدا ممــا حسب مضيفه تشرشل ، وكان الجنود السوفيات يذرعون ارض الحديقة باستمرار لحراسة الوفد البريطاني ولكن في ذلك الصباح انتقلت التعزيزات الــى المشــارف الجبلية في الخلف وانضم جنود جدد الى الحراس العاملين في الحديقة .

وكانت تقوم على جانبي الدرج الرخامي العريض الموصل الى الحديقة مجموعات من تماثيل الاسود ، وقد قام الجنود السوفيات بتفتيش كل واحد منها خشية ان تكون بداخله متفجرات . ثم فتش سقف الفيلا بكامله . وقبل موعد العشاء بقليل اقفلت جميع الابواب المؤدية الى غرفة الطعام .

وكان ستالين مصابا بمركب نقص فعلى الرغم مــن انــه يتجنب النظر اليــك مباشرة عندمــا يتكلم الا اني لاحظت بانه عندما تؤخذ الصور كان يتعمد ان يقف في مكــان يظهر فيه اعلى من الآخرين قليلا او على الاقل يصلح وقفته اذا كــان المكان منحدرا قليــلا .

وفي بوتسدام اصر بصورة صبيانية على ان يكون البادىء بتوقيع البلاغ النهائي . وكان ستالين يحب التملق الا انه لم تكن لديــه بالنفس التــي لدى خروشوف فعندما قال له روزفلت مازحا حول مائدة الطعــام في يالطة انه وتشرشل يدعوانه فيما بينهما « بالعم جو » بدا عليه الاستياء الشديد .

ولم يتمكن سوى جزء ضئيل جدا مــن الـ ٢٠٠ مليو سوفياتي مــن مشاهدة ستالين شخصيا ومعظمهم كــان يــراه من شرفـــة بعيدة اثنــاء استعراضات الساحة الحمراء .

وقليلون جدا هم الذين كانوا يعلمون اين يسكن ويعمل ، واقرب ما توصل اليه معظم المواطنين السوفيات من ستالين ، كان عن طريق صندوق بريد عادي انشىء في جدار الكرملين وحمل لقب ستالين الحكومي دون ان يحمل اسمه فهنا كان اصحاب العرائض التعساء يلقون باوراقهم ملتمسين الرأفة ببعض الاقرباء او الاحباء الذين يجري اعدامهم لابقاء ستالين على قيد الحياة او للمحافظة على سلطته .

ان ستالين لم يجعل شعبه يرهبه فقط بل جعله يخشى بعضه . فعندما كانت قرعة الباب التي يقوم بها البوليس السري في منتصف الليل مألوفة مثل زيارة ساعي البريد ، كانت النكتة السائدة في موسكو ، ان يقول بواب لبناية عندما يضطر الى قرع الباب في الليل : « لا تخافوا ايها الرفاق ! انها مجرد حريقة في البناء » .

آلـة عمر ستالين

في ذات يوم من شهر كانون الثاني سنة ١٩٤٧ ، وقفت سيارة سوداء امام عيادة الدكتور « فلاديمير فروموفين » طبيب القلب المعروف في موسكو . ونزل منها ضابط يرتدي بذلة خضراء زاهية ، زينت ياقتها وطرفا كميها بالاشرطة القرمزية التي يميز بها اصحاب الرتب الكبيرة في فرق البوليس السري الروسي .

ودخل الرجل الى غرفة الطبيب مباشرة ، ثم قال له بعد ان حياه تحية خاطفة :

« لقد حضرت لآخذك معي الآن ! »

ولم ينبس الطبيب بكلمة ، فقد كان يعرف حق المعرفة ما تعنيه المعارضة في مثل هذا الامر ، وعلى هذا خلع معطفه الابيض ، والقى على الممرضة تعليمات مقتضبة ، ثم تبع الضابط الى سيارته المنتظرة بالباب ، فانطلقت بهما عبر شارع « الاربات » ــ وهو من أحدث شوارع موسكو وافخمها ــ حتى بلغت الكرملين ، ودخلته من باب جانبي !

وبعد نصف ساعة .كان الدكتور فروموفين يقف امام رجل اصلع ضئيل الجسم في نحو الخمسين من عمره ، يضع على عينيه نظارة ذات عدستين سميكتين ، هو الدكتور « الكسندر فرانكل » كبير اطباء ستالين، والمساعد السابق للعالم الروسي « بوجومولتز » صاحب التجارب المعروفة لاطالة العمر .

وقال له فرانكل في عصبية ظاهرة :

« لقد دعوتك الآن لابلغك ان « لجنة الكرملين للبحوث الطبية السرية » قررت ضمك اليها ، واسندت اليك مهمة الاشراف علـــى قسم القلب فـــي مستشفى خاص بالقوقاز !

وبقي فروموفين هنيهة صامتا ثم تمتم بضع كلمات اراد بها ان يعبر عن شكره لاسناد هذه المهمة اليه ، ولم يمض على ذلك اسبوع حتى كان فـــي مدينة « كسلوفودسك » بالقوقاز ، حيث وجـــد في انتظاره سيارة يقودها احد رجال البوليس السري ، فاستقلها الى مجموعة من الابنية يحيط بهـــا سور عال يحرسه لفيف من رجال البوليس المزودين بالمدافع والبنادق سريعة الطلقات . وهنـــاك استقبله طبيب كـــان يعرفه مـــن قبل هـــو الدكتور « سابورسكي » وهو ايضا من اعوان « بوجومولتز » السابقين ، ثم شرح لـــه – لاول مرة – مهمته بالتفصيل !

وكانت اللجنة الطبية للبحوث السرية قد بدات منذ سنة ١٩٣٩ تجري تجارب خاصة ، تهدف الى اطالة عمر ستالين حتى المائة . وقد اوفدت فـــي تلك السنة نخبة من اطباء موسكو التابعين لها الى بلاد القوقاز حيث طافـــوا بكثير من المدن والقرى هناك ، يصحبهم عدد كبير من رجال البوليس ، ومعهم سيارات بها أجهزة دقيقة للاشعـــة والتحاليل البكتريولوجية ، وبعـــد ان فحصوا آلافا من الاهلين المسنين ، اختاروا من بينهم مائتين كلهم من ابنـــاء القرى الجبلية ذوي الاكتاف العريضة والاجسام الفارهة القويـــة ، ونقلوهم الى معهد التجارب البيولوجية في « كييف » حيث أجريت عليهـــم سلسلة اخرى من البحوث ، ثم اختير من بينهم للاثون ، روعي فـــي كـــل منهم ان تكوين جسمه يشبه الى حد كبير ، تكوين جسم ستالين مـــن حيث طـــول القامة والوزن والقوة العضلية وفصيلة الدم . كما روعي انهـــم جميعا مثله يسرفون في التدخين وتناول المشروبات الكحولية المحلية . ثم اخذ المختصون يجربون في هؤلاء الثلاثين ما اعدوه مـــن العقاقير والامصال لاطالة عمـــر ستالين ، وفي الوقت نفسه فرض عليهم ان يقضوا اوقاتهم بالطريقة التـــي يقضي ستالين وقته بها من حيث ساعات العمل الرسمية التـــي يقضيهـــا جالسا الى مكتبه ، وساعات النوم والرياضة والنظام الغذائي الـــذي يتبعـــه وعدد السجاير التي يدخنها وما الى ذلك . .

وقد توفي منهم في الاشهر الثلاثة الاولى احد عشر رجلا ، ثـــم توفي ثلاثة آخرون في الاشهر التسعة التالية ، فاختير بدلا من هؤلاء الاربعة عشر

آخرون من بلاد القوقاز الجبلية ، واستمرت هـــذه التجارب حتـــى اوقفت بسبب الحرب حتى سنة ١٩٤٦ ثم تقرر استئنافها ، واعدت لذلـك مصحة خاصة بمدينة « كسلو فودسك » بدلا من معهد البحوث في كييف !

وكان من بين اولئك النزلاء « جاكوف جيلادزي » احـــد ابناء عـــم ستالين ، وهو يشبهه الى حد كبير ، حتى انه ناب عنـــه فـــي الظهور امام الجماهير في بعض المناسبات خلال الحرب . وقـــد حرص المشرفون علـــى التجربة ان يجعلوا « جاكوف » هذا يقلد ستالين في كل صغيرة وكبيرة في نظام حياته . فلما اشير على ستالين سنة ١٩٤٦ ، بأن يقلل وزنه باتباع نظام غذائي خاص ، امر « جاكوف » باتباع النظام نفسه فنقص وزنه ــ كما نقص وزن ستالين ــ احد عشر رطلا !

المصحة الغريبة

كانت هذه المصحة الخاصة مؤلفة من اربعة ابنية ، كـــل منها طبقتان . وقد الحق بها اسطبل عصري زود بآلات لتكييف الهواء ، بـــه ثلاثة جيـــاد اصيلة يشرف عليها اخصائي في الامصال وطبيبان بيطريان وعدد كبير مـــن المساعدين ، ليستخلصوا منها مصلا خاصا اكتشفه « بوجومولتز » واطلـــق عليه اسم « ا. ك. س » مؤكدا انه كفيل بمقاومة شيخوخة الخلايا والانسجة في الجسم ، وخاصة انسجة الاوعية الدموية . اما طريقة الحصول على هذا المصل فهي حقن هذه الجياد المختارة بمواد مستخلصة مـــن نخاع العظـــام والطحال للشبان الاقوياء الذين يقتلون في الحوادث ، ثـــم استخلاص المصل بعد ذلك من دماء هذه الجياد .

وقد تعاونت المستشفيات الروسية ــ خلال السنوات الاخيرة ــ مـــع المشرفين على اجراء هذه التجارب بارسال ضحايـــا الحوادث مـــن الشبان الاقوياء ، بالطائرة الى المصحة .

وكانت مهمة الدكتور « فروموفين » اخصائي القلب ، مراقبـــة قلـــوب نزلاء المصحة ومعرفة اثر الامصال والعقاقير على قلوبهم . ومن الادوية التي جربت فيهم ، دواء اسمه « رقم ٣٧ » لاحظ فروموفين انـــه يقلل ضربات القلب الى ثلاثين ضربة في الدقيقة من غير ان يؤثر ذلك في صحة المريض او يقترن بمضاعفات .

وقد سمع « فروموفين » النساء القامته بالمصحة ــ لاول مـــرة ــ بمـــا



ستالين

يحاولون اطالة عمره

يسمونه في روسيا « آلة الحياة » وهي آلة ابتكرها احد اطباء الكرملين ، تقوم بوظائف القلب والرئتين والدورة الدموية خلال الدقائق الست التي تعقب توقف القلب ، وتتلف خلالها أنسجة المخ اذا لم يصل اليها دم .. وبذلك تعطي للجراحين والاخصائيين في القلب فرصة علاج العطب الذي اوقف أجهزة الجسم عن اداء وظائفها .

وقد صنع مبتكر هذه الآلة جهازا خاصا لستالين ، لا يزيد حجمه على حجم « البيانو » ، ويرتكز على عجلات حتى يمكن تحريكه بسهولة . وفي السنوات الثلاث الاخيرة ، كان هذا الجهاز ومبتكره لا يفارقان ستالين حتى في أسفاره بالقطار .

وكان المشرفون على تجارب اطالة عمر ستالين يأملون ان يبلغ المائة ، لا بسبب الامصال وحدها وانما بسبب الوراثة ايضا التي ثبت انها عامل هام في طول العمر . فجد ستالين بلغ التاسعة والثمانين ، واثنان من اعمامه بلغا الرابعة والتسعين ، وعاش قريب آخر له حتى تجاوز المائة .

وبرغم ذلك كله ، مات ستالين في الثالثة والسبعين ولم تفلح التجارب الطويلة المعقدة التي قام بها اولئك العلماء ..

٢

هتلر في حياته الخاصة والعامـة

بقلم البرت شبير
الوزير الالماني السابق



وقد كتب (شبير) مذكراته هذه بعد خروجه مـن سجن الحلفاء فـي سنة ١٩٦٥ ، بعد ان امضى فيه ٢١ سنة ..

ما من احد سيستولي على السلطة ـ اية سلطة ـ مديرا كان في مؤسسة او رئيسا لحكومة أو ديكتاتورا الا ويواجه القضية المزمنة ... وهي انقلاب الحاشية الى طغمة من المالئين وماسحي الجوخ ... الذين يفسدون اجواء الحكم ونظامه ويفسدون سيدهم نفسه .

وكان لهتلر طريقة غريبة فيالعمل ابتداءمن سنة ١٩٣٧ تقضي بان يعيش في عزلة متزايدة . ومما زاد الطين بلة انه لم يكن قادرا على اقامة علاقات شخصية مع احد . ففي الشلة المقربة من الزعيم النازي كنا نبحث احيانا في التبديل الذي بدا يطرأ عليه . واتيحت لنا فرص عديدة لمراقبة ذلك في اثناء اقامتنا مع هتلر في عزلته في جبله الخاص .

وكان مارتن بورمان سيد منتجع اوبر سالزبرغ الحقيقي دون منازع . فاشترى عددا من المنازل والمزارع القديمة اجباريا وهدمها واشترى عددا من المنازل القائمة على الطريق وهدمها .. واثار غضب السكان المحليين . ثم زين هذه البقعة بشبكة من الطرق واقتلع اشجار الصنوبر وجعل من الدروب بين الاحراج والتلال طرقا معبدة بالاسفلت واقام ثكنات لحراسة هتلر ومرآبا كاملا لتصليح سيارات الزعيم . وفندقا لايواء الزائرين . ومزرعة كبيرة لتامين حاجيات الزعيم والحاشية ومباني سكنية للموظفين المتزايدين . وانتشرت اكواخ لمئات العمال العاملين في ورشات بورمان على المنحدرات في الطرق والمباني ، كما تناثرت المئات من سيارات الشحن وهي تقل مواد البناء الى مقر الزعيم . واضيء عدد من الاماكن بالانوار الساطعة في الليل لمساعدة العمال المناوبين على القيام باعمالهم الليلية وانجاز ما يترتب عليهم انجازه في اسرع وقت . وكانت تلغم بعض الصخور احيانا وتدوي اصوات الانفجارات في الوديان .

اختصاصيات بورمان

ولم يكن هتلر يأنس كثيرا باصوات العمل المصم للاذان ولكنه كان يقول « هذا من اختصاص بورمان وليس علي ان اتدخل بالامر » . وقال في

مناسبة اخرى « حين ينتهي العمل كله سابحث عن واد هادىء اخر وابني فيه بيتا صغيرا من الخشب كبيتي السابق ابتعادا عن الضجيج » .

والواقع ان العمل لم ينته . فقد كان بورمان يدأب باستمرار على اقامة الطرق والمباني .

وحين نشبت الحرب العالمية الثانية بدأ بورمان يعمل لانشاء مقر لهتلر ومساعديه تحت الارض .

وحين كانت تجري المباحثات الرسمية كان ضيوف هتلر الشخصيون يقصون الى الطبقة الاولى من المنزل . وبما ان السلم هناك يؤدي الى غرفة الانتظار الخاصة بمكتب هتلر فقد كان على كل من يريد ان يقوم بنزهة ان يوفد حارسا مسبقا ليأخذ الاذن باجتياز المكان .

وفاخر هتلر كثيرا بنافذة غرفة الجلوس الخاصة التي كان بالامكان انزالها تماما لتشرف على اوسع المناظر الطبيعية واشملها وكانت مشهورة بكبرها واتساعها .

كما كان بالامكان مشاهدة انترسبرغ وبرشسغاد وسالزبورغ منها .

عائدات كفاحي

والجدير بالذكر ان هتلر اقام بوحي من نفسه كراج سياراته تحت هذه النافذة . وكثيرا ما كانت تهب الرياح المعاكسة لتنقل رائحة البنزين الى انفه وانوف رفاقه .

والمؤسف ان تخطيط الطبقة الارضية لم يكن يتسم بلمسات فنية تعبر عن خبرة واختصاص ومع ذلك اتسمت الحياة في مقر هتلر الريفي بطابع خاص تميز بالهدوء كما يتميز بالضخامة في كل شيء . وتمادى بورمان في النفقات مما احرج وضع هتلر المالي .

وقال هتلر مرة : « انفقت كل عائدات كتاب كفاحي وقد طلبت من الناشر ان يسلفني بعض المال على حساب المائة الف نسخة الاخيرة ومع ذلك فقد ابلغني بورمان ان المال لا يكفي لسد النفقات » .

وهكذا جلس هتلر الذي سجن نفسه في عزلة برنو بانتظاره الى انترسبرغ التي تقول الاسطورة ان امبراطورا من القرون الوسطى المنصرمة سينهض في يوم من الايام . لاعادة مجد امبراطوريته .

وقد طبق هتلر قول الاسطورة على نفسه وكان يقول « انـــرى مدينة انترسبرغ هناك ؟.. يبدو ان اشراف بيتي عليها ليس من باب الصدفة ..»

ولم يكن اندفاعه للبناء في منطقة اوبرسالزبرغ هو كل مـــا يجمع بينه وبين بورمان . والاهم من كل ذلك ان بورمان اعد الترتيبات ليستولي علـى جميع الموارد المالية الخاصة بحكومة هتلر حتى باتت مساعدو هتلــر يعتمدون على بورمان في قضاياهم المالية كما ان ايفا براون نفسها التي اعترفت لي في وقت لاحق كانت تتطلع الى بورمان ليحقق لها مطالبها المعتدلة .

وكان بورمان منذ سنة ١٩٣٤ وما بعدها يعمل فـــي اصرار ومكابـرة وعناد من اجل مبدأ اخر بسيط وهو ان يكون في متناول ولي نعمته في جميع الاوقات والظروف . فقد كان يرافق هتلر في مقر برغهوف الريفي ويسافر معه في جميع تنقلاته ولم يترك جانبه دقيقة واحدة فـــي المستشارية حتى الساعات المبكرة مـــن الصباح، واصبح بذلـــك السكرتير المجتهد الموثوق به والذي لا يستغنى عنه .

وحتى في هذه المرحلـــة كـــان مساعدو هتلر يحسدون بعضهم بعضـــا ويستعدون لمعركة الجبابرة . ففي هذه الايام الاوائل جرت عدة مناكفات حول السلطة بين غوبلز وغورنغ وروزنبرغ ولي وهملر وريبنتروب وهس . وكان كل واحد منهم متأكدا من ان بورمـــان الذي لا يكل ولا يمل يهدد مـــركـــزه شخصيـــا . وكانت قسوة بورمـــان بادية في تصرفاته مـــع كـــل طـــلاب السلطـــة .

وتفاديت انا شخصيا الاحتكاك مع بورمان ، فقد كنا نكره بعضنا منـــذ البدء ، ولكننا كنا نتبادل بيننا المجاملات التـــي يتطلبها الجو الرسمي فـــي اوبرسالزبرغ .

وكثيرا ما كان يردد هتلر ان بقاءه في « الجبل » يتيح لـــه جوا مـــن السلام الفكري والثقة النفسية والراحة الذهنية الضرورية لاتخـــاذ مقرراته المذهلـــة .

برنـــامج العطلـــة

وكان يهبط عادة من جناحه الخاص في حوالي الساعة الحاديـــة عشرة صباحا فيتناول الانباء الصحفية ويستمع الى بعض المعلومات مـــن بورمان ويتخذ القرارات الضرورية .

ولا يبدا نهاره حقيقة الا على وقعة غداء مطولة . فيجتمع الرفاق بـــه في قاعة الانتظار .

وقد اختار هتلر رفيقته فكانت ايفا براون تجلس الـى يساره دائما . واخذ بورمان منذ سنة ١٩٣٨ على عاتقه امر ادخال ايفا براون معه الى الغداء وبذلك يظهر مقامه الكبير في بلاط الزعيم النازي .

كانت قاعة الطعام تتميز بديكور جميل خاص بالمنازل المعـــدة لتمضية العطلات الاسبوعية لدى الاثرياء . وكانت الاطباق بيضاء عادية امـــا الفضية فقد دمغت بشعار هتلر الخاص .

وتميز طعام هتلر بجودته وبساطته فهو يتالف عادة مــن حساء ووجبة لحم وحلوى مع مياه معدنية او نبيذ .

اما الخدم فكانوا من الباخرة « ليبستاندارت » وكانــوا يرتدون سترات بيضاء وسراويل سوداء .

وجرت العادة ان يكون حوالي ٢٠ شخصا حول المائدة الطويلة التــي يصعب التحدث حولهـا بسبب امتدادها .

وكان هتلر يجلس في الوسط يواجه النافذة ويتحدث الـــى الشخص المقابل له الذي كانت عملية اختياره تجري يوميا او يتحدث الـــى السيدة الجالسة الى يمينه .

بيت الشـاي

ويحين بعد ذلك موعد توجه الموكب الى « بيت الشاي » بعـــد تناول الغداء بوقت قصير .

وقد كانت العملية موكبا فعلا ذلك لان الممر ضيق لا يتسع لاكثر مــــن شخصين وكان يتقدم الموكب اثنان من رجال الامن ياتي بعدهما علـى مسافة غير قصيرة هتلر والشخص المرافق له في ذلك النهار ثـــم الرفاق الآخرون يلحق بهم عدد اكبر من رجال الامن .

ومما كان يثير غضب بورمان هو ان هتلر يتفادى السير فـــي الممرات المعبدة في نصف الساعة التي يمضيها في الاحراج ويختار طرقا غير معبدة. ويقوم « بيت الشاي » في مكـان يحبــه هتلـر ويشرف علـى وادي



هتلر وغوبلز

برشتسفادن . وكان الرفاق دوما يثنون على المنظر الطبيعي فيرد عليهم هتلر بالجواب المناسب . والبيت هو كناية عن كوخ يضم حجرة مستديرة قطرها حوالي ٢٥ قدما . فيجلس افراد الشلة على كراس مريحة حول طاولة مستديرة وتجلس ايفا براون مرة اخرى الى جانب هتلر بينما تجلس سيدة اخرى الى الجانب الاخر . ويتوجه كل من لا يجد مكانا له يجلس فيه الى غرفة صغيرة مجاورة . وفي الكوخ يقدم الشاي او القهوة والكاكاو بالنسبة الى رغبة كل شخص بمفرده بالاضافة الى بعض الحلويات والكاتو تتبعها المشروبات الروحية المهضمة ..

وكانت تلك الفترة هي المناسبة التي يطلق فيها هتلر لنفسه العنان في مونولوج لا نهاية له يكرر فيها مواضيع يعرفها الاصحاب جيدا فيخفون بطبيعة الحال عدم اهتمامهم بالامر خلف ستارة سميكة من الاصغاء التام . وكان هتلر يغفو احيانا في اثناء حديثه فيغتنم الصحاب الفرصة ويبدأون

بالتحـــدث همســـا وهم يأملون ان يفيق في الوقت المناسب لتناول العشاء .

وكانت فترة تناول الشاي تستغرق حوالـــي الساعتين وتنتهي فـــي الساعة السادسة . فينهض هتلر ويقوم بمسيرة اخرى لمدة ٢٠ دقيقة الـــى حيث تقف السيدات بانتظاره ..

ولدى العودة الى مقر برغهوف يصعد هتلر عادة السلم الـــى جانحـــه الخاص وتتفرق الشلة .

وغالبا ما يختفي بورمان فـــي احدى حجرات السكرتيرات الصغيرات تحقيقا لتعليمات ايفا براون .

برنـــامج السهـــرة

ويجتمع الافراد بعد ساعتين لتناول العشاء حيث تجري مراسم مطابقة لمراسم الغداء . ويتوجه بعدها هتلر الـــى قاعـــة الجلوس مرة اخرى مع الرفاق انفسهم .

وكنا نجلس على الارائك او الكراسي فترتفع سجادات الجدار ويبـــدأ القسم الثاني من السهرة بعرض فيلم سينمائي . وكانت الافـــلام عادة كما تكون في برلين منوعات خفيفة ذات فكرة تقوم على حب وتدله . وكان هتلر مولعا بالافلام الموسيقية التي تتميز بالسيقان العارية .

ونجتمع بعد العرض حول المدفأة الكبرى يجلس ستة او ثمانية منا على اريكة طويلة منزعجين بينما يكون هتلر جالسا بين ايفـــا براون واحـــدى السيدات على كراس مريحة . والواقع انه بسبب ترتيب المقاعد المقصود لـــم يكن الكلام ممكنا بين الحضور . فقد كان كل شخص يتحدث الـــى جـــاره بصوت خافت . بينما كان يتحدث هتلر بصوت خفيض في امور عادية تافهة الى السيدتين حوله او يهمس اشياء باذن ايفا براون وهـــو يتناول يدهـــا بين يديـــه .

وغالبا ما كان يجلس دون ان يتفوه بكلمة ويحدق فـــي المدفأة فعندها نصمت تماما لنتيح له جوا من التفكير العميق .

وفي وقت لاحق تخلى هتلر عن العرض السينمائي في السهرات فـــي سنوات الحرب العالمية الثانية وذلك تعاطفا مع الجنود فـــي حرمانهم مـــن التمتع بمثل هذه اللحظات الحلوة . وكانت تدار اسطوانات موسيقية بـــدلا من ذلـــك .

وعلى الرغم من ان لهتلر مجموعة من الاسطوانات تتبوا المرتبة الاولى الا ان برنامج السهرة كان متشابها في جميع السهرات يبـدأ بمقطع او مقطعين من اوبرا لفاغنر ثم يتحول الى اوبريت خفيفة .

وكان هتلر يطمح لمعرفة اسم المغني او المغنية ، وكانت علامات الزهو والاعتزاز ترتسم على محياه حين « يحزر » الاسم ...

وكانت الشمبانيا تدار في هذه السهرات البسيطة التي لا تتوفر فيها السلوى . وبعد احتلال فرنسا اصبحت الشمبانيا التي تقـدم الينا مـن النوع الرخيص .

الليـل الطويـل

وتمتع غورنغ ومارشالات الجو التابعون لـه بافضل انواعها فلـم يكن باستطاعة احد منا ابتداء من الساعة الواحدة صباحا ان يكبت تثاؤبه مهما حاول . وكان امامنا ساعة كاملة من الفراغ الممل المزعج الرتيب .

فتهمس اثناءها ايفا براون بعض الكلمات لهتلر وتصعد الـى الجناح الخاص . وينهض هتلر بعد ربع ساعة ويتبعها الى الجناح الخاص ايضا .

وبعد هذه الساعات المرهقة المملة نجد متنفسا لنا فننغمس في الاحاديث والشراب وكاننا تلاميذ مدرسة في فرصة بعد عناء الدرس .

وفي حوالي الساعة الثانية صباحا كنا نذهب الى بيوتنا منهوكي القوى من عناء الفراغ القاتل .

وكنت بعد مضي بضعة ايام في هذا الفراغ الرسمي اشعر انني قـد اصبت « بمرض الجيل » بسبب هذا الاستمرار في اضاعة الوقت .

وكنت لا انصرف مع الموظفين الذين تحت امرتي الى المخططات المكتبية وشؤون اعمالنا الا حين تبدأ محادثات رسمية مـع الفوهرر فتقطع علينا استمرار الفراغ لننصرف الى اعمالنـا المفيدة .

ولم يكن بامكاني ان اهرب من هذه السهرات المملة البغيضة باعتباري من المقربيـن للزعيم ومن ذوي الاولويـة عنده في اورسالزبرغ .

راي الزعيم في المراة

وجرت العادة ان تظهر ايفا براون في المجالس بحضور كبـار اعضاء الحزب القدامى . ولكنها كانت تختفي فـي المجالس بحضور اعيان الريـخ

كالوزراء مثلا . فحين حضور غورنغ وزوجته كان يترتب على ايفا براون ان تلزم حجرتها .

وكنت ارافقها فى بعض الاحيان الى غرفتها المنفردة المجاورة لمخـــدع هتلـر .

كانت حبيسة مرتبكة لانها لا تجرؤ على مغادرة البيت للقيـام بنزهة . وقالت لي مرة « قد التقى بغورنغ وزوجته في الطريق » .

ولم يكن هتلر يابه كثيرا بوجودها .. وكان يبحث امامهـا دون تحفظ في وجهة نظره في المراة فيقول :

ـ « ان اصحاب الذكاء الخارق من الرجال يجب ان تتوفر لديهم نساء حمقاوات غير مثقفات ... فكروا في الامر ... ماذا لـو كان عندي زوجة تجادلني في عملي وتتدخل في شؤوني . انني فـي اوقات فراغي أحب أن ابقى وحيدا . ولذا لا يمكنني ان اتزوج .. يا للاولاد كم يسهمون في المتاعب واوجاع الراس .. وبطبيعة الحال سيحاولون ان يجعلوا ابني خلفا لي ... فالواقع ان رجلا مثلي لا أمل عنده في ان يكون له ابن قدير .. هـذه هـي الحياة .. انها هكذا .. اليكم ابن غوته .. انه فرد ميئوس منه ..

ويسترسل هتلر في الحديث فيقول « كثيرات من النسوة يحطن بـي لانني رجل غير متزوج ... وكان لذلك اثره حين كنا في مرحلة الكفاح .. انها نفس المشكلة مع نجوم السينما .. فهم حين يتزوجون يفقدون الكثيـر من مقامهم في عيون المعجبات بهم . وبذلك لا يحرزون فـي عيونهن مقـام المعبود » .

وكان هتلر مقتنعا في قرارة نفسه بانه مـن الناحية الجنسية جذاب جدا للمراة ... وهنا أيضا لم يكن هتلر واثقا من نفسه .. فهو لم يعلم مـا اذا كانت المراة قد اعجبت به لانه مستشار الريخ او لانه مجرد ادولف هتلر عادي .. والجدير بالذكر ان هتلر لم يكن ليرغب فـي ان يقيم علاقات مـع ايـة امراة ذكية .

ويبدو انه لم يكن لدى هتلر اية فكرة عن مدى الاحتقار الـذي تحمله هذه التعابير للنساء الحاضرات في مجالسه .

وعلى الرغم من هذا فقد كان هتلر قادرا علـى اظهار بعض الحنـان العاطفي والمسؤولية العائلية فقد خرجت ايفا براون مرة لتزلج علـى الثلج

وعادت متاخرة لتناول الشاي .. وكان هتلر قلقــا عليها بشكــل واضح . واستمر يتطلع الى الساعة في قلق واضطراب خشية ان يكون قــد اصابها مكــروه .

منشا ايفا براون

وقد جاءت ايفا براون من بيئة متوسطة . وكان ابوها معلم مدرسة . ولم اتعرف الى اهلها . كما ان احدا لم يتعرف اليهم . فقــد فضلوا البقاء مغمورين بعيدين عن الاضواء حتى النهاية .

وبقيت ايفا براون معتدلة في كل شيء ... لــم تكن لترتدي ملابس مثيرة بل حافظت على اناقتها واتزانها كما حافظت على التزين بحلى رخيصة كان يقدمها هتلر لها في عيد الميلاد وفي عيد ميلادها .

وكانت هذه الحلى تجمع احجارا كريمة غير مرتفعة الثمن لــم تكلف الواحدة منها اكثر من بضع مئات من الماركات ممــا لا يليــق بمقام مقدمها الكبير . وكان بورمان يأخذ على عاتقه مهمة احضار هذه التشكيلات ليختار منها هتلر ما يناسبه .

ولم تكن ايفا تهتم كثيرا بالسياسة كما انها لــم تحاول ان تؤثر علــى هتلــر .

كانت تتميز بحس مرهف وادراك سليــم . وكانت تعلق احيانا علــى بعض القضايا القائمة في ميونيخ .

وكانت ايفا براون تحب الرياضة والتزلج علــى الثلج بنــوع خاص . وكثيرا ما كنت اتزلج معها في الاماكن القريبة من المقر الجبلي .

وسمح لها هتلر مرة باجازة اسبوع حين لم يذهب الــى مقره فــي الجبل . وذهبت ايفا معنا الى مناطق التيرول فــي النمسا دون ان يعرفهــا احد فتدافع نحوها الضباط الشباب يراقصونها حتــى ساعة مبكرة مــن اليوم التالي .

ولم تكن ايفا براون تلك المراة التي تماثل مــدام دي بومبيدوز . ففي الواقع ان اهميتها لا تخرج عن انها امراة عادية مرت فــي حياة هتلر ردحا من الزمن .

وكنت اسف لها .. فقد كانت تحب هتلر فعلا ، وبــدات اقدرها حين

ادركت هذه الحقيقة عنها . وقــد التقينا معــا لاننا كنا نتفادى الاحتكاك ببورمان لانه لا يحترم جمال الريف .. ويدنسه باقتطــاع الاشجار وتشويه معالمه .. ولانه غير امين لزوجته ..

وحين علمت في محاكمات نورنبرغ ان هتلر تزوج من ايفا براون قبل يوم ونصف يوم من موته سررت كثيرا من اجلها مع انني اعلم كيف كــان هتلر ينظر اليها والى جميع السيدات .

هتلــر والاطفــال

وكنت دائما اتساءل ما اذا كان هتلر يحب الاولاد حقا .. فقــد كان اذا ما التقى باولاد يعرفهم او لا يعرفهم يتصرف تصرفا غريبا وكانــه لا يعرف شيئا عن الابوة والمحبة .

فلم يكن يحسن التحدث اليهم اذ يكتفي بكلمــة او كلمتين ويستدير بعدهما الى مرافقه ليتابع حديثه .

ولكنه رغم ذلك فقد كان ينظر الى الاطفال نظرته الى الدم الجديد الذي يمثل الجيل القادم . ولم يكن يهتم بمظهرهم .

والواقع ان هتلر لم يبد اية ملاحظة بالنسبة الــى اولادي رغم انــه شاهدهم مرات عديدة .

وتناولت بعد مواضيع بيت الشاي الازياء وتربيــة الكــلاب والمسرح والافلام والاوبرا الخفيفة ونجومها وبعض الامور التافهة فــي حيــاة بعض العائلات . والشيء المميز في هتلر انه لم يكن يذكر خصومه فــي مجالسه . لكنه من جهة ثانية كان يسخر من اقرب المقربين اليه .

ولم تكن مجالس هتلر الخاصة ذات سرية معينة . اما بالنسبة الــى المرأة فقد كان هتلر يقول كل شيء باطل فيها . وكان يبدي ملاحظات لاذاعة لتناول مساعديه .

هتلــر والكنيسة

وكان الفوهرر يقيم الدنيا ويقعدها بيــن مساعديه السياسيين علــى الكنيسة الا انه في حضور المرأة كــان يخفف قليلا مــن حملته ويقــول :

« الكنيسة ضرورية للشعب .. انها عامل قوي لاستقرار البلاد » . وكـــان ينظر الى الكنيسة وكأنها اداة بين يديه يستعملها متى يشاء .

وكان حتى اخر ايامه يقول في مجالسه انـــه يعتبر الكنيسة عامـلا ضروريا في الدولة وندد بالحركات المناوئة للكنيسة ووصفها بانها جريمة ضد مستقبل الشعب . وانه لا يمكن ان يستعاض عـــن الكنيسة بعقيدة الحزب النـــازي .

واقام فكرة حول الكنيسة تقول انهـــا مـــع الوقت ستتبنى الاهداف السياسية الاشتراكية الوطنية (النازية) وبذلك يقوم في البلاد ديــن جديد حزبي بدلا من تصوفات العصور الوسطى ومعتقداتها .

وكان بورمان اذا ما هاجم هتلر في مونولوجه الكنيسة يتناول ورقـة يدون عليها ما يجده مهما من اقوال زعيمه .

وحين علم هتلر في سنة ١٩٣٧ ان كثيرين من اتباعه تركـوا الكنيسة بايعاز من الحزب بسبب معارضتها العنيدة لمخططاته امـــر كبـار مساعديه غورنغ وغوبلز وغيرهم ان ينضموا اليهم . وقال انه نفسه سيبقى من اعضاء الكنيسة الكاثوليكية . مع انه لم يشعر بدافع نحوها ولكـن بسبب منصبه الكبير .. وبقي كذلك حتى انتحاره ولكن كـــل هـذه المظاهر كانت انتهازية في الواقع .

واعتبر هتلر الحضارة الافريقية ذروة التطور من جميع الوجهات وقال ان عبقرية الاغريق تتجلى في هندستهم التي تنفح بالنضارة والصحة .

وشاهد صورة فوتوغرافية ذات يوم لفتاة جميلة من السباحات فـــي مايوه مغر فقال « يا لها من اجسام جميلة .. » ان الشباب يقتربون فـــي هذا القرن من مستويات الجمال الاغريقي نتيجة للرياضة .

وتناول هتلر في مواضيعه ايضا ولـــع غورنـغ بالصيد . فقال كيف يتحمس انسان من اجل ذلك .. ان قتل الحيوان من اختصاص الجزارين .. اما ان ينفق المرء اموالا طائلة على ذلك . فهناك المصيبة . انـا متأكـد ان هناك صيادين محترفين للصيد يعملون في قتل الحيوانات المريضة المؤذيـة غير اننا اليوم نجد رجلا سمينا احمق يقتل حيوانا مـــن بعيد وهـو يضمن السلامة لنفسه .. ان الصيد وسباق الخيل مـــن رواسب عالـم العصور الاقطاعية البائدة .

ايفــا والكلب

وقبل الحرب ايضا كان هتلر يقول احيانا انــه عندما يحقق جميــع اهدافه سينسحب من عمله رسميا وينهي حياته في مسقط رأسه ولن يعود الى لعب اي دور على المسرح السياسي وذلــك ليتيــح لخلفه ان يعمل .. وعندها سينسى الناس هتلر بسرعة وسيتركه الناس ..

ويشفق على نفسه فيقول : « وربما يأتي احــد معاوني القدامى فــي المناسبات ليزورني ولكني لن اعتمد على ذلك كثيراً . ولن اخذ احدا معــي سوى الآنسة براون .. الآنسة براون وكلبي .. وساعيش في عزلتي وحيدا .. فمن يريد ان يسكــن مع انسان وحيد مدة طويلة من الزمن ؟ لا احد .. وسيتوجه الجميع الى من حل مكاني .. وربما جاء الناس الي مــرة فــي السنة في عيد ميلادي مثلا » ويحتج الرفاق ويمسحون الجوخ بطبيعة الحال ويؤكدون له انهم سيبقون اوفياء له .. ويبقون حوله الى الابد ..

احتمــالان

لم تكن نحن المقربين الى هتلر في الشلة لنشير اليه بانه الفوهرر بــل نسميه « الرائس » ولم تكن نستخدم تحية هايل هتلر ولكننا نقول له صباح الخير .. مع انه لم يكن يترك لنا المجال لنصبحه في اغلب الاحيان ..

وكنان نضحك فيما بيننا من بعض اقواله .

وكانت احدى سكرتيراته وهي المزولين شرويدر تقلده وتقول هنــاك احتمالان .. وتستعمل العبارة في اكثر المواضيع ..

ــ هناك احتمالان .. اما ان تمطر السماء او لا تمطر .

وقد تبلغه ايفا براون دون وجل على الغداء او العشاء ان ربطــة عنقــه لا تتناسب مع ردائه . وقد تشير الى نفسها بقولها انها « الام القروية » .

وكنت اسائل نفسي احيانا ما السبب في انني لا استطيع ان ادعــو هتلر صديقي مع انني كنت معه في جميع الاوقات ولــم اتركه دقيقة واحدة وكنت اقرب المقربين من معاونيه بسبب مهنتي الهندسية التــي تعتبر مــن احب المواضيع الى قلب زعيم النازية .

ولم اعرف في حياتي كلها رجــلا قلما يكشف عــن عواطفه وشعوره واحاسيسه وحين يفعل ينسحب فورا وكانه اعطى اكثر مما يجب اعطاؤه .

وقد تباحثت مع هس في السجن في هذه الناحية من حياة هتلر واتفقنا على ان للمرء لحظات يعتقد فيها انه تقرب اكثر من اللزوم من الآخرين . ولكن الانسان دائما على خطأ .

ولم يكن هتلر مرتاحا كثيرا في حياته مع ايفا براون كما انه لم يعاملها معاملة تتسم بطابع الانسانية . وقد بقيت الثغرة القائمة بين فوهرر البلاد والفلاحة البسيطة مستمرة في العلاقات بينهما مع انه كان يناديها احيانا « بالقطعة الصغيرة » .

اجتمع هتلر في تشرين الثاني سنة ١٩٣٦ مع الكاردينال فولهايبر في مقره الجبلي مدة طويلة من الزمن . وقد يكون الكاردينال جابهه بالمغامرات الخطرة التي يقوم بها .

وبعد ان ذهب الكاردينال جلس هتلر وحده معي امام النافذة الكبيرة وبادرني بجملته المأثورة قائلا « بالنسبة هناك احتمالان ، يجب ان استمر في مخططاتي حتى النهاية او افشل فان خرجت منها منتصرا اصبحت من اكبر رجال التاريخ وان اخفقت فلتلعني الاجيال وليرذلني التاريخ . »

وكان هتلر حتى قبل الحرب خائفا من انه لن يعيش طويلا . وكان منذ سنة ١٩٣٥ مهووسا بآلام معدته .

كان يحاول ان يتغلب على آلامه باللجوء الى التقنين في الطعام وتحديد الوانه . فيأكل قليلا وينظر الى طبقه العامر بالمآكل اللذيذة ويقول كيف يستطيع المرء ان يعيش هكذا .. انظروا الى هذه المآكل .. يجب ان يسمح الاطباء للانسان بأكل ما يريد . لا شيء يناسبني الآن .. فان الآلام تبدأ بعد كل وجبة .. فان تركت الاكل فماذا آكل . وكيف اعيش .

وكثيرا ما كانت آلام معدته تجبره على ترك المباحثات لمدة نصف ساعة او اكثر واحيانا كثيرة لم يكن ليعود بعدها الى الاجتماع .

وكان يقول انه يشكو نفخة وسوء هضم وحرقة وارقا .

وابلغتنا ايفا براون مرة ان هتلر على الرغم من انه لم يكن يبلغ الخمسين بعد قال لها « يترتب علي ان اتركك في يوم قريب .. » فأي جدوى لك من رجل مسن مثلي .

آلام هتلر

ورتبت الامور مرة لتجري على هتلر فحوصات طبية خاصة . وترددت فكرة بان ينقل الى مستشفى عسكري حيث يمكن الاحتفاظ بسرية الامر

هناك اكثر من اي مستشفى آخر ولكن هتلر رفض جميع الاقتراحات وقال انه لا يمكن ان يتحمل مجرد التفكير بانه مريض .. فان ذلك يضعف مركزه السياسي وخاصة في الخارج .. ولم يكن ليسمح لاي شخص اختصاصي بان يجري عليه فحصا طبيا حتى ولو كان ذلك في مقره الخاص .

وانني لاذكر ان هتلر لم يفحص فحصا سريريا حقيقيا . واستمر يقنع نفسه بنظرياته حول آلامه واسبابها ليثبت قوة الزعيم على احتمال الاوجاع ومواجهة الازمات .

وتمكن هنريك هوفمان وهو مصور هتلر الخاص من اقناع سيده بان يجري الدكتور موريل فحصا عليه . وادعى الدكتور انه انقذ حياة هتلر .. وكانت النتيجة الفورية فعلا مذهلة .

فلاول مرة اقتنع هتلر بان الطبيب عضو نافع في المجتمع وقال « لم يبلغني احد من قبل بمثل هذا الوضوح والدقة تفاصيل العلة التي اشكو منها . وكانت وصفة الدكتور موريل معقولة جدا ولي ثقة كبيرة بهذا الطبيب وسأنفذ بكل ما يأمرني به » .

وكان الطبيب يعطيه حبوبا ويزرقه بالحقن . وذكر طبيب هتلر الخاص الدكتور براندت انه استشار بعض زملائه في هذه العلاجات فذكروا له انها قد تسبب له حالة من الادمان ... وفي الواقع زادت المعالجة حتى بالت ادمانا . والعلاج يتألف من مواد مستخرجة من خصي الحيوانات وامعائها ، وبعض المستحضرات الكيماوية والخضرية .

سيد حقن الريخ

وسخر غورنغ من الدكتور موريل مرة بوصفه له انه « سيد الحقن في الريخ » .

والواقع ان الاكزيما المزمنة في قدم هتلر زالت تماما بفضل هذه الحقن ...

وتحسنت معدة الزعيم بعد اسابيع قليلة وبدأ ياكل بشهية اكبر ويتناول وجبات ماكنة .

وارتفع صوت هتلر بالحمد والثناء على الدكتور موريل وطفق يقول « ماذا كان سيحل بي لو لم التق بموريل . ان ما فعله علاجه بي عجيب حقا » .

وقد يكون هتلر قادرا على التاثير على الآخرين بصورة مذهلة اما في هذه الحالة فوقع العكس . . وتأثر باقوال طبيبه واقتنعبان طبيبهعبقري عظيم ولم ينتقده بكلمة واحدة . وقد اصبح موريل بذلك من اعضاء الشلة المقربين للزعيم .

وبانتهاء سنة ١٩٣٧ حين بدأ علاج الدكتور موريل بالاخفاق عاد هتلر الى ندب حظه .

وكان يقول لست ادري كم من الوقت ساعيش ومن المحتمل ان ينجز العمل فيهذه المباني بعد ان اكون قد فارقت الحياة .

وكتب هتلر في ٢ ايار ١٩٣٨ وصيته القانونية . وكان قد ذكر في ٥ تشرين الثاني سنة ١٩٣٧ وصيته السياسية شفهيا اظهر فيها مخططاته امام وزير الداخلية والزعماء العسكريين . وقال انها آخر وصية افضي بها قبل موتي . اما الحاشية المقربة من الزعيم التي تشاهد بملل كليل ليلة بعد ليلة افلام الاوبرا الخفيفة او تستمع الى اقواله المتواصلة عن الكنيسة الكاثوليكية وتفصيلات حمايته عن الطعام وتصغي الى مونولوجاته عن المعابد الافريقية والكلاب الالزاسية لم يكونوا ليفكروا حرفيا ان هتلر كان يحلم فعلا في امبراطوريته العالمية .

واعتقد المقربون منه انه غير اهدافه في سنة ١٩٣٨ بسبب تردي صحته بعد اخفاق علاج الدكتور موريل .

وانني اعتقد ان هتلر لم يغير اهدافه مطلقا ، ولكن المرض والخوف من الموت جعلاه يسرع في توقيت مواعيد اهدافه . ومن الثابت ان اهدافه لم تكن لتخفق وتفشل الا اذا جابهتها قوة اعظم . . وفي سنة ١٩٣٨ لم يكن معروفا لاحد اين هي تلك القوة التي تستطيع ان تقف في وجه هتلر واهدافه . . فالنجاحات التي حققها في تلك السنة جعلته يسرع في الاندفاع والزخم نحو هذه الاهداف ذاتها .

كانت الحياة في المستشارية في برلين التي اعدت بناءها تسير على النمط ذاته في اوبر سالزبرغ .

فقد جرت العادة ان يتناول طعام الغداء مع هتلر حوالي ٤٠ او ٥٠ شخصا بصورة دائمة . وما كان يترتب على هؤلاء الا ان يتصلوا بمساعد هتلر ليقولوا له انهم قادمون . وكان معظم هؤلاء من اعيان الحزب او الريخ

او بعض الوزراء وافراد الحاشية .

وكان لي انا ايضا حق الدخول الـــى دوائر المستشارية كلهــا وكنت استخدم هذا الحق دائما .

وجرت العادة الا نتبادل التحية الإجبارية « هايل هتلر » ولكننــا كنــا نستعيض عنها بالقول « صباح الخير » وقلمــا كانت شارات الحزب تظهــر على الملابس في هذه الدوائر .

مواعيــد هتلــر

لم يكن هتلر دقيقا في مواعيده وكان ياتي متاخــرا دائمــا ..
وكان يحضر بطريقة عادية جدا كأي شخص آخــر مــن الشلة ويصافح ضيوفه الذين يلتفون حوله واقفين .

وقد نبقى كذلك مدة ١٥ او ٢٠ دقيقة الى ان تفتح الستارة التي تغطي الباب الزجاجي المؤدي الى غرفة الطعام ويقبل المسؤول فيهمس باذن الزعيم ان الطعام جاهز .

وتبلغ مساحة غرفة الطعام ٢٤ قدما مربعا . وتتوسط القاعة طاولــة كبيرة مستديرة تتسع لحوالي ١٥ شخصا حولها كراس من السنديان يزينها جلد احمر . ولم يكن كرسي هتلر يختلف عن الكراسي الاخرى .

ووضعت اربع طاولات صغيرة اضافية فـــي الزوايا تتسع لاربعة او ستة اشخاص مزودة بكراس من النوع ذاته .

وكانت الصحون من البورسلين الابيض العادي والكؤوس مــن الزجاج البسيط .

هكذا كان « مطعم المستشارية السعيد » كما كان يسميه هتلر .

وكان هتلر يجلس دائما وظهره الـــى النافذة واعتاد ان يدخل القاعة ويختار اثنين من ضيوفه فيجلسهما الى يمينه ويساره ويجلس الآخرون من تلقاء انفسهم حول المائدة كما اتفق دون رسميات . امــا اذا كان في القاعــة ضيوف كثيرون فيترتب عندها على المساعدين والاشخاص الآخرين من ذوي المرتبات أن يجلسوا الى الطاولات الجانبية . وكنت انا من بين هؤلاء وقــد وجدت في ذلك امتيازا كبيرا لي يتيح لي التحدث بجدية اكثر .

وجبـات بسيطـة

وكانت وجبة الطعام بسيطة جدا وتتالف من حساء ومعجنات ولحـم وبطاطا وغيرها من الخضر ثم الحلوى .

اما الشراب فكنا نختار بيـن المياه المعدنية وبيـرة برليـن العادية او النبيذ الرخيص .

واستمر هتلر على الخضر للحماية وكان يشرب المياه المعدنية ويصر على البساطة في جميع اقواله وهو موقن ان كلمته هـــذه ستنتشر فـي جميع انحاء المانيـــا .

وقدم له في احد الايام صيادون من هلنفولاند كركندا بحريـــا ضخما وسررنا حين ظهر على المائدة . وابدى هتلر ملاحظته في ان تناول مثل هـــذا النوع من الطعام اسراف فاضح . وقال انه لا يريد ان يرى شيئا مـن هـــذا النوع على مائدته في المستقبل .

وقلما جاء غورنغ الى مثل هذه المآدب . ومرة كنت اودع غورنغ فقال لي « الصراحة ان الطعام سيء هناك . وان هـــذه الحفلات المستمدة مـن ميونيخ لا تطاق » ..

وكان هس يحضر مرة كل اسبوعين مثل هـــذه المآدب . وكان يتبعـه مساعد يحمل له « مطبقية » تحتوي على طعام هس الخاص .
كان « يسخنها » في المطبخ وبقي هتلر زمنا طويلا وهو لا يعلم ان هس يتناول وجبته الخاصة من الخضر . وحين علم هتلر ان هس يحضر طعامـه معه صاح به في احد الايام امام جميع اعضاء الشلة قائلا « ان عندي طاهية من الدرجة الاولى هنا فان وصف لك طبيبك طعاما خاصا فانها تهيئه لـــك بكل سرور ولكنك لا يمكن ان تحضر معك طعامك باي شكل من الاشكال .

وحاول هس الذي تعود ان يعطي بمقدر مـــا ياخذ ان يفسر لهتلر ان طعامه يجب ان تتوفر فيه مادة بيولوجية معينة فقال له هتلر عندها « فـي هذه الحالة عليك ان تأكل في بيتك . ولم يعد هس يحضر الـى الغداء بعـد ذلك الا في المناسبات .

وحين طلب الحزب ان يستعاض بصحن واحد يـوم الاحد كجزء مـن جمله « مدافع بدلا من الزبدة » لم يعد يقدم على مائدة هتلـر غيـر الحساء والمعجنات . واقتصر عدد الضيوف عندئذ على شخصين او ثلاثة اشخاص .

ولم تكن شلة هتلر تتألف من اشخاص ذوي خبرة في الحياة . فمعظم الحاضرين لم يسافروا الى خارج المانيا واذا قـدر لاحدهم ان يسافر فـي اجازته الى ايطاليا مثلا فان ذلك يعتبر حدثـا عظيمـا وموضوعا للمحادثـة والتندر على المائدة . وكان اعضاء الشلة ينظرون الـى ذلك الشخص وكأنه قام بجولة حول العالم .

ولم يكن هتلر نفسه يعرف شيئا عن العالم وزيادة علـى ذلك فـان سياسيي الحزب الذين احاطوا به كانوا من ذوي الثقافة الضحلة بوجه عام.

ومن بين الاشخاص الخمسين الكبار في الحزب والدولة لم يكن غيـر عشرة فقط من خريجي الجامعات وقد اخفق البعض في المدارس الثانوية كما ان ثقافة الغالبية منهم لم تكن اعلى من الثانوية . وقـد فضل هتلر ان يعمل وسط اشخاص من ثقافة وبيئة من هذا المستوى ويبدو انه كان يشعر وهو معهم انه بين اهله وعشيرته .

وكان هتلر يناجي نفسه دائما بانه من الخطأ تصدير عقائد كالاشتراكية الوطنية الى الخارج . وقال ان ذلك قد يؤدي الى زيادة الشعور القومي فـي البلدان الاخرى مما يضعف مركزنا نحن . وكان يغتبط لان الاحزاب النازية في البلدان الاخرى لم يتزعمها اشخاص في مثل وزنه وثقله .

وكان هتلر يعتقد ان الاشخاص مـن امثال موسلي الزعيم الفاشيستي البريطاني هم مقلدون له وليس لديهم معتقدات جديدة اصيلة .

هتلـر والنكتـة

ولم يكـن هتلر من الموهوبين بروايـة النكتة فقد ترك للاخرين امـر روايتهـا وكثيرا مـا كـان يضحك عاليـا ملء شدقيه حتى تترقرق الدموع مـن عينيـه .

وكان يضحك بسهولة ولكن على حساب الاخرين .

وكان غوبلز يلجأ الى النكات ليضحك هتلر من جهة ومن جهة اخـرى ليقلل من قيمـة بعض منافسيه الشخصيين في مزاحمتهم له على السلطة .

وكان هتلـر مولعا بروايـة قصص حداثته على الطعام . وكان يشددعلى القساوة التي انشأه اهله عليهـا ويقول « كـان ابـي يوسعني ضربا مبرحا . واعتقـد ان ذلـك كـان ضروريـا لي وافادني كثيرا » .

ويتدخل وزير الداخلية فريك ليقول « اذا حكمنا على مـا نراه الان يا زعيمي فان ذلك قد افادك » . ويستبد الصمت حول المائدة فيضيف فريك في محاولة له لتحطيم بعض الصمت قائـلا : « اعنيريا سيدي الفوهرر ..ان هذا هـو السبب الذي احلك في مكانك الان » .

ويعلق غوبلز الذي يعتبر فريك تافهـا فيقول بسخرية وخبث « اعتقد يا عزيزي فريك ان لا احد قـد اوسعك ضربا في صغرك » .

منـاورات الوزراء

وكان هتلر كثير الشكوك ولم يكـن ليرى من خلال المناورات البارعـة التي تعد لتجعله يغير رأيـه .

وكان هتلر لا يدرك هـذه الاساليب التي برع بهـا غورنغ وغوبلـز وبورمـان ومـن ثم همـلر . وهم يعتبرون خبراء دون منازع فـي هـذا الميـدان ويدركـون ان المناقشة الصريحة مع هتلر مآلها الفشل . فكانـوا يلجاون الى هذه المناورات والاساليب ليتيحوا له تغيير وجهة نظره اذااسعفهم الحـظ .

امسيـات برليـن

لم يكـن عددنـا في الامسيات في دار المستشارية في برلين ليزيـد على الستة او الثمـانيـة حول المائـدة .

وكنا : مساعدي هتلر وطبيبه الخاص والمصور هوفمـان وصديقين من ميونيخ واحيانـا بوير طيـار هتلـر الخاص ومساعد اللاسلكي فيالطائرة والميكانيكي وبورمـان .

وكانت هذه هي الحلقـة المقربة مـن الفوهرر في برليـن . ولم يكـن السياسيـون من امثال غوبلز وغيره يدعون في المساء . وغالبا ما يكـون مستوى المحادثات في المساء اقل طموحـا منه عنـد الغداء ويتناول الامـور العـاديـة .

وغالبا مـا يكون العشاء كالغداء بسيطا وعاديا . وحاول المسؤول عـن اعداد الطعام مرة او مرتين ان يجعل العشاء شهيا وفخما .

وقد بقي هتلر اسبوعا او اسبوعين يتناول الكافيار واعجب به كثيرا لانه لم يتذوقه من قبل .

ولكنه حين سال المسؤول عن كلفة الكافيار وعرف انه غالي الثمن حظر تقديمه على المائدة . فراح مدير المطبخ يقدم له نوعا رخيصا من الكافيار الاحمر ولكن هتلر منع تقديمه على اعتبار انه غال ايضا وكان هتلر يعتقد ان الفوهرر الذي يتناو الكافيار فوهرر مسرف ..

رتابة العرض السينمائي

وكانت الشلة تنتقل بعد العشاء الى قاعة كبيرة تستعمل عادة في المناسبات الرسمية . كنا نجلس على كراس مريحة ويفتح هتلر سترته ويمدد ساقيه امامه رويدا رويدا ويبدأ عرض الفيلم الاول في السهرة.. ويترتب علينا انذاك ان نصمت كما كنا نفعل في اوبر سالزبرغ لمدة ثلاث او اربع ساعات حين تنتهي عملية الافلام بالجملة في الساعة الواحدة فننهض وقد تجمدت عروقنا من الجلوس وجفت حناجرنا من الصمت .

وقد اقترحت مرة ان نقيم سهرات يحييها لنا كبار عازفي البيانو او يقدم فيها علماء محاضرات تفيدنا وتحطم رتابة السهرات ولكن هتلر رفض طلبي وقال « ان الفنانين لن يكونوا تواقين للحضور الى هنا كما تعتقد » .

وفي الواقع كان من الممكن ان يعتبر عدد كبير منهم امر دعوتهم للعزف امام هتلر شرفا كبيرا .

ومن المحتمل ان هتلر لم يكن ليرغب في تغيير نهاية يومه الرتيب الذي كان يفضله على سواه .

ولاحظت مرارا كثيرة انه كان يخجل حين يتعامل مع اشخاص كانوا في الماضي رؤساءه في بعض المهن .

وكان يتبنى خطة عرضية ولكن بتحفظ شديد كما لو كان في مقابلة رسمية . ومن المحتمل ان هذا هو السبب الذي جعله يضع ثقته بمهندس شاب مثلي .. فالواقع انه لم يكن يشعر امامي بمركب النقص .

الحفلات الراقصة

وفي السنوات الاولى من حكمه كان هتلر يسمح لمساعديه بان

يدعوا زوجاتهم او رفيقاتهم وبعضهن من دنيا الفن بموافقة غوبلز . وجرت العادة ان تحضر النساء برفقة ازواجهن .. واتخذ هذا القرار لمفاداة الشائعات التي قد تؤثر على الصورة التي اوجدها غوبلز حول الفوهرر النظيف الرصين الحازم .

وكان هتلر يتصرف مع هذه السيدات وكأنه خريج معهد للرقص نهاية الحفلة الراقصة وكان يتوق بخجل ان يفعل ما يناسب في حينه ويقدم المجاملات ويقول : كيف الحال ومع السلامة ويقبل اليد على الطريقة النمساوية .

وحين يخرج الضيوف يجلس هتلر عادة بعض الوقت مع شلته يمتدح النساء اللواتي كن حاضرات ويقرظهن بطريقته الخاصة .
وكان يثني على قاماتهن وهيئاتهن اكثر مما كان يثني على جاذبيتهن وجمالهن وذكائهن .

وكان كتلميذ المدرسة الثانوية يقنع نفسه ان المرأة التي تملى عينه لم تخلق بعد .

ولهتلر ولع غريب بالسيدات البدينات مع ان ايفا براون لم تكن من النوع الذي يروق له .

واذكر انه في سنة ١٩٣٥ غير فجأة عادة دعوة السيدات واسقطها من حسابه . ولم اعلم السبب وقد يكون ذلك بسبب الشائعات والهمسات .

بوهيمية هتلر

واعطيت ايفا براون في وقت لاحق في سنة ١٩٣٩ حجرة مجاورة لمخدع هتلر تشرف على ساحة صغيرة .
وعاشت فيها حياة تميزت بالوحدة والانفراد اكثر من المقر الجبلي في اوبر سالزبرغ .
وكانت ايفا تتسلل منها ذهابا وايابا عبر مدخل جانبي وسلم خلفي .
ولم تكن تستخدم السلم الرئيسي الا بوجود افراد الشلة المقربة من الفوهرر . وكثيرا ما كنت امكث قربها الساعات الطويلة .
وكان هتلر في عيون الناس الفوهرر الذي يعمل ليل نهار دون كلل

او لعب . والحقيقة ان كل شخص ملم باساليب الفنانين في العمل يفهم الحياة البوهيمية التي عاشها هتلر دون انتظام .

وكما ارى الاشياء بنفسي اعتقد ان هتلر كان يشغل نفسه اسابيع طويلة بقضايا غير مهمة ريثما يبت بامر معين .

واخيرا يعترف فجاة ان عليه ان يبت بالامر فيقدم الحل الذي اتخذه بشأن هذا الامر في اليوم الاول . وحين يتخذ قرارا في امر ما .. يخلد الى الراحة والتكاسل .

اخذتهم الى جانبي

وزار مقر هتلر في اوبر سالزبرغ في اوائل شهر اب سنة ١٩٣٩ بعض الضيوف وتوجهوا مع الفوهرر الى « بيت الشاي ».

وسار خط طويل من السيارات في الطريق التي شقها بورمان ثم ترجلنا ودخلنا بهوا من الرخام وتسلقنا المصعد النحاسي اللماع .

وفي اثناء ارتقائنا الى علو ١٥٠ قدما قال هتلر فجاة وكانه يحدث نفسه :

« قد يحدث امر خطير حقا بسرعة .. حتى ولو اقتضى ذلك ارسال غورنغ الى هناك .. وقد اذهب بنفسي اذا اقتضى الامر .. انني اراهن بكل شيء على هذه الورقة » .

وكان ذلك كل شيء .. وبعد ثلاثة اسابيع وفي ٢٣ اب سمعنا ان وزير خارجية المانيا يجري مفاوضات في موسكو .

وحين جلسنا الى المائدة نتناول العشاء تسلم هتلر ورقة طالعها بسرعة ثم حدق امامه قليلا واحمر وجهه وضرب المائدة بقبضة يده اهتزت لها الاقداح والصحون وصاح قائلا : « اخذتهم الى جانبي اخذتهم الى جانبي » .

وعاد الى نفسه بسرعة ولم يجروء احد ان يطرح عليه سؤالا .. فتابعنا تناول الطعام وقد خيم على الجو سكوت مريع ..

واستدعى هتلر بعد العشاء مرافقيه من الرجال وقال : « اننا على وشك عقد معاهدة عدم اعتداء مع روسيا » .

ثم تنفس قليــلا وقال « اليكم برقية من ستالين اقراوها ..»
كانت البرقية معنونة الى مستشار الريخ هتلر . وتتضمن نصا مقتضبا يثبت الاتفاق بيــن البلديــن .

والواقع ان تلك البرقيــة كانت اكثر الاحداثاثارة في امسيات الشلة ... برقية تحمل اسم هتلر وستاليــن على صفحــة واحــدة وتضمهمــا معــا فــي محبــة وود .

دقــة الحزن على الامبراطورية البريطانية

وعرض علينــا تلك الليلــة فيلم عن الجيش الاحمر ظهرت فيه حشود كبيــرة مــن الجنود واعــداد لا تحصــى مــن القــوات والوحدات يسير افرادهــا امــام منصــة ستاليــن .

وكــان هتلــر يتفرج على الفيلم ويبدي ارتياحه لما يرى من معــدات وقوى . والتفت الى مساعديه العسكريين وراح يبحث معهم في موضــوع هذا التجمع الكبيــر مــن الجنود والاسلحة باستحسان واعجاب .

واعلن غوبلز في تلك الليلــة ذاتهــا عن الاتفاق وعلق عليه في مؤتمــر صحفــي .

واتصل هتلــر به محاولا ان يعرف رد الفعل لدى المراسلين الاجانب .

وابلغنــا هتلــر ما قاله له غوبلز وعيناه تبرقان غبطة . قال : « كــان لذلك وقع مثيــر لا يعــادل .. وحيــن بدات اجراس الكنائس تقرع فــي برليــن قال احــد المراسلين البريطانيين « انهــا دقة الحزن علىالامبراطورية البريطانيــة » .

وكــان تعليق هذا الصحفي ذروة غبطــة هتلر تلك الليلة . فالحقيقــة انه لم يكــن ليعتقــد انه سيصل الى هذه الذرى المرتفعــة السامقة التــي بات من الصعب فيهــا ان ينالــه القدر .

وفي تلــك الليلــة بينمــا كنــا نقف مع هتلــر على شرفــة القرالجبلي كنــا نشاهــد مظهــرا خارقــا مــن المظاهر الطبيعية النادرة .

لقــد استمرت مدينة انترسبرغ الاسطورية قبالتنا تستحم فــي عرض رائع بانــوار الشمال . وظهر عرض انترسبرغ بلــون احمر غريب .. وكانت السمــاء تبعث اضواء بالوان قوس قزح يفوق الاحمرار الذي يرافق

الفصل الاخير من مسرحية « فوتر داميرانغ » الغنائية وظهرت وجوهنا وايدينا بسبب ذلك حمراء قانية تركتنا نفكر ونتامل ..

والتفت هتلر فجاة الى احد مساعديه العسكريين وقال « يبدو ذلك كدماء .. دماء كثيرة .. اننا لن نخرج هذه المرة منها دون الركون الى القوة .. »

وبعد بضعة ايام سار موكب هتلر على الاوتوستراد الى ميونيخ .
كانت القافلة تتالف من عشر سيارات تبعد الواحدة عن الاخرى مسافة آمنة .

وكنت مع زوجتي في الوسط وكان ذلك اليوم من اخر ايام الصيف وتميز بجو صاف وشمس مشعة ..
واخترق الموكب ميونيخ وترك سكانها هتلر يمر بهدوء غير عادي .

عشية الحرب الثانية

واقتنع هتلر بعد اتفاق ميونيخ بان القوات الغربية سترضخ بالنسبة للقضية البولندية وممر دانزيغ .

ويعود اقتناعه الى تقرير جاءه من استخباراته يقول ان ضابطا بريطانيا كبيرا ارسل ليتفقد قوات الجيش البولندي انتهى الى القول ان المقاومة البولندية ستنهار بسرعة امام هتلر .

وعلى هذا التقرير بنى هتلر اماله بان ما سيفعله الضابط البريطاني الكبير هو بذل كل ما في وسعه ليحمل الحكومة على الابتعاد عن التورط بحرب لا امل فيها .

واصيب هتلر بنكسة موقتة حين وصله انذار الدول الغربية في اول ايلول ١٩٣٩ بصدد موقفه من ممر دانزيغ .

ولكنه اراح نفسه واراحنا بملاحظة ابداها قال فيها ان بريطانيا وفرنسا تعلنان الحرب من اجل المبدا لكي لا تفقدا ماء وجهيهما امام العالم .

واقنع نفسه بانه بالرغم من اعلان الحرب فان القتال لن يقع مهما كان الامر .

واصدر هتلر اوامره للعسكريين يدعوهم فيهـا الى التزام جانـــب الدفـــاع .

وقال لرفاقه المجتمعين حول مائدة الغداء « اننـا في حالة حرب مـع انكلتـرا وفرنسا ولكننا اذا لـم نقاتل مـن جانبنـا فـان القضية ستنتهي. الواقـع ان ليس لديكـم ايـة فكرة عن هذه الديمقراطيات . انهـا تغتبط حيـن تتمكـن من الخروج من مأزقها .. وهي ستترك بولنـدا وشانها .. »
وقد رفض هتلر ان يسمح للغواصات الالمانية التي كانت في وضع ممتاز لضرب البارجـة الحربية دانكرك . ولم يتحمس الا حيـن شنـت بريطانيـا هجومـا جويـا على ويلهمهافن واغرقت الباخرة الينا.

وتمسك هتلـر بعناد كبير بمـا كـان مقتنعـا به مـن ان الغرب ناعم جدا ومتهدم المعنويـات وانه لـن يقوى على التورط بحرب جدية .
ومن المحتمل انه قد صعب على هتلر الاعتراف بانه ارتكب غلطةكبيرة.

تشرشل يدخـل الوزارة

واني لاذكر جيدا التجهم الكبيـر الذي حل على الجميع حين وصلت انباء تقول ان تشرشل انضم الى الوزارة البريطانيـة بوصفه وزيرا للبحرية. واقبل غورنيغ وهو يحمل قصاصـة صحفيـة الى باب هتلر وتهاوى على اقرب كرسـي وقـال : ـ

« ادخلوا تشرشل الى الوزارة . ان ذلك يعني ان الحرب قـد بـدات فعـلا . اننا الان فيحرب فعليـة مع بريطانيـا » .

وكانت هذه الاقوال وغيرها مـن الملاحظات الاخرى قد اظهرت ان الحرب قطعت الطريق على مخططات هتلر جميعها .

وجاءت احلام هتلـر كاحدى الاساليب غير العملية التي يستخدمها في اعماله ويرجع فيهـا الى تفكيـره الذهبـي واستلهاماته العقليـة .

والواقع انه لا يعرف شيئـا عـن اعدائـــه . ورفض ان يستعمل المعلومـات التي كانت توضع امامه . وكـان يفضل ان يتكل على ما يفكـر به فـورا مهمـا كـان ذلك مخالفـا للواقع ورغم انه يقوم على سـوء تقدير واضــح .
انني لا اعتقـد ان هتلـر تحقق في الايام الاولى من شهر ايلول انــه

وورط العالم في حرب عالمية لا يمكن ان تعالج الا بالقتال .. وكان في الحقيقة قد عزم على ان يتقدم خطوة واحدة فقط في احراز نصر ابيض.

مغامرات وانتصارات

ولا بد من القول انه كان مستعدا لقبول المغامرة التي قد تنجم عن ذلك كما فعل في السنة السابقة خلال ازمة تشيكوسلوفاكيا ولكنه اعد العدة لجميع الاخطار ولم يعدها للحرب .

والبات على ذلك تجدر الاشارة الى انه لم يهتم بالتسلح البحري الا في وقت لاحق .

وفي الايام الاولى من شهر ايلول ١٩٣٩ اختفت جميع المخاوف بفضل الانتصارات المفاجئة للقوات الالمانية في الحملة البولندية حتى ان هتلر نفسه استعاد تاكيداته .

وكنت اسمعه في ذروة الحرب يردد دائما :ـ كان يجب ان تنتهي الحملة البولندية بخسائر اكثر في الارواح لان معنويات القوات لن تكون افضل بسبب الانتصارات البيضاء التي تحققت في النمسا وتشيكوسلوفاكيا صدقوني ان احسن القوات لا تستطيع ان تقوم بزحف اخر الى بولندا بمجرد رصيدها الكبير في الانتصارات البيضاء دون اراقة دماء .

ومن الجائز ان مثل هذه البيانات انما افضى بها هتلر ليغطي سوء تقديره الدبلوماسي في شهر آب ١٩٣٩ .

وقد اخبرني الكولونيل ـ جنرال هنريكي قبل نهاية الحرب عن خطاب سابق لهتلر القاه بين الجنرالات ذكر فيه اراء مماثلة . وكانت تعليقات هنريكي غريبة ودونتها على الشكل التالي : ان هتلر كان اول انسان بعد شارلمان يركز قوة غير محدودة بين يدي رجل واحد . انه لم يسيطر على هذه القوة من اجل لا شيء . ولكنه اراد ان يستعملها في معركة من اجل المانيا . فاذا لم تربح المانيا الحرب فانها لن تصمد للتجربة وفي تلك الحالة تتردى وتتهاوى .

وكان هتلر في اثناء انهماكه بالحملة الروسية سنة ١٩٤١ يفكر بالانتصار الكبير المقرر ان يحرزه سنة ١٩٥٠ حين تكون طريق موكب المجد قد افتتحت تحت اقواس النصر .



المانيا الهتلريـة والبلاد التي ضمتها اليها وتظهر منقطة ...

الهزيمـة الاولـى

وفي الوقت الذي كان فيه هتلر يحلم بخوض حروب جديدة وانتصارات رائعـة ومهرجانات مجيدة برزت له احدى اكبر الهزائم في حياته .

فبعـد ثلاثة ايام مـن مقابلـة ذكـر لي فيهـا مخططاته العمرانيـة للمستقبل صدرت الي اوامر بان احضر الى أوبر سالزبرغ مـع رسومـي ومخططاتـي .

ووجدت في قاعـة الانتظار في مقـر برغهوف الجبلي اثنين من مساعدي هس وهمـا ليتجن وبيتش ينتظـران والشحوب باد على قسمات وجهيهما وطلبـا الي ان أؤجل مقابلتي مع الفوهرر لانهمـا يحملان رسالة شخصية مهمـة مـن هس الى هتلـر . ونزل هتلـر السلم في تلـك اللحظة وطلب احـد المساعديـن الى غرفـة الجلوس .

وكنت اتصفح رسومي واراجعهـا حين سمعت فجاة صرخـة مدوية كخوار الثيران .. وصاح بعدها هتلـر قائـلا : « بورمـان .. احضر حالا ... احضر حالا .. اين بورمان .. »

وابلغ بورمـان ان يجري اتصـالا مباشرا مع غورنيغ ورينبتروب وغوبلز وهملـر. وطلب مـن جميع الضيوف الشخصيين الانسحاب الى الطابـق العلوي .. ومضت ساعات طويلـة لمكنـا بعدها من معرفة ما حدث .. ففي منتصف الحرب طار هس نائب هتلر الى انكلترا .

واستعاد هتلـر هدوءه ولكنه كـان قلقـا لئلا يستغل تشرشل الحادث ويتخذه اداة لتضليـل حلفاء المانيـا وجعلهم يفكرون في ان عمليـة جس نبض للسـلام قد تمت .

وقال هتلـر : من سيصدق ان هس توجه الى انكلترا بدافع شخصي سيعتقـدون انني اوعزت اليه بالذهاب . وسيفكر الجميع ان في الامر خدعة تمت وراء ظهـر حلفائنـا . وقال ان اليابـان نفسهـا قد تغير سياستهـا معنـا .

وسال هتلـر كبيـر الطياريـن الالمـان ارنست اوديت عمـا اذا كانت الطائـرة المزودة بمحركيـن التي استخدمها هس تستطيع ان تصل الـى اسكتلنـدا ومـا هـو الجـو الذي واجهتـه .

وجاء الرد يقول ان طائرة هس لاسباب تتعلق بالملاحـة الجويـة قـد تكـون تحطمت ومن المحتمل ان يكـون هس قد طـار فوق انكلترا قليـلا وسقط في البحـر .

وتمنى هتلـر ان تكـون التكهنات صحيحة وقال « اه لو انه يغرق في بحـر الشمال فيختفي دون الـر وعندهـا يكـون لدينـا الوقت الكافـي لتقديـم تفسيـر ظاهـر الذيـل » .

وبعد ساعات قليلة بدا هتلـر يشك بالامر وقرر ان يعلن على الراديـو ان هس قد فقـد صوابـه .

وقد اعتقل مساعدا هس للاخبار السيئة التي حملاها .

ولم يعـد اسم هس يذكـر في حاشيـة هتلـر منذ ذلك الحين . ولكن بورمـان رباح يستطلع اخباره ويوجه جميع اساليب الاضطهاد الى زوجـة هس بكـل مـا لديه مـن وسائـل .

وتدخلت ايفـا براون من اجلهـا مع هتلـر ولكـن دون جدوى . وقد ساعـدت زوجـة هس مساعدة كبيـرة في وقت لاحق دون ان تدع هتلـر يعرف بالامـر .

اقـوال هس

وابلغني هس في سجن شباندو بعد ٢٥ سنة بكل رصانة ان فكـرة طيرانه الى انكلترا جاءته من قوى خفيـة خارقة للطبيعة عن طريق حلم .ولم يكن يرغب في ان يعارض هتلـر او يحرج موقفه ويجرح كرامتـه . وكانت الرسالـة التي حملها الى انكلترا تقول : « اننا نضمـن الامبراطوريةالبريطانية مقابل ان تترك لنـا انكلترا يـدا حرة في اوروبا . وكانت هذه الفكرة تمثل احدى القواعـد الاساسيـة التي نادى بها هتلر في الحرب . وقد تمسك هس بهذه الروايـة حتى النهايـة .

وانا لا اعتقد ان هتلـر غفـر لنائبه هذا العمل المشيـن ففي ذات مرة بعـد انقلاب ٢٠ تمـوز ١٩٤٤ ادخل في تحاليله الخياليـة حول الوضـع العام قضيـة « عودة الخائن » بين شروط الصلح التي سيطلبها من اعدائه. وقال يجب ان يشنق هس ..

وحين ابلغت هس عن ذلك قال : « كـان سيفعلهـا معي دون شك .. ولكـن الا تعتقـد ان هتلـر قال في سنـة ١٩٤٥ حين بدأ كل شيء يؤول الى النهايـة « ان هس كـان على حق » ؟..

مات الوزير عاش الوزير الجديد

وفي شباط ١٩٤٢ قتل الدكتور تودت رئيس صناعات الذخيـرة والتعمير لدى هتلـر في حادث طائـرة .

وجرى بحث في قاعـة الطعام عند تناول الفطور حول الشخص الذي سيخلف تـودت .

ووافق الجميع ان لا احد يمكـن ان يحل مكـان هذا الشخص الفذ الذي كـان يشغـل مكـان ثلاثـة وزراء في آن واحـد ويتولى مسؤوليـة بنـاء الطرق والقنوات والانهار ومحطات توليـد الكهرباء . والتحسينات عامة . وكـان وزيـر هتلـر المسؤول عن اسلحـة الجيش والذخيرة .

وبدا واضحا للوهلة الاولى انني سأتولى قسما كبيرا من اعماله.
وفي ربيع سنة ١٩٣٩ بينما كان هتلر يقوم بجولة تفقدية لخط زيغفريد قال لي :« اذا تعرضت حياة تودت لخطر فانك ستتولى عمليات البناء » .

وفي صيف ١٩٤٠ استقبلني هتلر رسميا في مكتبه في مستشارية الريخ في برلين وابلغني ان تودت منهمك باعمال كثيرة وقد قرر ان يسلمني عمليات البناء وبينها الملاجىء على الساحل الاطلسي .

وتمكنت في ذلك الحين ان اقنع هتلر ان من الخير ان تبقى عمليات البناء والتسلح بيد رجل واحد لاتصالهما ببعضهما .

ولم يعد هتلر الى الموضوع مرة اخرى كما انني لم ابلغ احدا بالامر .

كنت متاكدا من ان شيئا ما سيجري حين كنت اول من استدعى لمقابلة هتلر في الساعة الواحدة بعد منتصف الليل .

ونظرة واحدة الى شوب كبير مساعدي هتلر كانت كافية لتقول ان ثمة شيئا مهما في الجو .

واستقبلني هتلر رسميا بوصفه فوهرر الريخ وكان واقفا واستمع بعمق الى تعزيتي ولم يذكر شيئا ولكنه دخل في الموضوع مباشرة وقال « هرشبير .. عينتك لتحل مكان الوزير الدكتور تودت في جميع مهماته».
وكدت اذهل وعقد لساني ..

ومد هتلر لي يده وكان على وشك ان يصرفني واعتقدت انه لم يكن واضحا في كلامه فقلت له : سأقوم بكل ما في وسعي لاحل مكان الدكتور تودت في جميع عمليات البناء .

وقال هتلر « كلا . . في جميع مهماته .. وكوزير للعتاد الحربي ايضا ... » .

واستدركت قائلا « ولكنني لا افهم شيئا .. من ..
واسكتني هتلر قائلا :

« انني اثق بك وانك ستقوم بما اوكلت عليه وزيادة على ذلك ليس عندي احد سواك . اتصل بالوزارة وابدأ فورا ».

وقلت « اذن اعطني امرا خطيـا يا سيدي الفوهرر فانـا لا اضمـن ان بامكانـي القيـام بهـذا العمل .

وكتب هتلـر امـرا تسلمته بصمت . ودون ان يوجه ايـة كلمة لـي شخصيـا كمـا كانت العادة فيمـا بيننا استدار هتلر الى امور اخرى .. واستعددت لانصرف .

وكان ذلك اول مظهر من مظاهر تغيير العلاقة بيننا . وكمهندس عنده جرى هتلر على معاملتي كزميل . ولكنه الان بدا محافظا على المسافة المتطلبة بين الفوهرر ووزيره .

هتلـر يوبـخ غورنـغ امامـي

وفيمـا انا استدير لاخرج الى الباب دخل شوب وقال « ان مارشـال الريخ هنـا يرغب في ان يتحدث اليك بصورة عاجلة يا سيدي الفوهرر . ولم يأخـذ موعـدا » .

وابدى هتلر امتعاضا ثم قال « دعه يدخل » .

واستدار اليّ وقال « ابق هنا قليلا » .

ودخل غورنغ منهمكا الى الغرفـة وقال كلمـات قليلة معزيا وبدأ يقول بحماسة « مـن الافضل ان اتولـى مهام الدكتور تودت في مشروع السنوات الاربع فانها ستزيل جميع الصعوبات التي نشات في الماضي حول علاقتـه معـي » .

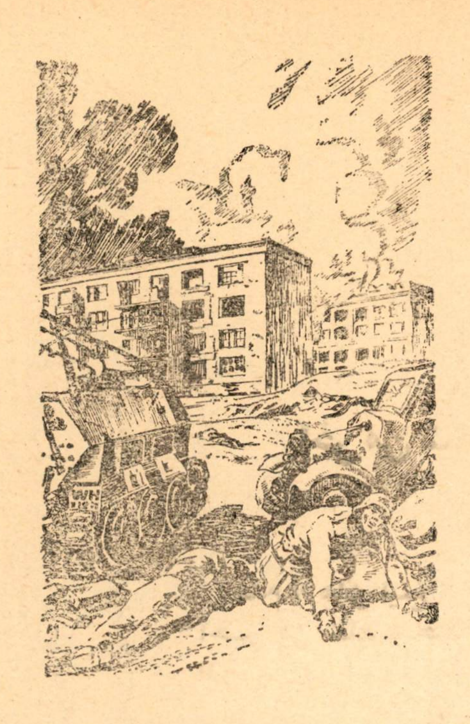
ومن المؤكـد ان غورنغ حضر في قطاره الخاص منمقرالصيد الخاص به في رومنتين على بعـد ٦٠ ميـلا من برليـن منذ ان وقع الحادث فـي الساعـة التاسعـة والنصف مساء وجاء مسرعا .

ولم يبد هتلر اي تعليق على كلمـات غورنغ ولكنه قال :

« لقـد عينت خلفـا لتودت .. الوزير شبير تولي جميع مهامالدكتور تودت مـن هـذه اللحظـة » .

وكانت كلمات هتلر حاسمة بشكل لم يترك مجالا للمناقشة .

وبدأ غورنغ متمجبا ... ولكنه لـم يعلـق علـى كلمـات هتلـر وقال ببرود « لا شك انـك تسمح لي يا سيدي الفوهرر بالا احضر مأتـم الدكتـور تودت ؟.. انك تعلم الخلافات التي قامت بيننا . ومن المحال ان اكـون هنـاك » .



القتال في ستالينغراد

لا استطيع ان اذكر تماما ما قاله هتلر في تلك اللحظة ولكني لم اتصور انني بقيت دون كلام اثناء هذه المحادثة الرسمية الاولى من مهنتي كوزير . واذكر ان غورنغ وافق دون تردد على حضور المأتم ليتفادى التعليقات

وممـا لا شك فيه ان غورنغ احب ان يحرج هتلر بامر توليه مهام تودت ...

وعلم هتلر مسبقا بذلك فعينني بسرعة ليسد على غورنغ جميع الابواب .

وقد غامر في تعييني مغامرة كبيرة اذ حملني على تولي وزارة من اهم وزارات الدولة يتعلق عليها مصير البلاد كلها وانا لا اعرف منها شيئا .

فقد كنت شخصيا غريبا بالنسبة الى الجيش والحزب والصناعة . وفي حياتي كلها لم اتول امورا تتعلق بمعدات الجيش اذ لم اكن جنديا ولم احمل بندقية لا في القتال ولا في الصيد .

وقد تبين لي امر واحد في هذه المقابلة هو ان غورنغ لن يكون لي حليفا مهما كانت الظروف .

٣

آخر من شاهد هتلر حيـــا

خدم « هانز لينغ » هتلر اكثر مـــن عشرين سنة ، وكان آخـــر من شاهده حيـــا ، واول من شاهده ميتا ، وقبض الروس على « لينغ » وظل في معسكرات الاعتقال ١١ سنة وبعد خروجه روى القصة التالية عن حياة الزعيم الالمانـــي السابـــق .

الرصاصـــة

كانت الساعـــة الرابعـــة الا عشر دقائق من ظهر يوم ٣٠ نيسان عـــام ١٩٤٥ ، حيـــن رايت سحابة من دخـــان قاتم وسرعان ما علمت انهـــا انطلقت من فوهـــة المسدس الذي اختتم به ادولف هتلـــر حياته .

وكنت حينئذ واقفـــا خارج غرفـــة الخرائط في مخبأ على عمق ٣٠ قلمـــا تحت انقاض مبنى المستشاريـــة في برليـــن ، ومـــا لبثت اصوات المدافـــع الروسيـــة ان هتكت الصمت السائـــد في المخبأ ، ولم يكـــن لدى وقـــت اضيعـــه ، فشددت على اعصابي ودخلت غرفـــة الخرائط ، وهنالك وجدت هتلـــر ميتـــا في جلســـة معتدلة وقـــد استوى على احدى الارائك والـــدم يسيـــل مـــن جـــرح في صدغه الايمـــن وينحدر على خده ، وهـــو في بذيـــه الرسمي الذي كنت قـــد اعددته له بعناية منذ ساعات قليلة، بحيث احتفظت حلته برواتبها لـــم يصبهـــا تغضن من الاستعمـــال .

وعلى الارض المسدس وقد سقط تحت يده اليمنى ، وعلى بعـد متر منـه بندقيـة ملقـاة .

وكان جثمـان ايفـا براون بجانب هتلر ، واعتقد انها لقيت حتفهاقبله بدقائق معدودات ، ومع ذلك لم تعل وجهها سمة من سمات الموت وانمـا كانت كالنائمـة ، اذ ابتلعت قرصا يحتوي على السم قضى على حياتها

وكان سيدي قد قتل صباح هذا اليوم كلبه الالزاسي « بلوندى » كمـا قتل كلبيـن اخريـن من كلاب البيت .

وقبل ذلك بخمسة ايام ، استدعيت عصر يوم ٢٥ نيسان الى غرفـة الخرائط التي كـان يتخذهـا هتلـر مقرا لقيادته ، ونقطة لاتصالاته ،ومركزا لحكومته المنهارة ، ولم يكف عن اتخاذها مكانا له منذ بدأ الروس يهـددون برليـن . وهي حجرة صغيرة مفروشة باثاث بسيط على نقيض الحجرات المتسعـة في المبنى الذي تداعى فوق الارض . وفي احد جوانبها باب يفضي الى حجرة ينام فيهـا الفوهرر ، ومن الناحيـة الاخرى باب ثان يؤدي الـى غرفـة ايفـا براون ، امـا حجرتي فكانت ملحقـة بحجرات عائلة جوبلز .

ورايت هتلـر واقفـا كالتمثال عند المائدة حين دخلت عليه ، وجهـه ابيض وعيناه باردتـان تنذران بخطر ، وتبادلنـا التحية ، وهو ينظر فـي عيني كعادته ، ولكني احسست ان عينيه تفتقدان قوتهمـا المغنطيسية اللتيـن عرفتـا بهـا .

اذهـب في سبيلـك

قال لـي هتلـر :

ــ لينغ .. اني اعفيك من خدمتي لك ان تتركني وتمضي الى اهلك .

فقلـت :

ــ يا زعيمي ، لقـد كنت معك في ايامك العظيمة ، وساظل دائما معك مهمـا يحدث في المستقبـل .

وظل وجهه بلا تعبير ، ورفع يده قليلا ثم قال :

ــ ما كنت انتظر منك غير هـذا .

ثم قال فجاة كانه يتكلم في امر عادي :

ــ عندي امر خاص لك . لقدقررتأنا « وفراو براون » ان نموت معا. واوامري لـك هي ان تقوم بنفسك بحرق جثتينا ، لا اريـد ان يتعرفـعلينا

احد بعـد الموت ، اعد كمية مـن الجاز ، ولف جثتينا ببطانية مبللة به ثـم احرقهمـا ، فاذا فرغت من ذلك ، فاذهب الى غرفتي واجمع كل ما يخصني من اشياء تذكـر الناس بي بعد موتي . اجمع كل شيء : ملابسي الرسمية، اوراقي وكل ما يمكـن استعماله او يقول عنه الناس انه يخص « الفوهرر »، ثم احرق هذه الاشياء ... ولكن ــ وانا اكرر عليك ما اقول ــ حـذار ان تحرق صورة فردريك الاكبر ، المعلقـة فوق مكتبي .

وكانت هذه الصورة محببة الى نفس هتلر ويعتز باقتنائه لها ، وكم من ليلـة طويلـة قضاهـا في العمل ، وكم من ايـام نصر او هزيمـة مرت به ، وعينا « فردريك » الامبراطور الالماني الكبيـر تطـلان عليه من الصورة فوق مكتبه ، وقال هتلر : هل فهمت اوامري يالينغ ؟

قلت : نعم يا زعيمي وسانفذ اوامرك حرفيـا ..

وقد قررت في نفسي منذ زمـن طويل ان هتلر يؤثر ان يموت فـي برليـن على ان يحاول الفرار ، كـان يخشى ان ياسره الروس حيـا ، او ان يجـدوا جثتـه وهو ميـت وكـان رعبه الشديد مصدره ما حدث لجثتي « موسوليني وعشيقته » وما يحتمل ان يتكرر بالنسبة لجثته وجثة ايفـا بـراون ايضـا .

قال لـي هتلـر :

ــ لو امسكوا بي حيا او ميتا ،، لاخذوني الى موسكو ، ولعرضوني على الناس كمـا لو كنت دميـة من الشمع . وارتفع صوته في نوبة هستيريـة وصرخ :

ــ لن يحدث هذا .. اني اقول لك .. لا .. لا .. لا . لن يحدث !

الايـام العشرة

وفي الايام العشرة السابقـة على انطفاء شمعـة حياة « ادولف هتلر » الى الابد ، كـان المخبأ تحت الارض محلا لاحتفالين مرحين .

وكان الاحتفال الاول يوم ٢٠ نيسان عندمـا احتفل هتلر بعيد ميلاده السادس والخمسين وبدا مرحا بصورة غير عادية ، لا تثقله الهموم ، وجـاء « غورنج » و« ريبنتروب » و« كيتل » و« بورمان » وضباط مـن ذوي الرتب الكبيـرة الى المخبأ ليقدمـوا الى « الفوهرر » تحياتهم .

وكان اعضاء الحزب يرددون كلمة واحدة « مخلصين حتى النهاية » .

وشرب هتلـر قدحا من الشـاي اتبعه باخر ، ولم يكن من السهل الحصـول على الشاي فني تلك الايام حتى لهتلـر نفسه ، ولكنه كان شرابه المفضل لا يشرب غيره ، وقدمت القهـوة والشمبانيا الى الضيوف ، واقترحت ايفـا براون في مرح أن يشرب الجميع نخب عيد الميلاد ..

وما زلت اذكـر اليوم . كيف كـان الفوهرر مهتما بصحة « ايفـان براون » وهما يعيشـان معـا في المخبـا تحت الارض .

وكان يأمرني ان ارافقهـا في نزهات نمشي فيهـا بين انقاض برلين، وكنـا صديقين ، وذات مرة ، قبيل النهايـة التفتت الي وقالت :

ــ اذا لم تحدث معجزة تنقذنا ، فـان اعظم امنية عندي ان اموت مـع الفوهرر كزوجـة شرعيـة لـه .

واختنق صوتها ، وهي تمر بلحظة عاطفية،وانا لا استطيع ــ كخادم ــ ان اعلق على كلامهـا بشيء ، ولكني تذكرت كلامهـا عندما استدعاني هتلـر في صبـاح يوم ٢٩ نيسان وامرني ان اعد الغرفـة التي عقد فيها اهـم مؤتمراته الحربية ، لحفلة زواجه بايفا براون وقال لـي :

ــ سنجلس عند هذه المائدة ومعي شاهدا الزواج « بورمان » و«جوبلز» ولقد ارسلت في استدعاء« والتر فاجنر »الذي عقد زواج الدكتور« جوبلز ». ثم سكت وغـادر الغرفـة فجـاة .

وكان مقررا ان يعقد القران في عصر اليوم ، ولكن لم نهتد الى مكـان والتر وتاخر القران فلم يتم الا في منتصف الليل ، واخيـرا صـار هتلـر وايفـا براون زوجين شرعيين .

الانتحـار

وهكذا شهدت غرفـة الخرائط احتفالا اخر قدمت فيه الشمبانيـا للضيوف والشاي لهتلر ، وبدت السعادة وعلامـات المرح على الجميع ، وقد صمموا على تجاهل الخطر المحدق ببرلين، وتنافس الحاضرون في تقبيـل يـد العـروس .

لقد عرفت ايفـا براون منذ زمـن بعيد ولكني لم ارهـا فـي مثـل سعادتهـا في ذلـك اليوم .. لا شك ان المرح كـان مصطنعا بعض الشيء، ولكـن على الرغم مـن ذلك اعتقـد ان احدا مـن الضيوف لم يتوقـع ان

يحتضن الموت العروسين بمثل هذه السرعة .

لففت كلا من الجثتين في بطانية سميكة بعناية ، حتى لا يظهر منهما شيء وساعدني اثنان من الفدائيين على حمل الجثتين الى خارج المخبأ .

حمل « ايفا براون » ماجور جوينش الياور الملحق بمكتب هتلر ،وكانت ترتدي فستانا ازرقا بنقط زرقاء قاتمة وفي قدميها حذاء من الطراز الايطالي الخفيف ، وانتعلت جوربا من النايلون وفي معصمها ساعة لها اساور من البلاتين المرصع بالماس ، وهي الحلية الوحيدة التي كانت تتحلى بها ، وكان هتلر قد اهداها لها منذ سنوات .

وسكبت الجاز، صفيحة بعد اخرى ، فوق الجسدين ، وساعدني في ذلك « ماجور جوينش » وبعض الضباط ، وسمعنا في ذلك الوقت صوت القنابل وهي تنفجر ، وصوت المدافع الرشاشة على مقربة منا وعلمت انه لم يبق امامنا وقت طويل .

وما كدت اشعل الجاز،حتى اندلع لهب كبير له بريق متوهج ، ولكن سرعان ما خمدت النيران بالسرعة نفسها التي اندلعت بها .

وتذكرت وصية هتلر بالا ابقى على اي اثر له ، وجعلت افكر في تلك اللحظة فيما كان يجب ان اعمله وهو اعداد كمية من الكيروسين بطيء الاحتراق وادركت مع الحاضرين اننا لن نستطيع ابدا ان نحول الجثتين الى رماد ، لقد احترق زي هتلر الرسمي ، كما احترق فستان « ايفان براون » ولكن ما زال جسد كل منهما واضح المعالم .

وعندئذ تولى « بورمان » انقاذ الموقف . فقد تلقى اوامر خاصة ، ولا ادري من الذي اصدرها ، وكان «جوبلز » و« بورمان »و« اكسمان » قائد الشباب الهتلري واقفين بالقرب من الجسدين المحترقين عندما غادرتهم الى المخبأ لاقوم بمهمتي الثانية ، وهي جمع ممتلكات هتلر الخاصة وابادتها ، وعندما خرجت من المخبأ بعد ذلك ، علمت ان الفدائيين حملوا الجثتين الى بقعة قريبة واعادوا حرقهما ثم دفنوهما .

عش الغرام

انه ليدهشني الان بعد عودتي من الاسر ، ان اجد العالم ما زال يسأل، ما اذا كانت ايفا براون عشيقة هتلر ،واذا كانت عشيقته ، فلم ظلت على هذه الحالة مع هتلر !!

اني استطيع الاجابة على هذه الاسئلة فايفا براون كانت مع هتلر منذ التحقت بخدمته في عام ١٩٣٥ ، وظلت منذ ذلك الوقت حتى ماتت معه ، وقد عاشا دائما معا فيما يسميه الناس « عش الغرام » .

و« ايفا براون » ابنة ناظر مدرسة « ميونيخ » ولما كانت في التاسعة عشرة من عمرها ذهبت ،وهي تلك الفتاة النحيفة ، الى سالزبورج لتعمل سكرتيرة « لهيزيخ هوفمان »المصور ، وكان صديقا لهتلر ، وفي احدى المناسبات ، قابلها « الفوهرر » هناك واهتم بها ، فقد كانت تمتاز بالبساطة والالفة .. كانت فتاة من الشعب ، كما اعتاد هتلر ان يقول في كثير من الاحيان .

وفي اوائل عام ١٩٣٦ بدأ هتلر في تجديد بيته المنعزل في برخستجادن واعد فيه شقة مكونة من اربع حجرات له ولايفا ، منعزلة عن باقي حجرات البيت .

ولم تكن ايفا المرأة الاولى في حياة هتلر ، ولكنه منذ عرفها واحبها اصبحت المرأة الوحيدة التي يقضي معها اوقات فراغه ، مع استثناء مرات نادرة ، كان يهتم فيها هتلر ــ كما يفعل الرجال في جميع انحاء العالم ــ بفتيات اخريات جميلات .

وكانت غرفتي قريبة من حجراتهما ، وكان من عادة هتلر انه بمجرد ان تدخل عليه ايفا ، يذهب الى باب الحجرة ويقفله بالمزلاج من الداخل ، حتى لا يستطيع احد الدخول عليه .

وقد حدث مرة ان نسى هتلر ان يغلق الباب، فلما دخلت عليه فوجئت بايفا بين احضانه ، وغضب « هتلر » مني ، وتوقعت اسوأ الاشياء، لولا تدخل « ايفا » التي كانت تحبني،وتنظر الي كاقرب الرجال الى « الفوهرر » اي اقرب الرجال للرجل الذي تحبه ،

هل كان هتلر مجنونا ؟ كثيرا ما يلقىعلي هذا السؤال ، وقد قرأت كثيرا عن النوبات التي كانت تصيبه فيعض البساط ، او يمزق الستائر .

وكل ما استطيع ان اجيب به على هذا السؤال هو اني لم اره ابدا يفعل هذه الاشياء ، مع اني كنت قريبا منه سنوات طويلة .

واغلب حركاته في الخطابة كان يدرسها ويدرب نفسه عليها من قبل، وقد جرت عادته ان يقضي يومين ومن حوله فرقة من السكرتيرين قبل ان يرضى عن نص خطبة مهمة سيلقيها وبعد اعداد نص الخطبة يقفامام

المرآة ، ويحفظ الخطبة وفي يده ساعة لضبط الوقت ، وكان يدرس حركاته بعناية تامة ويكررها مرات حتى يرضى عنها .

نظارات هتلر

وفي خلال العشر سنوات التي كنت خادما له في اثنائها ، كان يستعمل النظارات الطبية ليقرأ . ولكنه كان ينزعج اذا رآه احد بها، وكان يقول « لا يمكن أن يلبس فوهرر نظارات طبية » .

وقد صنعت آلة كاتبة خاصة لها حروف كبيرة تكتب عليها جميع خطبه ، حتى يستطيع ان يرجع الى احد نصاصها اثناء القائها امام الجماهير بغير ان يضع نظاراته على عينيه ، ولكنه كان بحكم العادة يخرج نظاراته اثناء الخطابة ، ثم يخفيها خلف ظهره ، فاذا ما جاءت فقرة مهمة في خطبته ضغط قبضة يده على النظارات وحطمها ، ولم يستطع هتلر ان يتخلص من هذه العادة ابدا ، فكان عليّ ان اعد له نظارات احتياطية ، واني لاذكر له ثلاثين حادثة على الاقل حطم فيها نظاراته .

وهناك عادة اخرى ، لعلها السبب في تلك الشائعات عن عضه للسجاجيد وتمزيقه للستائر .

فلدى هتلر ثلاثة الوان من الاقلام على مكتبه ، قلم احمر ، وقلم اخضر، وقلم ازرق .

وقد قال لي مرة ..

ــ اني اكتب « يا لنج » لاعدائي بالقلم الاحمر ،ولاصدقائي بالقلم الاخضر اما القلم الازرق فاستعمله عندما احس باني يجب ان اكون حذرا .

وهذه الاقلام كان يقبض عليها بيديه ، او يلقي بها في قوة فتتحطم عندما يثور .. وهذا هو كل ما اذكره عن لحظات انفعاله .

ولما بدا ان كل شيء آخذ في الانهيار راقبت هتلر وهو يتحول الى رجل عجوز رغم سنه ، وقليلون ــ في المانيا ــ هم الذين عرفوا هذه الحقيقة فقد اخفيتها بحذر شديد .. كان الفوهرر يسحب رجله اليسرى بصعوبة اثناء مشيه .

وكانت عينه اليسرى لا تكف عن التقلص في عصبية ، ولم يعد يرى بها جيدا ، واشتعل راسه شيبا من حياة معظمها في مخبأ تحت الارض.

وكان الفوهرر يلجأ الى طبيبه « الدكتور تيو موريل » ، وهو الطبيب الوحيد الذي ظل على ثقته فيه .

وقد ظهر « موريل » فيحياة الفوهرر عام ١٩٣٦ لاول مرة ، وسرعان ما كان له تأثير سحري في هتلر ،فكان يعد له دواء خاصا اعجب به كثيرا .

قال لي هتلر :

ـ ان « موريل » هو رجلي ، لقد انقذني من آلامي، ولقد طلبت منه ان يشرف على صحتي .

والى جانب الآلام الكثيرة التي كان يعانيها هتلر في معدته كان ينتابه الارق ايضا فاحتفظ بحوالي اثني عشر نوعا من الاقراص المنومة يستعملها بالتناوب ، وقد صرح « موريل » للفوهرر بان يبتلع اية كمية يشاء من هذا الاقراص ، فقد اعدها بحيث لا ينشأ عنها خطر من تعاطيها ، « وموريل » هو الذي جعل هتلر يوافق على ان يحقن قبل ان يظهر امام الجمهور في اية مناسبة هامة .

وكان هتلر يخشى ان تفاجئه الام معدته وهو يخطب في الجماهير. فكان يأخذ حقنة لتقيه من هذه الآلام ،واخرى لتضاعف نشاطه وتقاوم الضرر الذي قد تحدثه الحقنة الاولى .

وقد اعتاد هذه الحقن فلم يكف عن تعاطيها سواء خطب او لم يخطب .

وكان الفوهرر يخشى أن يصاب بالسمنة ، وان يزداد وزنه ، فكان يتناول مسهلا قويا ثم يتناول الافيون ليهدىء من آلام معدته التي لا تحتمل قوة المسهل . ثم يأخذ بعد الافيون دواء آخر ليقتل به اي جراثيم قد تكون كامنة في جسمه .

وكدت أصبح طبيبا آخر الامر ، وانا أحمل دائما معي حقيبة مليئة بأنواع العقاقير والاقراص والحقن .

وكان يجب ان أعرف كل شيء عن هذه الادوية ، وطريقة استعمالها ، والوقت المناسب لتناولها .

وعلى الرغم من نجاح الطبيب في تخفيف آلام المعدة اول الامر ، فان هذه الآلام كانت تعاود هتلر ، حتى سيطرت عليه فكرة واحدة ، وهي ان هذه الآلام ستنقطع لو تناول الطعام المناسب ، فاستخدم طبيب اغذية في الاشراف على المطبخ ، ثم امر بزراعة الخضراوات التي سيأكلها في ارض مبخرة خلطت

بانواع مختارة من الاسمدة ، وكانت عينات من التربة تفحص من وقت الى آخر ، كما كان الماء الذي تطهي به الخضراوات يحلل للتاكد من خلوه من الميكروبات .

ولما بدأت الاحوال العسكرية تسوء ، تناول هتلر اقراص « بلادنا » ليخفف من آلامه العصبية ، وعلى الرغم من ذلك كانت يده اليسرى ترتعش منذ معركة « ستالينجراد » ، ولم يستطع ان يسيطر على هذه الرعشة ، فلو فحصت صوره منذ تلك الفترة للاحظت انه كان دائما يضغط يده اليسرى على جسمه ، او يقبض عليها بيده اليمنى ، حتى يمنعها من الارتعاش بقوة .

ولما أحس هتلر بهذه الرعشة أخبر طبيبه « موريل » انه يعاني من صداع في راسه ، وانه يعتقد انه مصاب بضغط الدم ، فقرر الطبيب القيام بعمليات فصد الدم من ذراعه . وبعد كل عملية كان هتلر يتنهد في ارتياح قائلا :

ـ آه .. هذا حسن .. الآن اشعر بحريتي من جديد .

ولما اطبق الحلفاء على برلين ، كان هتلر يمضي وقته كله في مخبئه ، والذين جاءوا لزيارته بعد غيبة طويلة هالهم مظهره فقد بدا عجوزا .

وكان يدرك هو الآخر هذه الحقيقة فقد قال لي :

ـ لست في حاجة لان اشكر العدو على شعري الاشيب ، ان الشكر على ذلك يوجه الى قوادي الذين خذلوني .

ولما وقعت في اسر الروس ، اخذوني الى تلك البقعة من الارض التي ظننت ان هتلر قد دفن فيها ، وقد اعادوا استجوابي عدة مرات ، ولكنهم لم يصلوا ابدا الى المكان الذي دفن فيه .

وان لي في هذا الشأن تقديري الخاص ، ولكنه ليس اكثر من احتمال لقد دفن الفدائيون جثمان هتلر وعروسه ايفا براون ، في قبر عادي بالقرب من دار المستشارية ، ومن يدري لعلهما مدفونان هناك حتى هذا اليوم .

٤

ما لا ينسى عن هتلر

بقلم فرديناند زاوربروخ
الجراح الالماني الشهير

احرج موقف لي مع هتلر

كان الطبيب الالماني « فرديناند زاوربروخ » يعد من ابرع الجراحين في العالم . وقد اصدر قبيل موته في عام ١٩٥١ كتابا بعنوان « حياة جراح » نقتبس منه هذه الصفحات الخاصة بهتلر :

خلال الحرب العالمية الاخيرة ، عهد الي الاشراف على اقسام الجراحة ومستشفياتها المتنقلة الخاصة بالقوات المسلحة الالمانية ، فكنت انتقل بين مناطق الاحتلال في فرنسا وبلجيكا وهولندا للتفتيش على هذه الاقسام . وبينما كنت في أحد المستشفيات ذات ليلة ، وصلتني رسالة تلفونية تخطرني بأن سيارة سوف تأتيني في الساعة الخامسة صباحا ، لتاخذني الى المطار ، حيث ستكون احدى الطائرات في انتظاري لتنقلني الى مقر الفوهرر في « فينيتسا » باوكرانيا ، فهو يريد ان يراني بمجرد وصولي الى هناك .

ولم انم في تلك الليلة ، فقد ظللت افكر في هذه المقابلة ، وقد ذهبت بي الظنون والشكوك كل مذهب . وفي الساعة الخامسة صباحا كنت متأهبا للخروج ، ولكن احدا لم يحضر ، وظللت انتظر حتى الساعة الحادية عشرة ، وقد شغلني القلق عن تناول الطعام ، فلما هممت بطلب شيء آكله ، دخل

علينا بالمستشفى ضابط وجنديان ومعهم مصاب اتضح انــه سائق العربــة التي ارسلت لي في الصباح ، فقد كان الضباب كثيفـــا والمطـــر يتساقط بشدة ، ولم يستطع ان يتبين طريقه وهو يسرع بسيارتــه ، فاصطدم بجدار حطم مقدمة السيارة ، واصيب بعدة جروح .

واعدت لي سيارة اخرى لتقلني الى المطار ، حيث وجدت طيارة نقلتني الى مقر الفوهرر ، وكان مخبأ فسيحا بني على عمق مائـــة قدم مـــن سطح الارض . ولقيت مصادفة عند دخولي المخبأ ، البروفسور « برانـــد » طبيب هتلر الخاص ــ وكنت أعرفه منذ ان كان يعمل مساعدا لـــي ــ فسألته فـــي لهفـــة :

ــ ترى لماذا يريدني الفوهرر ؟

ــ ليست عندي فكرة عن ذلك ، ولكن من المستحسن ان تسرع بلقائــه .. فقد اضطرب كل شيء هنا منذ ساعات لانك لم تصل في الموعد المحدد .

وحاولت ان اوضح له السبب في تأخيري ، ولكنه قاطعني قائلا :

ــ ارجوك الا تضيع وقتا في الكلام .. ادخل اليه على الفور .

فقلت لـــه معاندا :

ــ لا .. ينبغي ان اتناول فطوري اولا .. انني جائع جدا ، كن كريما ، واحضر لي فنجانا من القهوة وشيئا من الطعام .

فقال بصوت راجف مختنق :

ــ لو سمع الفوهرر بأنك تشرب قهوة وتأكل طعاما ، بينما هـــو فـــي انتظارك ، لأمر باعدامك واعدام من قدم لك القهوة والطعام .

ثم امسكني من ذراعي ودفعني حتى بلغـــت غرفة الضابط الحارس . فما ان عرفني ، حتى اخذ يعنفني بحدة ، فقلت لـــه منفعلا وقد بلـــغ مني الضيق حدا كبيرا :

« حدث للسيارة حادث وسائقها في المستشفى . والسيارة الثانيـــة قديمة بطيئة ، وانا الآن اريد شيئا آكله ! »

ولكن ذلك لم يهدىء من سورة غضبه ، واستطرد قائلا :

« ان هنا ستة عشر ضابطا ينتظرون لقاء الفوهرر منذ الساعة الثامنة صباحا ولكن مزاجه مضطرب بسببك . ادخل فورا ، واعطني المسدس الذي في جيبك ، فحمل الاسلحة غير مصرح به هنا » .

وفتح لي بابا ، دخلت منه وانا اتوقع ان ارى هتلر ، ولكنني وجدتني

في بهو فسيح به اثاث فاخر وليس به احد . فوقفت مدهوشا ، وقد تملكني شيء من الرهبة والخوف .

كلب هتلر

وفجاة ، فتح باب صغير ، واندفع منه كلب ضخم اتجه نحوي وهو يتاهب للوثوب على كتفي واعمال اسنانه في رقبتي . ولكن من حسن حظي انني كنت اعرف كيف اروّض الكلاب واهدئها ، فابتسمت للكلب متظاهرا بالشجاعة والهدوء ، واخذت اتمتم بضع عبارات لا معنى لها ، وانا اربت راسه وظهره . وسرعان ما تغير مسلك الكلب نحوي ، اذ اقعى على رجليه الخلفيتين بجواري متلذذا بمداعبتي له ، وجلست انا على مقعد قريب باذلا كل ما في وسعي لاظهار توددي اليه ..

وبعد دقائق ، دخل هتلر البهو ، وظل لحظة صامتا ساكنا ، ثم انفجر قائلا بصوت كالرعد وهو يرى الكلب يتمسح بي :

« ماذا فعلت بكلبي ؟ » . فانتفضت واقفا في مكاني وانا لا اعرف ماذا اقول ، فاستطرد هتلر وعيناه تقدحان شررا :

« هذا هو المخلوق الوحيد الذي لم يكن يقبل على احد سواي ولا يطيع احدا غيري ، كيف خدعته وسحرته ؟ انني سأقتله ! »

وتراجعت الى الوراء وانا ارتجف والكلب يزداد لصوقا بي ، وهتلر يتقدم نحوي وكأنه سيضربني وهو يقول :

« من تكون انت ؟.. الانك جراح ماهر ، تظن انك تستطيع ان تفعل ما تشاء ، فتجعلني انتظرك هنا ساعات بعد الموعد الذي ضربته لك ، وحينما تأتي اخيرا ، تهينني وتسلب مني ولاء كلبي ؟ سآمر بالقبض عليك » .

فقلت على الفور :

« انه فضل منك ان تأمر بذلك ، ولا تأمر باعدامي .. فافعل بي ما تشاء فأنا رهن مشيئتك » .

فهدأت ثورة غضبه ، وانبسطت اسارير وجهه ، وجلس الى مكتبه ، ثم اشار الي بأن اجلس على مقعد قريب .

وخفف من كهربة الجو ان الكلب في هذه اللحظة ابتعد عني ، فما هي

الا ثوان حتى كان هتلر يحدثني بكياسة وهدوء وكان شيئا لم يحدث .. قال:
« ان وزير خارجية تركيا مريض ، وقد بلغني انك اجريت لـه جراحة من قبل ، وانه يتوق لأن يراك في انقرة لاستشارتك . ولمـا كانت العلاقات السياسية مع تركيا ذات اهمية كبيرة لنا كما تعلم . فقد أصدرت امرا بنقلك اليه في طائرة جديدة » .

وتطلع هتلر الى الكلب مرة اخرى ، ثم قال منفعلا :
« قل لي ماذا فعلت لكلبي ؟ » .
فنظرت الى الكلب ولم انبس بكلمة ، ولكنه عاود السؤال في حدة :
« كيف اثرت عليه ؟ انه لا يذهب لاحد سواي . هل تفسر لي ذلك ؟ ».
فقلت : « نعم ، وانت الشخص الوحيد الـذي يستطيع ان يفهـم تفسيري » .
فقال مزهوا : « انا ؟.. كيف ؟ » .
فقلت : « انك خبير بفن معاملة الناس ، فانت تعرف كيف تسوس كـل من تتصل به وتؤثر في نفسه وتجذبه اليك . اما انا فأجيد هذا الفن مـع الحيوان فحسب » .

فحدق في وجهي بضع دقائق وهو صامت ، ثم قال :
« سوف لا تسافر بالطائرة الجديدة ، اذ لم تجر عليها بعد الاختبارات الكافية للاستيثاق من سلامة محركاتها .. ان طائرتـي القديمة مـن طـراز « يونكر ٥٢٠ » اضمن منها طبعا . انني اشكرك » .

فنهضت وانحنيت محييا وشاكرا ، ثم اتجهت نحـو الباب ، فناداني ، ثـم قـال :
« يجب ان تشفي الوزير التركي ، ويهمنا ان تعود الينا سالما ! »

في ساعات الهزيمة

وفي اواخر الحرب ، اقمت انا وزوجتي فـي المخبأ الكبير الذي أعـد بمستشفى « شاريتي » حيث كان يمكن اجـراء الجراحات في شيء مـن الامان . لقد اقتحم الروس برلين حينذاك، واخذت المدفعية الروسية تحصد الاهلين ، واحتدم القتال عنيفا في الطرقات، فلم نستطع ان نبرح المخبأ ـ ولو لبضع دقائق ـ ليلا او نهارا ، لكثرة الجراحات التي كنا نجريها فيه . وكانت آلات المحطات الكهربائية قد تعطلت ، فاصبحنا نستعمل البطاريات والشموع

للاضاءه . وتراكمت الجثث حولنا ، وكانت أنات الجرحى وصيحاتهم من الالم تصك آذاننا باستمرار . وكنت انا وزوجتي ــ وهي طبيبة ــ لا ننال من الراحة غير بضع ساعات اثناء الليل ، نقضيها مستلقيين على سريرين بدهاليز مجاور لغرفة الاشعة ، ولا طعام لنا الا القليل من البسكويت الجاف واكواب من الويسكي لم اكن ادري من أين كانت زوجتي تحضره .

وفي أول مايس ١٩٤٥ ، فوجئنا بضابط يدخل علينا وهو يتعثر فوق جثث الموتى واشلاء الجرحى واعضائهم المبتورة ، وفوق المرضى الذين أجريت لهم جراحات ثم وضعناهم على الارض حتى يتماثلوا للشفاء ، واخذ يصيح : « عندي اوامر للجراح زاوربروخ !؟ »

وكانت روائح الدم والعرق والصديد والاثير والمعقمات تكون مزيجا عجيبا يزكم الانوف . فلما قلت انني انا زاوربروخ ، اسرع نحوي وانا واقف امام احد المصابين والمبضع في يدي ، وقال بصوت عال :

« ان عددا كبيرا من الجنود الالمان ليسوا بعيدين من هنا ، والروس يتعقبوننا في كل مكان . وفرصتنا الوحيدة للنجاة بانفسنا ان نكمن هنا . لذلك ينبغي ان تخلوا المكان فورا » .

فنظرت اليه ساخرا ، ومضيت في العمل وانا اقول : « ليس هذا وقت التفكير في ذلك » .

فصاح مهددا : « في هذه الحالة سنخلي المكان بالقوة . بعد عشر دقائق سيكون الجنود هنا » .

وانتهت الجراحة بعد ثلاث دقائق ، فاستدعيت مساعدا لي ، وامليت عليه رسالة لهتلر ــ كتبها على آلة كاتبة صغيرة وضعها على ركبتيه ــ طلبت منه فيها ان يختار مكانا آخر للجند ، وكلفت رسولا بنقل الرسالة اليه فورا وموافاتي بالرد .

ومضى وقت طويل ولم يعد الرسول ، فطلبت من احد المساعدين ان يذهب بنفسه ليرى ماذا حدث . واندفع المساعد نحو مدخل المخبأ ، فرأى عنده جنديا روسيا حاملا مدفعا رشاشا صغيرا ، فعاد الي وفي اثره عدد كبير من الجنود الروس المسلحين . وقد بهتوا عندما رأوا اكداس اللحم البشري والاعضاء المبتورة ، وتحولت انظارهم نحو مريض كانت بطنه ما تزال مفتوحة .

وتقدم واحد منهم نحو منضدة العمليات ــ متظاهــرا بالشجاعــة ــ فدفعته احدى الممرضات فسقط على الارض . ومــن حسن الحظ ان ادخل الي في هذه اللحظة ضابط روسي كان مصابا بجرح خطير ، فاسرعت نحوه لاسعافه حتى الهطي الموقف ، ولكن طبيبا روسيا كــان حاضرا مــع المصاب فمنعني من الاقتراب منه . وقد سالني سؤالا لم افهمه ، فرايت ان اعرفــه بنفسي فلعله سمع عني . فأشرت الى نفسي وانا اكرر : « زاوربروخ » .

فتمتم باسمي مرتين ثم اشار الــي بأن اخرج رصاصة ثقبت معــدة الضابط ، فهززت راسي مشيرا بالموافقة وبدات العمل ..

وفي الوقت نفسه ، كان الجنود الروس ــ برئاسة احــد ضباطهم ــ يفحصون المخبأ . وسمعتهم يسألون زوجتي من تكون ، فأجابت انهــا طبيبة المانية وانها زوجتي ، فتركوها ..

مفاجــأة

وانتهت الحرب ، فحمدت الله كثيرا ، فقد وجدتني اسعد حظــا مــن غيري بكثير ، اذ لم يصب احد مــن اسرتي بسوء ، سوى ان ابني فردريك الطبيب كان قد انقطعت عنا اخباره منذ وقت طويل . وذات يوم ، ارسل الى ضابط روسي كان مصابا بسرطان في الرئة ، فأجريت لــه جراحة دقيقــة كللت بالنجاح . فلما شفي وجاء يودعني ، قال لــي انــه لا يــدري كيف يكافئني ، فربت على ظهره وقلت :

« ان خير مكافأة لي هي ان اراك معافى » . وصمت الضابط برهــة ، وقد بدا ان خاطرا خطر له ، ثم قال : « انــني اشرف علــى معتقل للاسرى بسيبيريا ، فيه المان عديدون . وقــد تذكرت الآن ان احدهم طبيب يدعى « زاوربروخ » ، فهل هو قريب لك ؟ » .

فقلت ودموع الفرح تكاد تطفر من عيني :

« انه ولدي .. هل هو على قيد الحياة ؟ » .

فقال الرجل : « نعم » . ثم استطرد قائلا : « لقد رددت لي صحتي .. فسأرد لك ولدك » .

وبعد اسبوعين ، حضر الضابط الروسي بسيارة ومعه فردريك وكمية من الجبن والاطعمة ..

ومن الذكريات التي لا انساها يوما عملت فيه الى الساعـة الثالثة بعد الظهر ، وفيما انا موشك على مغادرة غرفة الجراحة ـ وانـــا احس بالجوع والتعب ـ اذ اخبرني بعض المساعدين ان كهلا يجلس علـى باب الغرفة فـي انتظاري منذ الصباح الباكر ، وقد رفض ان يفصح لاحد عن حاجته ، وابـى أيضا ان يغادر المكان قبل ان يراني . فلما خرجت اليه ، رايت رجـلا أشيب ضئيل الحجم يجلس حزينا منكس الراس . فلما حييته وسالته عمـا يريد ، سالني هل انا « زاوربروخ » ، فلما استوثق مني ، قال انـه يربي القطط ، وجعل يسهب في ايضاح اهمية تربيته لها ، فايقنت انني امام احـد مرضى العقول الهادئين الذين لا خطر منهم ، اذا ما صلتي بالقطط وتربيتها ؟

ولكن الرجل قطع تيار تفكيري قائلا :

« انك وحدك تستطيع ان تنقذني من البؤس ومن الموت جوعا » .

وحملتني حماسة الرجل على الاصغاء الى حديثه عن تربية القطط ومن جمال القطط السيامية . وقال ان عنده قطا نادرا منها ، وقـــد كان ينجب قططا رائعة الجمال ، وان هذه القطط هي مصدر رزقه الوحيد . ثـــم قال وقد اغرورقت عيناه بالدموع :

« ولكن هذا القط اصيب فجاة بجرح اقعده عن الحركة ، وقد قيل لي انه سيميته ، وفي هذا خراب بيتي لا محالة .. ولم يبق لـي من امل سوى مبضعك يا سيدي ، فهو السبيل الوحيد لانقاذه وانقاذ حياتي معه » .

فقلت للرجل : « حسنا .. احضره غدا » .

فقال : « غدا ؟ ان كل ثانية تمر تزيد الحالة تفاقما » . ثـم انحنـى واخرج من تحت المقعد الذي يجلس عليه سلة صغيرة بهـا قط جميل حقا ، فاخذته على ركبتي لافحصه ، فوجدته مصابا بفتق حاد . وادركت ان الرجل محق في الالحاح باستعجال الجراحة . فربت ظهر الرجل ، وقلت له :

« ضع قطك في السلة وتعال معي الى غرفة العمليات » .

وقلت للممرضة المختصة وانا اسبق الرجل الى الغرفة : « عندي عملية عاجلة ساعملها الآن .. » .

وقبل ان اتم كلامـــي ، اسرعت بضغط الجرس المخصص لاستدعـاء الاطباء والممرضات في الحالات العاجلة ، فما هي الا دقائق حتى كان الاطباء

والممرضات قد التفوا حولي ، وقد ألجمت الدهشة ألسنتهم حين رأوني اضع على منضدة العمليات قطا واخدره بالاثير . ولم تكن العملية صعبة فقد اجريتها بنجاح في وقت قصير . ولما فرغت منها ، سألني الرجل :

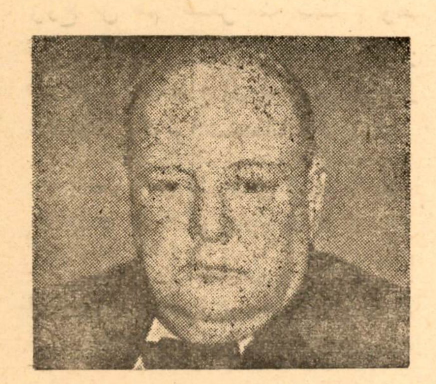
« ماذا تريد مني اجرا للجراحة ؟ » فقلت :

« أجري ان ارى القط معافى » ، وبعد اسبوعين حضر الرجل ومعه القط ، وأبى الا ان يتركه عندي يومين !



صورة تصور حالة الناس في اثناء الحرب وهم يغادرون منازلهم الى مكان اخر .. والصورة مأخوذة من مكان ما في اسيا اثناء هجوم اليابان على مراكز الحلفاء فيها ..

٥



ونستون تشرشل: حياتـه وكفاحـه

بقلم : شارلز موزني ، جون داتينبورت

تأليب العالـم

انقضت حرب المانيا بعد ان ألب عليها ونستن تشرشل العالم كلـه . وقد أصبح هذا الانكليزي في أعين الناس اليوم آخر بطل صنديد انجبتـه اوروبا الغربية . فما من أحد من معاصريه كان أحسن منه فهما ، او أبلـغ بيانا ، او اشد استماتة في الدفاع عن « المجتمع المهذب ، المتسامح ، الرحيم، اللين الجانب ، المختلف الآراء والاهواء » والذي نسميه : الدولة الحرة .

وتشرشل هو القائل منذ عهد قريب : « ان القادرين علـى درك النصر يعجزون عن تنظيم السلم ، والقادرون على تنظيم السلم ما كان ليدخل فـي

قدرتهم ابدا ان يدركوا النصر » . وصرح وزير الحرب العظيم ، بعد خيبته التامة في الانتخابات ، انه سيتخذ لنفسه موقف المعارضة في مجلس العموم .

لماذا يريد ان يستمر في الكفاح ؟ ان اغلب الساسة يجهدون انفسهم في العمل للمستقبل ، اما تشرشل فيحذر الناس نسيان الماضي . انه من المحافظين ، ولكنه هو الذي ادخل بفريدج الاشتراكي في الحكومة منذ سبع وثلاثين سنة مضت . وهو من دعاة الاستعمار ، الا انه هو الذي نبه مواطنيه الى المجد العظيم الذي تناله الامبراطورية في نظام جماعة الامم الحرة . وهو يفرط كسائر مواطنيه في الشراب ، ولكن جلده على العمل الشاق المضني يروع من هم أصغر منه سنا . وهو الرجل الذي اقصته انكلترا ونفته من ميدان السياسة لانه « متوقد الذهن ، ولكن لا يوثق به » ، فاذا هذا المطرح هو الذي استطاع ان يجيّش الرجال حتى يؤدوا واجبهم وقال لهم : « اعدّوا اسلحتكم وكونوا شجعانا » .

نعم ، ان تشرشل ليس رجلا فردا ، بل رجالا : فهو صحفي ، ومؤرخ ، وكاتب تراجم ، وجندي ، ورسام ، وبناء ، وطيار ، وسياسي ايضا . وقد عاش ألوانا من العيش لا تحد ، تبدأ في قصر بلنهيم ، وهو من اكبر قصور الريف في انكلترا . وهو نجل سيدة أمريكية مشهورة الجمال ، هي (جيني جيروم) ، وابوه هو اللورد راندولف تشرشل ، ذلك الشاب السريع البادرة البارع الانيق الذي استطاع ، على ما ابتلي به من معارضة ، ان يصل الى ثاني مناصب الدولة في خطر الشأن ، وهو منصب وزير المالية .

ولما كان أبوه يرتاب في صلاحه للمحاماة الحقه بمدرسة هارو وهو في الثانية عشرة من عمره ليعدّ لدخول الجيش . وانتقل ونستن من هارو الى مدرسة ساندهرست ، حيث يُعدّ ابناء الطبقة الراقية في انكلترا للالتحاق بالجيش ، فبذّ أقرانه في فن المناورات وفن الاستحكامات ، وهما اخطر علوم المدرسة شأنا . ولما بلغ العشرين منح رتبة الملازم الثاني ، والحق بالفرقة الرابعة للفرسان (الهوسار) وهي الفرقة الخاصة بجلالة الملكة . وهكذا بدأ تشرشل يحيا حياة عسكرية لم يكتب عنها احد بمثل حماسته واهتمامه .

وقد قضى أكثر ايام التمرين الحربي (في الهند ، وفي السودان ، وفي حرب البوير) وهو جندي ومراسل صحفي معا . ولم يكن كل ما فعله تشرشل الشاب ، الذي ظفر بأكبر مرتب في الصحافة ولما يبلغ الرابعة والعشرين ، انه وصف آخر هجوم رائع شنته فرقة الفرسان على الدراويش

في موقعة أم درمان ، بل لقد ركب مع حاملي الرماح جنبا الى جنب ، وهو يطلق الرصاص من مسدسه حتى أردى خمسة من أعدائه على الاقل .

ولم يقض ايامه في الهند ، كما يزعم خصومه ، بين الصيد واللهو ولعب البولو ، بل ان هذا الضابط الصغير الطموح ، كان يترك زملاءه في مدينة بنجالور يستمتعون بالقيلولة هربا من القيظ الخانق ، ويعتكف وحده يقرأ ويزود ذاكرته الخارقة بروائع الادب التي فاتته في مدرستي هارو وساندهرست ، فقرأ افلاطون وارسطو وداروين وماكولي . واستغرق في دراسة كتاب المؤرخ الانكليزي جيبون عن « اضمحلال الامبراطورية الرومانية وانهيارها » ، وعلى أسلوب جيبون ولا ريب احتذى تشرشل في اسلوبه الجهير المتدفق .

ولما عاد تشرشل الى موطنه في اجازة ، قرّ رايه فجاة انه قد ضاق بالجيش ذرعا ، فهو رجل مولع بأشياء تكلفه مالا كثيرا ، فلا يكفيه مرتب الضابط ولا المبلغ الذي ترسله اليه امه كل سنة وقدره ٥٠٠ جنيه . ثم ان حدة نقده لنفر من قادة الميدان البريطانيين ، لم ترض رؤساءه ، فمن اجل ذلك قر رايه على ان يحذو حذو ابيه ويشتغل بالسياسة .

في مجلس العموم

مر عام وعاد تشرشل من حرب جنوب افريقية بعد فراره من اسر البوير فرارا يعد ضربا من الاساطير ، فاحتفى به العمال في أولدهام على انه (انبل ابطال انكلترا) وانتخبوه نائبا عنهم في مجلس العموم . وفي السادسة والعشرين كان هذا النائب قد اشترك في ثلاث حروب ، وكتب اربعة كتب ، وادخر وقت حاجته خمسين الف ريال اكتسبها من كتاباته ومحاضراته . ثم اذا به يبدأ مسلكا جديدا .

ذلك أن تبرمه بمبادىء المحافظين دفعه في سنة ١٩٠٣ الى الاقدام على عمل يعد أروع ما قام به في حياته كلها ، اذ دخل قاعة المجلس ، وانحنى بوقار متمهلا كالسنة المتبعة امام رئيس المجلس المكلل راسه بالشعر المستعار، ثم دار على عقبه ، ولم يمم شطر مقاعد المحافظين ، ورئيسهم آرثر بلفور ، بل امّ مقعدا خاليا بين المعارضين ، وجلس بجوار احد نواب بلاد الغال ، هو الشاب دافيد لويد جورج السياسي الناشيء المتطرف .

وفي سنة ١٩٠٦ ظفر حزب الاحرار في الانتخابات التالية باغلبية

مهدت لتشرشل سبيل الظهور ، فاخذ يستحث سن طائفة من قوانين الاصلاح على رغم معارضة المحافظين . ومن هذه القوانين تحسين حالة العمل في المصانع والمناجم ، ومنح معاش لكبار السن ، وانشاء مكاتب لاستخدام العمال . وزاد الاحرار ضريبة رأس المال ، وقضوا على سلطان مجلس اللوردات .

ولكن قلب تشرشل كان قد اشرب حب مبادىء المحافظين ، فغلبه حتى عاد الى حزب اليمين مرة اخرى . وفي سنة ١٩١١ عرض عليه المستر اسكويث منصب وزير البحرية ، فانصرف عن مشاكل العمال المتعطلين واطعامهم ، وهي مسائل شائكة مثيرة للنزاع ، الى معالجة أمور اخرى عاتية : كعيار مدافع الاسطول ، والسيطرة على البحار . وكانت المانيا حينئذ مجدة في بناء اسطولها الكبير لتناهض سيادة بريطانيا . وبدأ بينهما سباق بحري يتوقف على نتيجته مصير انكلترا .

ويومئذبداصيت تشرشل ينتشر،فلولاه لانهزم الاسطول البريطاني شر هزيمة في سنة ١٩١٤ ، فقد استبدل بكبار السن من امراء البحر ، شبانا ولاهم مناصب القيادة ، ورفع أجور البحارة ، وانشا سلاح الطيران البحري، وغير وقود الاسطول من الفحم الى البترول . وكفل له بحصافته موارده في المستقبل ، بشراء آبار البترول في ايران . والى نشاطه هذا يرجع الفضل في ان الاسطول البريطاني كان متأهبا للقتال حينما غزت المانيا أرض بلجيكا .

ولكن نجم تشرشل الذي تلألأ في سنة ١٩١٥ ، انكدر بعد ذلك حينما عمل على ارسال حملة كبيرة كان نصيبها ان تحطمت على صخور غاليبولي . ولم يستطع كثير من مواطنيه ان يقتنعوا بأن نتائج التحقيق الدقيق ، الذي جرى في أمر هذه الحملة ، قد اخلته من الملامة . فلما اعيد تشكيل الوزارة أقصي عنها تشرشل .

فأبحر الى فرنسا ضابطا مقاتلا وحارب في الخنادق سبعة اشهر ، ثم تولى لويد جورج رئاسة الحكومة فاستدعاه الى لندن، ليتولى وزارة الذخيرة فوقف على دقائق الانتاج الحربي ، واتم معارفه في فنون الحرب واستكمل هذا المحارب دربته .

قبل الحرب القائم

ودخلت انكلترا في فترة الركود التي تتخلل الحروب فقل انتفاعها برجلها العظيم ، وتشاغل تشرشل منذ سنة ١٩٢٠ الى سنة ١٩٣٠ بكتابة

مقالات لا خطر لها في الصحف والمجلات ، وانهمك في المقامرة في مونت كارلو وسوق الاوراق المالية . وكانت اللوحات التي رسمها في ذلك العهد تدل على حياة رجل يضرب في الارض على غير هدى ، فهي مناظر طبيعية في ساحل الريفييرا ، وقنوات هولندة ، وخلجان النرويج .

كانت هذه هي السنوات العجاف في حياة تشرشل ، ولكنه كان في انحداره هذا يضارع كثيراً من الرجال الذين بلغوا القمة في حياتهم . فلم تر انكلترا كاتبا غيره ، سوى برناردشو ، ربا دخله على خمسين الف دولار في السنة .

وكتب كتابه عن حياة (مالبرو) في اربعة اجزاء ، وكثيرا ما قضى ليله يكتب ، وهي عادة اكتسبها زمن توليه وزارة البحرية . ولكن هذه الروح التي نفخها في سيرة جده كانت ، فيما يبدو ، منتزعة من روحه هو ، حتى صار يخيب امل ربة الدار اذا دعى الى مادبة : نعم لم تزل ثمة ومضات من حديثه الخلاب الذي جعل لآلاف من المآدب شهرة ذائعة ، ولكنه يقضي اكثر وقته صامتا مقطبا ، كانه جسد لا حياة فيه ، او كأنه مصباح قد انطفأ .

فلما جاءت ساعة يقظته هب هبته ، فاستشف من وراء ما كان من الجدال المستعر بين حزب اليمين وحزب اليسار ، والذي بهت له الساسة والمفكرون ، سرّ البلاء مجسما . فمنذ سنة ١٩٣٢ – من قبل ان يتولى هتلر رئاسة الوزارة في المانيا – نرى تشرشل يحذر حكومته ان تنخدع بصياح المانيا من طلب المساواة في الحقوق في اوروبا . وكتب يقول : « ان هذه الفرق من الشبان الاشداء المنحدرين من أصل تيوتوني ، الذين يخترقون دروب المانيا وطرقها وفي عيونهم بريق النهم ، لا يلتمسون مساواة ، بل يلتمسون سلاحا » .

وبدت انكلترا غافلة كانها لا تبالي ، واعلن طلبة اكسفورد عزمهم على ان لا يقاتلوا ، وسخر العمال من تشدقه بالحرب الذي مضى زمنه . اما الحزب الذي ينتمي اليه تشرشل فليس له برنامج سوى التهدئة . وفي احدى المرات القليلة التي حضر فيها اجتماعات حزبه القى خطبة عنيفة ندد فيها بسياسة الخضوع لهتلر وختمها بقوله : « أفمن اجل ذلك تطرحون جانبا ذلك التراث العتيق الذي خلفه لنا أولئك الذين بنوا عظمتنا ومجدنا » . وخرج من الحجرة وتبعه هارولد نيكلسن وهنأه . ولما كان نيكلسن من الكتاب ، فقد سأله عن جملته الاخيرة أمرتجلة هي لساعتها ؟ فصرخ فيه تشرشل :

« سحقا للكلام المرتجل ! لقد ظللت أفكر فيها وأنا في الحمام ، ولقد وددت الآن لو لم أكن ضيعتها هباء في آذان هؤلاء الاوشاب ! » .

ولم تكن غاية الامر هذا الكلام المنمق ، بل انه سعى حتى ظفـر بأدلـة تثبت تسلح المانيا واستفحال جيشها ، فكتب في ربيع سنة ١٩٣٦ يقول :

« امنعوه ، امنعوه ، امنعوه الآن ! »

وقام يدعو الى عقد حلف عظيم نواته عصبة الامم وتدخل فيه روسيا .

ثم حدث اجتماع ميونيخ ، وهبط (نيفل تشمبرلن) في مطار كرويدن وهو يلوح بقصاصة من الورق ، فخطب تشرشل في مجلس النواب قائلا :

« افتتح قولي بكلمة شد ما تنكرها الاسماع وتنفر منها القلوب ، لقـد هزمنا هزيمة كاملة قاضية » .

ومر عام واعلنت بريطانيا الحرب ، فلم يبق لتشمبرلن مفر من ان يعيد الى الوزارة ذلك الرجل الذي قال عنه مرة :

« ان التعاون معه مستحيل » وتولى ونستن منصب وزيـر البحرية ، وتهلل بالبشر ضباط الاسطول المنتشر في مواقع القتال فـي جميع انحـاء العالم ، وهز تشرشل ما هزهم فتوهج ذلك المصباح الذي كان قد انطفا .

غير ان توليه وزارة البحرية لم يدم الا قليلا ، فقد تزعزع تشمبرلن من صدمة غزو الالمان لبلجيكا ، وهولندا ، ولـم يبق مفر مـن تأليف وزارة ائتلافية ، الا ان حزب العمال رفض العمل تحت رئاسة احد مـن المحافظين غير اللورد هاليفاكس وزيـر الخارجيـة السابـق ، او تشرشل . ورأى هاليفاكس ان الحكمة تقتضيه ان يتنحى قائلا : انها مهمة تتطلب فردا مـن الشعب لا من اللوردات .

وبعد معركة دنكرك صار واجب تشرشل بينا ، فقـد ضاعت أوروبا ، وانضمت روسيا الى المانيا ، ولا يـزال الامريكيون يتجادلون فـي فضائل الحياد . فقال لوزرائه : « ايها السادة ، نحن الآن وحدنا ولا معين ، وهـذا امر يجعل قلبي في نشوة » ويروي اللورد هاليفاكس انه دخل على تشرشل في مكتبه ذات يوم فوجده يرتجل تلك الكلمات التي تردد صداها في جميع انحاء العالم بعد ذلك بأسبوع ، اذ كان يقول : « سنقاتل علـى الشواطىء ، وسنقاتل على المهابط » ثم خفض صوته واستطرد يقول : « واذا ما قدر لهم ان يبلغوا لندن ، فسأقاتل من وراء هذا الجدار المحصن الواقع فـي نهايـة هذا الطريق ، وانا احسن الرماية كما تعلمون ! » .

غير ان الجُدُر المحصنة لم تكن هي التي انقذت انكلترا ، بـل انقذها اقدام سلاح الطيران البريطاني . ولتشرشل دراية بأمور الطيران لا يدانيـه

فيها احد من كبار الساسة . وكان يصله مع فطوره كل صباح تقرير عن عدد ما احدثته القنابل من حفر ولم تردم بعد في مدارج مطارات مقاطعة كنت . وطال تردده على المغارة التي يدير منها السير هيو داودنغ اسراب طائرات سلاح الطيران . وكان في المغارة يوم ١٥ ايلول المشهور ، حينما جاء من فرنسا اكبر حشد من الطائرات الالمانية يزار زئيرا وشقت طريقها الى ضواحي لندن ، فما هو الا ان ارتدت على اعقابها منهزمة بعد ان اسقط منها ١٨٥ طائرة .

فكانت معركة العام الفاصلة ، بل احدى ، المعارك الفاصلة في التاريخ كله . وبدات بعد ذلك غارات الليل ، وكاد الالمان يصيبون تشرشل مرتين ، اذ حدث مرة ان سقطت قنبلة ثقيلة بالغرب من دار الرئاسة وهو فيها يتمشى مع بعض ضيوفه ، فتطايرت نوافذ الدار ، ولكن تشرشل استولى على مقاليد الامور كأنه قائد في ميدان القتال ، وامر الخدم بالنزول الى القبو ، ثم تبعهم هو وضيوفه يحملون صحافهم وكؤوسهم في ايديهم . واتموا عشاءهم جالسين على صناديق من خشب .

وفي هذه الفترة تتابعت خطبه البليغة تترى ، كانها دقات ناقوس هائل ، ووقف الناس من مختلف العقائد والاحزاب في جميع انحاء العالم ينصتون ، واستغل تشرشل الخطيب موقف انكلترا « منفردة وحدها » خير استغلال . على حين ان سياسة انكلترا القديمة المتوارثة هي ان تقاتل ومعها حليف ، وان تقاتل في سبيل قضية تستميل اليها من يحالفها ، وهذا امر كثيرا ما يغفل عنه الناس . فكان الحلفاء الذين يطمع تشرشل في محالفتهم هم روسيا والولايات المتحدة .

غزو روسيا

وكان غزو المانيا لروسيا نعمة من الله ، ولو ان تشرشل كان يتوقعها منذ زمن . اما استمالة امريكا فكانت مسالة اشد تعقيدا ، ثم زاد ميل الناس في امريكا الى انكلترا ، فاخذ تشرشل يبذل جهده للانتفاع بذلك .

ولم يكن تشرشل كز[1] بخيلا وهو يتلمس الحليف ، فيوم كان يجري بينهما الاتفاق في شأن المدمرات والقواعد البحرية تنازل تشرشل عن برمودا ونيوفوندلاند . وزادت طلباته للعتاد من الولايات المتحدة ، واخذ ينفق من مدخر الذهب الباقي في انكلترا انفاق المسرفين .

وجاءت نعمة من الله اخرى ، ووقع الهجوم على بيرل هاربور ، فصرح ونستن تشرشل بأن وزارته ستعلن الحرب من فورها . ثم اتصل بالبيت الابيض مؤكدا ان بريطانيا ستؤدي واجبها . ورأى تشرشل ان هذا الواجب يقتضيه ان يذهب هو وحاشيته كلها من كبار قواد البر والبحر الى البيت الابيض ويقضي فيه عيد الميلاد . وحثه على الاسراع انه خشي امرين : اولهما ان تضطر امريكا في لحظة الفزع الى تحويل قوتها الى المحيط الهادي، وثانيهما ان تحصر امريكا جهودها في حرب اليابان ، فيمنعها ذلك من أن تستمر في تنمية الصلات المتواشجة بينهما .

ولو كان ثمة اساس للمخاوف التي تساوره ، فاجتماع واشنطن قد بددها تبديدا . واخذ تشرشل يتدفق في حديثه الخلاب وهو على مائدة الطعام ، ولم يستأثر وحده بالحديث ، بل ان تشرشل ، الذي لا يصبر على حديث احد غير نفسه في مجلس العموم ، اخذ يصغي مقبلا على ما يقصه روزفلت من نوادر . وكان هاري هوبكنس هو اول من فتح باب هذه النوادر، اذ قال انه حينما رأى البحارة البريطانيين في مواقع حراستهم خارج البيت الابيض صرخ قائلا : « يا ويلته كيف جاءنا هؤلاء ؟ انهم حين جاءوا آخر مرة اشعلوا النار في البيت ! » (اشار الى ما حدث في الحرب بين الانكليز والامريكيين سنة ١٨١٢) .

وكان تشرشل ـ اذا انصرف روزفلت الى مخدعه يجلس طويلا يحادث هاري هوبكنز في غرفته بمكتب لنكولن عن مشاكل الامدادات ، ودهش هوبكنز من مقدرة تشرشل على ان يقوم من منامه نشطا صافي الذهن فيقتحم عليه غرفته في اول الصبح وهو يقول : « هاري ! ماذا فعلت في شأن ما تحدثنا عنه في الليلة الماضية » .

وكان من بين القرارات الاولى التي اصدرتها انكلترا وامريكا معا ان تنزل الجنود الامريكية ، لا على شواطىء اوروبا ، بل في شمال افريقية . وتطلب هذا القرار من تشرشل ان يتولى مهمة عسى ان تكون ابغض مهمة تولاها واشدها خطرا . فقد كان عليه ، كما اتفق هو وروزفلت ان يبين اسباب هذه المعركة ومسوغاتها للروس المستيئسين الذين كانوا يرتدون حينئذ نحو ستالنجراد .

الشعراء القدامى

ويميل تشرشل الى ان يشبه نفسه بانه احد اولئك الشعراء القدامى المتجولين الذين كانوا يتنقلون من بلاط الى بلاط لينشدوا اناشيدهم التي

لا تتغير ، ولكن شتان ما بين هؤلاء الشعراء اهل المرح وبين الرجل المتجهم الوجه الضخم الجثة وهو ينزل من طائرة حربية في سنة ١٩٤٢ ليبدأ هذا المؤتمر الاول الشهير من مؤتمرات موسكو . وقد وصف احد كبار الانكليز هذا الاجتماع بأنه عراك وشجار عنيف ، فان ستالين لم تهزه بلاغة تشرشل، ونبذ فكرة النزول في شمال افريقية ، لانها فيما يرى عمل لا يخفف من شدة ما تلقاه روسيا من وطأة الجيوش الالمانية . وفي اليوم الثالث من المؤتمر كان تشرشل غارقا في لجة من الهم والوجوم .

كانت البلشفية همه الشاغل في اوائل حياته السياسية ، فاخذ غضبه المكتوم يتفجر ويتدفق . وحاولوا ان يحملوه على السكوت وهم يشيرون اليه بأن الحجرة قد تكون مجهزة بأسلاك خفية لنقل الصوت ، ولكنهم لم يفلحوا في تهدئة رئيس الوزراء ، بل ان تحذيرهم جعله يندفع من جدار الى جدار ليصب جام غضبه ونقمته على ما عسى ان يكون في الجدران من اسلاك خفية . ثم التفت اليهم وهو يبتسم ابتسامة خبيثة وقال : « انه على الاقل شيء يسر الناس لو عرفوه او قراوه » .

وبعد الظهر ارسل ستالين الى تشرشل يدعوه الى الكرملين ، واستطاعا ان يصلا الى اساس يرتضيانه . وهكذا وفق سليل مالبرو في خطواته الاولى ، الى ان يقنع ابن صانع الاحذية بصواب ما عملته امريكا وانكلترا .

وفي كانون الاول سنة ١٩٤٣ عقد في طهران اول اجتماع ضم تشرشل وروزفلت وستالين معا ، وطالب الروس بالحاح مهاجمة الجيوش الالمانية من الشرق والغرب معا . واخذ تشرشل يسهب في ايضاح الاخطار التي تنجم من مواجهة الجيوش لخصم يضطرها الى الجمود طويلا في مواقعها ، كما اسهب في بيان ما يحدث لو لم يقع ذلك . واخيرا تم الاتفاق على انزال حملة كبيرة في نورمندي .

وبذلك تقرر مصير المانيا . وفي يوم الغزو رافق تشرشل الجنرال ايزنهاور وهو في قطاره الخاص في جنوب انكلترا ، ذلك انه اراد ان يعبر بحر المانش مع الجنود ، فمنعه ايزنهاور ، فلم تمض تسعة اشهر حتى كنت ترى تشرشل — يوم عبر الحلفاء نهر الراين — واقفا على ظهر مركبة مصفحة يسير في البر والبحر وهو ينادي :

« هيا بنا الى الامام ! اننا نطارد جيشا مهزوما يرتد الى مستنقع الظلم والفساد ، الى برلين ! » .

وقد عاش تشرشل حتى رأى مصرع اشد اعداء انكلترا خطرا ، وقد

كان يتمنى ان تتالح له فرصة القيام بعمل رجل السلام ، وقد اسفرت الحرب في اوروبا عن مناظر من الخراب والفقر والكوارث .

ومنذ خمس سنين ، وعد هذا المحارب بان « سياتي يوم تدق فيه الاجراس فرحا في كافة انحاء اوروبا وامريكا ، ويحين فيه بناء صرح شامخ يقوم على العدالة والحرية ويتسع للناس جميعا » .

لقد حزم الشعب البريطاني امره ان يشيد ذلك البيت ، ولم يطلب الى مستر تشرشل ان يضع فيه اية لبنة من لبناته . على انه ليس ثمة في بريطانيا من ينكر ان ونستن تشرشل هو الذي فتح امامنا ابواب الامل في ان يقام هذا البيت في سلام ، وان يبقى على مدى الايام .

من اسرار الحرب

ومنذ سنوات قليلة خلت ، ادار « ونستون تشرشل » ظهره للعالم ، ومات عن تسعين عاما ، تاركا وراءه اسرارا عديدة عن الحرب العالمية الثانية ، تنتظر من يكشفها .. ولعل من اعظم واغرب هذه الاسرار ، سر كشفت عنه الدوائر السياسية في بريطانيا مؤخرا ، وهو يتعلق بالمكان الذي كان يدير فيه تشرشل تحت الارض ، المعارك والحروب في مختلف انحاء العالم ...

فيه كان ينام ، ويجتمع الى وزرائه ويتخذ اخطر المقررات ، ويتكلم الى الشعب الانكليزي والى العالم كله ، وفي هذا المخبأ قال كلمته الشهيرة في اذار ١٩٤٠ : « اذا وقع الغزو ، غزو المانيا لانكلترا ، فسابقى هنا .. »

ثم اشار الى كرسيه الذي اعتاد ان يجلس عليه ، في راس الطاولة الكبيرة ، عندما يجتمع الى الوزراء : « وساجلس هناك حتى يطرد الالمان من انكلترا ، او ياتوا الي ، لياخذوني ميتا !! »

وحتى هذه الساعة ، لم يشاهد المكان الا نفر قليل ، رغم ان الحكومة الانكليزية قد احتفظت ببعض هذه الغرف لقيمتها التاريخية ، وتركتها على حالها ، كما تركها تشرشل حين غادرها بعد انتهاء الحرب ، ليعود الى عمله فوق الارض ..

هذه الغرف العديدة التي كانت تضم في بعض الحالات ما يقارب الثلاثمائة شخص من الوزراء والضباط والمهندسين ، لم تكن تقل عن

مئة وخمسين غرفة ، حفرت على عمق ١٥ قدما تحت الارض ، وجهزت بكل اسباب الراحة والعمل والمواصلات التليفونية اللاسلكية ، والاضواء الكهربائية ...

وقد حفرت هذه الغرف السرية تحت بناء حكومي هدمته الطائرات الالمانية ، اثناء غاراتها على بريطانيا .

لم يتطرق سر هذه الغرف الى احد ، لينقله الى الخارج ، مع ان كل خطط الحرب الدموية كانت تقرر في هذا المكان ، وكانت كل حركة من حركات الاساطيل الحليفة ، في مختلف بحار العالم ، تسجل في غرفة الخرائط ، وكلما تقدمت احدى هذه القطع الحربية او تحركت ، تحرك معها الدبوس الذي يدل على مكانها ..

كما كانت هذه الخرائط تحدد مكان الغواصات الالمانية وتحركاتها ، واذا ما وقعت معركة ، او حدثت غارة ، قام الخبراء يحركون الدبابيس .

ومن هذا المخبأ السري ، تم الانتصار على « رومل » ، ثعلب الصحراء كما كانوا يسمونه ، وتبدل سير الحرب في شمالي افريقيا . وقد كان تشرشل ، ايام انتصارات « رومل » على الجيش الانكليزي ، يزور القاهرة ، فارسل الى وزرائه في لندن يطلب منهم تغيير القائد البريطاني في شمالي افريقيا ، واقترح عليهم اسم قائد اخر ... ولكن القائد الذي طلبه ،كان قد الحقه ايزنهاور في قيادته ، فكان لا بد ان يتصرف الوزراء لوحدهم ويختاروا بنفسهم قائدا ، فتم اختيار الجنرال « مونتغمري » ، وارسل الى شمالي افريقيا ، فالحق اكبر هزيمة بالجيش الالماني !!

وفي هذا المكان ، قال احد كبار المسؤولين الانكليز بعد ان قضى فيه وقتا طويلا ، توترت خلاله اعصابه :

« يقول الناس ان هذه الحرب هي حرب هتلر .. والحقيقة انها لم تكن كذلك ابدا .. قد يكون هتلر اوقد شرارتها ، ولكن بعد العاشر من اذار ١٩٤٠ ، اصبحت الحرب حرب تشرشل ، فقد قادها بنفسه ، وتولى الدفاع والهجوم في كل معركة من معاركها ».

حين انتهت معركة « البيسمارك » ،بغرق هذه المدرعة الالمانية ، بعد ان طاردها الاسطول الانكليزي اياما ، خرج احد الضباط من غرفة الخرائط متوجها الى بيته فوق الارض ، فلما وصل الى الشارع لاحظ ان قدميه لا تحملانه ، وانهما ترتجفان ارتجافا عنيفا ، بسبب الجهد الذي صرفه في متابعة تطور المعركة البحرية المثيرة ، على الخريطة الكبرى ..

وقد حدث يوما، بينما كان تشرشل ينظر الى الخريطة الكبيرة ،وكانت

تصور حركـة القوافل البحريـة التي تحمل الغذاء والسلاح الى انكلترا ،من الولايات المتحدة وعدة دول اخرى ، ان لفتت نظره سفينة تجارية تتقـــدم ببطء في عرض البحـر ..

فلمـا سأل عنها ، قيل له انها تحمل ٦ الاف طن من البيض .. فراح يراقب حركتهـا وتقدمها ، ثم التفت الى الاستاذ « ليندمان » ، وهو عالم كبيـر كان تشرشل يستعين برأيه ، ويطلق عليه لقب « دائرة معارف » فسأله كم عدد البيض في ستة الاف طن من البيض ؟

فقال له الاستاذ بعد ان فكر قليلا: ــ ١٠٧ ملايين بيضـة ..

وابتسم تشرشل وقال : ــ هذا يعني بيضتان لكل بريطاني .

وهناك غرفـة سريـة اخرى ، كـان جل ما فيهـا تليفـون ومنضدة وكرسي للجلوس ... ولكـن هذا التليفون كـان لـه شأنه الخطير فـي الحرب ، فقد كـان واسطـة الاتصال بين تشرشل وروزفلت ... وعندما يقفل باب هذه الغرفـة ، ويضاء النور الاحمر فوق بابها ، لا يعود احد مـن الموظفيـن يظهـر في الرواق .

ومن غريب ما كان يحدث اثناء هذه الاتصالات التليفونية ، ان احدا من الرئيسين لم يكن يرغب في انتظار زميله على التليفون ولو لحظات ..

وحين زار الملك جورج الخامس هذا المكـان السري في اشد ساعات الحرب قلقـا وانقطاع امل ، شاهـد خنجرا على طاولة تشرشل ، فســأل عن سبب وجوده ، فأجابه احد الموظفين :

ــ انه للمستر تشرشل يا سيدي، لاستعماله عندما يأتون بهتلر اليـه في هذا المكـان ..

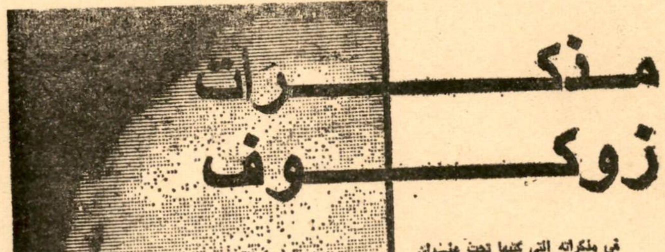
وسمع تشرشل التعليق وصمت . وكان الوزراء ينامون تحت الارض في مكانهم السري ، وكذلك الموظفون الاخرون ، وكانوا لا يعلمـون شيئا عن حالة الطقس فوق الارض ، فقرر احد الموظفين تزويدهم بالمعلومـات اللازمة فعلق على الحائط لوحا مـن الكرتـون اخذ يضع عليه الكلمـات التاليةحسب تطـور الطقس : مطر ، ثلج ، شمس ..

وفي احد الايام ، نظر بعض الوزراء الى اللوحة ليتأكدوا من حالـــة الطقس ، فوجدوا عليها العبارة التالية : لا « جن » عندنا اليوم ،و« الجن » هو شراب معروف . وقد وضع العبارة احد الموظفين لينبه المسؤولين الـى ضرورة تأمينــه ...

وانتهت هذه الحرب بهدوء ، في المخبـأ السري، كما اعلنت بهدوء ..

ففي اليوم السادس عشر من آب ١٩٤٥، توقف جرس التليفون عـن الرنين ، واخذ الموظفون يغادرون المكان واحدا بعد الاخر ...

القسم الثاني



مذكرات زوكوف

فى مذكراته التى كتبها تحت عنوان تكريات وتاملات ! والتى اهداها الى الجندى السوفيتى ! : يقدم ماريشال الاتحاد السوفيتى زوكوف من خلال حياته الشخصية عرضا مثيرا لكثير من اخطر احداث العصر . وتبدا الاحداث من الحرب العالمية الاولى : الى قيام ثورة اكتوبر الاشتراكية فى روسيا فبناء الجيش الاحمر فى معمعة كفاح الشعب الروسى ضد القيصر والراسمالية والتدخل الاجنبى المسلح : فالحرب الروسية اليابانية عام ١٩٢٩ : ثم بوادر الحرب العالمية الثانية ومحاولات ستالين المستميتة للقضاء على النازية فى بداية عدوانها على اوروبا : فمعاهدة عدم الاعتداء بين المانيا النازية والاتحاد السوفيتى: فالهجوم الالمانى على روسيا وهزيمة القوات المسلحة السوفيتية فى بداية الحرب . فالمقاومة البطولية للغزو : فالانتصار التاريخى فى ستالينجراد الذى كان بداية لمطاردة القوات الفاشية والنازية حتى عقر دارها ودحرها فى برلين .

وهو فى مذكراته يكشف لاول مرة عن كثير من الوثائق والمفاوضات السرية والاحداث الخطيرة التى دارت وراء الكواليس وفى ادارات المخابرات واجتماعات العسكريين والسياسيين .

ثم هو يقدم شهادته التاريخية فى تقييم اسباب هزيمة وانتصار الاتحاد السوفيتى ودور ستالين فى ذلك كله مع ابداء رايه الشخصى فى كثير من رجال الغرب والشرق البارزين مثل ايزنهاور وديجول وخروشوف وتشرشل ومونتجمرى وهتلر

مع وصف صادق للزعماء الثلاثة ستالين ، وهتلر ، وتشرشل الذين تصدروا الاحكام والمسؤوليات ... اثناء الحرب العالمية الثانية .

الفصل الأول

الطفولة والصبا

ـ الفروسية والرومانتيكية ـ الجيش القيصري ـ المعركة الاولى ـ التمرد والثورة ـ

((في مغيب العمر يصعب على الانسان ان يتذكر كل ما مر بـه في حياته ، فالاعوام والاعمال والاحداث قد نحتت من الذاكرة الكثير ، خاصة ما يتعلق بالطفولة والصبا : ولـم تبق الا على ما لا يمكـن نسيانه))

ولد زوكوف في ١٩ تشريـن الثاني ١٨٩٦ في منزل عتيق بقريـة ستريلكوفكا في محافظة كالوجـا ولا يدري زوكوف عن اصله الا ان« المنزل الذي ولد به كان لارملة تدعى انوشككا زوكوفا لم ترزق بذرية ولذلك فانها، لكي تزيـن وحدتها قد اخذت من الملجا طفلا عمره سنتان هو والدي . مـن هما ابواه الحقيقيـان ؟ لا احد يدري . معروف فقط ان امراة مجهولة قد تركت وليدهـا في شهره الثالث على اعتاب ملجأ للاطفال ومعه ورقة كتب عليهـا :« اطلقـوا على ولدي اسم قسطنطين » ما الذي ارغم المراة المسكينة على القاء طفلهـاامام ابواب الملجا ؟ يستحيل القول . من المستبعد انها لجأت الى ذلك انتقادا الى مشاعر الامومة . واغلب الظن انها اقدمت على ذلك حين لـم تجـد مخرجا من وضعها المتأزم المرير » .

لم يكن والد زوكوف قد بلغ الثامنةحيـنماتت المحسنة التي تبنتـه فاضطر الى العمل لدى صانع احذية . لكـن عمله في الحقيقة قد انحصر

فيرعى الماشيـــة والخدمة المنزلية . وبعد ثلاث سنوات توجه الى موسكـو على قدميه بحثـا عن عمل اخر . وهناك التحق بالعمل في ورشة احذيـــة حتى طـرد منهـا وابعد عـن موسكو لاشتراكه في اضرابات ثورة ١٩٠٥ . ومن وقتهـا حتى وافته المنيـة عام ١٩٢١ ظل مقيمـا بالقرية يعمل بصناعة الاحذيـة حينـا وبالزراعة حينا اخـر .

وولدت ام المرشال في قرية مجاورة تسمى « تشرنيا جريان » وتعني بالروسيـة « القذارة السوداء ».

وحين تزوج والداه كان الاب في الخمسين والام فـــي الخامســة والثلاثين وكـان هـذا الزواج الثاني لكل منهمـا اذ كـان كل منهمـا قد ترمل مبكـرا بعـد الزواج الاول .

ونظـرا لفقر الاب كانت الام تؤدي اشق الاعمال لقاء اجـر بالكاديكفي لسـد الرمـق .

ويقول المرشال ان امه لم تكـن استثناء ، فالفقر الشديد كان يرغم معظم الرجال على الرحيل الى المدينـة بحثا عن العمل تاركيــــن للنساء والاطفـال والطاعنين في السن مسئولية العمل في الحقول .

ويصف زوكوف حياة الرياء الريف ثم يقول : اما نحن ابناء الفقــراء فقـد كنـا نحس قسوة حياة امهاتنا ، ونعاني بمرارة من رؤية دموعهن . ولكم كانت بهجتنـا حيـن يعدن من المدينة حاملات شيئا من الخبز او « السميط » امـــا حين كانت تسنح الفرصة لادخار نذر يسير من المال قبيل حلول عيد الميـلاد او عيـد الفصح فان السعادة كانت تحل علينا بغير حدود » .

« وحيـن كنت في الخامسة وكانت اختي في السابعة ولدت امي طفلا سموه « الكسي » وكان نحيفـا جدا وعليلا دائمـا وذات مرة قالت امي:»

ـ من اين له القوة . . امن الماء والخبز ؟. وتحت وطأة الجوع اضطرت امـي للرحيل الى المدينـة سعيا وراء الرزق . وقد فشل الجيران فـــي اقناعهـا بالبقاء في القريـة لرعايـة الطفل المريض لان خوفها من اغتيـال الجوع للاسرة كلهـا كـان اكبـر من خوفها مـن ان يؤدي المرض بحيــاة الطفل العليل . وبعد رحيل الام بفترة وجيزة قضى الصغير نحبه وواريناه التراب . وانتابنا الحزن . . انا واختي وامي ناهيك عن ابي وكنا كثيرا مـا نتردد على قبـره .

وفي هذه السنـة ايضـا تهدم بيت الاسرة فاضطرت على عجل الـى

الانتقال الى حظيرة حتى تمكن الوالد من ترميم البيت .

في شتاء ١٩٠٢ دخل زوكوف عامه السابع وكان شتاء قاسيا جدا على الاسرة فقد كان المحصول قليلا جدا ولم تكفهم الحبوب الى منتصف كانون الاول . وكان اجر الوالدين ينفق على الخبز والملح وتسديد بعض الديون . « وشكرا للجيران الذين كانوا ينقذوننا في بعض الاحيان بقليل من الحساء او الثريد . ولم يكن العون المتبادل في ريفنا شذوذا عن المالوف، بل كان من تقاليد التضامن والصداقة بين ابناء روسيا الذين جمع الفقر القاسي بينهم ».

وفي الربيع تحسن الحال حثيثا اذ كان صيد السمك من الترع الضحلة في مقدور الناس .

وحين هل آوان الحصاد قالت الام :

— آن لك يا ولدي ان تتعلم الحصاد . لقد اشتريت لك من المدينة منجلة جديدة . وغدا صباحا سوف تذهب لتحصد الجويدر (نبات كالشعير يصنع منه الخبز الشعبي) .

« ورغبة مني في التفاخر بهمتي وبراعتي اخذت اعمل بتوتر تسبب لي في جرح خنصر يدي اليسرى بنصل المنجلة . واستولى الذعر على امي وعليّ . وخفت جارتنا الخالة « براسكوفيا » الى نجدتي بان التقطت من الارض ورقة لفتها على الجرح ثم ربطته بخرقة ربطا محكما ... منذ ذلك الحين مرت اعوام طويلة ولكن جرح خنصري الايسر لا يزال واضحا يذكرني باخفاقي الاول في الجبهة الزراعية » .

* * *

ومع خريف ١٩٠٣ حلت لحظة حاسمة في حياتي ، فقد كان اترابي يتهيأون لدخول المدرسة ، وكنت انا ايضا استعد لذلك . وكان بعض الصبية يتخايل بالحقائب الجديدة التي اشتروها لهم ، لكنني كنت راضيا بالكيس القماش الذي حاكته لي امي . ودخلت مدرسة تابعة للكنيسة كانت تبعد عن قريتنا حوالي كيلومتر ونصف .

كان مدرس الفصل معلما قديرا وانسانا طيبا لم يكن ابدا يعاقب تلميذا دون مبرر ، ولم يكن يتوعد الصغار ان يعنفهم ، لهذا كانوا يحبونه ويطيعونه وكان المدرس ملحدا لكنه كان يتردد على الكنيسة حياء ورعاية للتلاميذ الذين يشتركون في جوقة الكنيسة والذين كان زووكوف احدهم اذ كان في صباه يتمتع بصوت غنائي جميل .

« كان اهل القريـة يحترمـون ابي ويصغون لارائه . وعادة كانت كلمته في الاجتماعات والخلافات هي الكلمـة النهائية . وكنت شديد الحب لابي، كمـا كـان يدللني .. لكن هذا لا ينفي انه كان في بعض الاحوال يعاقبنـي بقسوة على مـا يصـدر مني من هفوات . بل كـان ينهال عليّ ضربا بحزام جلدي عريض وسميك ، وهو يصمم على ان اطلب منه الصفح . غير انني كنت عنيدا أتحمل الضرب مهما طال دون ان اطلب المغفرة » .

وفي صغره كـان زوكوف يذهب الى الصيد مع شقيق امه في العماد ويدعى بروخور وكان صيادا ماهرا لا يخطىء فريسته ويقول المارشال فـي مذكراته : « ومن ذلك الوقت صرت احب الصيد ... ولا بـد ان بروخـو هـو الذي غرس في هذا الحب في اعوام الطفولة » .

ويذكـر المارشال هذا الحوار بيـن والديه حين كان الاب يتاهـب للعودة الى موسكـو بعد اجازة قصيرة روى انباءها كيف تجتـاح مدينتي موسكـو وبطرسبورغ حملة من اضرابات العمـال الذيـن وصلوا الى حالة اليأس تحت وطأة البطالـة والاستغلال .

قالت الام : ــ عليك الا تدس انفك فيمـا لا يعنيك حتى لا يرحلـك البوليس الى حيث لم يرع « ماكار » العجول (مثل روسي يعني المنفى الى المجاهل التي لم تعرف بعد مظاهر الحياة) .

رد الاب : ــ ما يخص العمال يخصني . وحيث هم لا بد ان اكون !

« وبعد سفر ابي انقطعت اخباره طويلا ممـا اثار مخاوفنا عليـه . وسرعـان ما عرفنـا ان البوليس والقوات القيصرية قد اطلقت النيران فـي بطرسبورج في ٩ كانون الثاني ١٩٠٥ على مظاهرة عمالية سلمية تحمل الـى القيصر نداء بتحسين ظروف الحياة . ومنذ ذلك الحين بدات القرى تستقبل دعاة مجهوليـن يحرضون الشعب على النضال ضد الاقطاع والحكم القيصري المطلق ... وبدأ الفلاحـون يسمعون عن تعذيب ونفي زعماء العمال ، وعن لينين المعبر عـن مصالح العمال والفلاحيـن وزعيم الحزب البلشفي الـذي يسعى الى تحرير الكادحيـن من نير الاقطاعيين والراسماليين والاستبداد القيصري » .

* * *

وفي عامه الحادي عشر قرر والداه أن يوجهاه الى الاعتماد على نفسـه في طلب الرزق . وابدى الصبي رغبة في تعلم الطباعـة لكن اباه لم يكـن

يعرف احـدا من المشتغليـن بهذه الحرفة واقترحت الام ان تلحقه بالعمل لدى شقيق لهـا بدأ حياته معلمـا لم انتهى به الامر الى ان اصبح يمتلك اكثر مـن خمسين الف روبل ذهبي وورشة لصناعة الفراء يعمل بهاالماتية عمال واربعـة صبيـان ويحكى زوكوف كيف كـان لقاؤه مع هـذا الخـال الجشع القاسي فحيـن صحبـه ابوه الـىالخال اوصاه بان ينحني لهبادب « قائلا ، دمت بصحـة يا ميخائيل ارليمينهتس » ولكن الصبي زوكـوف اعترض على نصيحـة ابيه ورغب في ان يحييه بقولـه « دمت بصحة ياخال ميشا» فنهـره الاب قائـلا :

ـ انس تمامـا انه خالك . فهـو صاحب العمل من الان فصاعدا .. واصحاب الاعمـال لا يحبـون ان يكون لهم اقارب فقراء لا بد ان تعي ذلك جيدا ، وان تحفظه عـن ظهر قلب .

وقد استقبلهمـا الخال بفظاظـة ووقاحـة وحين عادا الى البيـت وقصا على الام ما كـان قالت :

ـ الم يطلب لكما فنجانا من الشاي فرد الاب : ـ بل حتى لم يـرد التحيـة ولم يدعنـا الى الجلوس لنستريح من عناء الطريق . وهل نحن في حاجة الى شايه . انني ساصحب ولدي الى المقهى لنشرب الشبين من عرق الجبيـن .

هكذا شق المارشال زوكوف طريقه الى موسكو . وهو يصف هـذه الفترة من حياته بقوله :« مر عام ، تعلمت فيه بنجاح مبادىء صناعة الفراء وان كـان هذا لم يتات لي بسهولة . فقد كـان صاحب العمل يوسعنا ضربا لاقل خطأ ولكم كانت يده ثقيلة ! كذلك كان يضربنا الصناع والصانعات .ولم تكـن زوجـة صاحب العمل اقل منهم جميعـا في ضربنا بلا شفقة . وحين كـان مزاج صاحب العمل يعتل كـان يجلد بالصبي الا يظهر امام عينيه ،فقد كان يستطيع في هذه الحالة ان يتلقفه بالصفعات الوحشية التي يظل دويهـا يرن في الاذان طـوال اليـوم » .

وبرغم الحياة الشاقـة لم يفقـد الصبي زوكوف حبه للقراءة التي كان يساعده عليهـا ابن خاله الذي كـان في سنه ويدعى الكسندر .

ـ فقرابعض الروايات المثيرة لشارلوك هولمز لكن ذلك لـم يشبع نهمه الـى المعرفـة .

« وعندمـا عرضت على الكسندر رغبتي في التعليم الجاد شجعنـي

وبدانا ندرس اللغة الروسية والرياضيات والجغرافيا والكتب العلمية البسيطة ورغم اننا قد لجانا الى كل الحيل حتى لا يعرف رب البيت والعمل شيئا عما نفعله ، فقد اكتشف امرنا ذات مرة ، وكنت اعتقد انه سوف يضربني بعنف لم يطردني ، لكنه خيب ظني فأثنى علينا وعلى عملنا الرشيد » .

وبعد اربع سنوات من العمل اصبح لزوكوف خبرة في العمل بل وصبيان يتدربون تحت اشرافه ، وكان صاحب العمل قد ازداد ثراء وبخلا واصبح يعرض منتجاته في المدن الكبرى مما اتاح الفرصة لزوكوف لرؤية الفولجا لاول مرة في حياته وهو يقول في ذلك :« لقد بهرت بعظمة الفولجا وجماله وحتى ذلك الحين لم اكن قد رأيت انهارا اكثر سعة وتدفقا من نهر بروتوفا او نهر موسكو (نهر موسكو ضيق جدا اذ لا يزيد عرضه عن عشرين مترا) كان ذلك في صباح باكر ، وكان الفولجا يتلألأ على ضوء اشعة الشمس المشرقة كنت انظر اليه دون ان ارفع نظري انبهارا ،وجال بخاطري : الان فهمت لماذا يتغنون بالفولجا ويرفعونه الى مرتبة الام !»

وفي نهاية ١٩١١ انتهت مرحلة التلمذة الحرفية واصبح زوكوف « مساعد عمل » وهو في السادسة عشرة من عمره . وكان حينذاك يتقاضى عشرة روبلات في الشهر وهو اجر لم يكن يحصل عليه كثيرون .

« كان رب العمل يثق بي ويوقن من امانتي ، ولهذا فكثيرا ما كان يكلفني بالذهاب الى البنك لايداع النقود او سحبها من رصيده الجاري. كذلك فقد كان يأخذني معه الى متجره حيث كنت الى جانب القيام باعمال صناعة الفراء اكلف بتعبئة المنتجات وتوزيعها على العملاء »

« واعجبني العمل بالمتجر اكثر من العمل بالورشة حيث لم يكن يسمع الا تبادل الصناع الشتائم ، اما في المتجر فقد كنت اختلط باشخاص اكثر ثقافة واوسع اهتماما بالاحداث الجارية .

« لم يكن في الورشة غير شخص واحد يقرا الصحف ولم يكن احد سواه يفهم في السياسة . واعتقد ان الحال كان كذلك في سائر ورش الفراء . حيث لم يكن لعمل هذه الحرفة نقابة . ولم يكن تطلعهم يخرج عن حدود تدبير مبلغ من المال عن اي طريق تمكينا لهم من العمل لحساب انفسهم . ولذلك كان صناع الفراء والخياطون ، وعمال الورش اليدوية الصغيرة يتميزون عن عمال الفبارك والمصانع ، على البروليتاريا الحقيقية من الناحية الايديولوجية ومن ناحية افتقادهم للتضامن البروليتاري المتين.

ولهـذا لـم يكـن صدفـة ان تضرب البلشفيـة جذورهـا وسـط البروليتاريا بينمـا انتشرت المنشفية بين الحرفيين »

« في ذلك الوقت كـان وعيي السياسي لا يزا لمتخلفـا لكنني كنت استطيـع التمييز بيـن الصحف الثورية مثل « النجم » و« البرافدا » التي تعبر عـن مصالح العمال والفلاحين ، وبين الصحف التي تعبر عن مصالـح الرأسماليين سادة روسيـا القيصرية ، مثل « الكلمة الروسية » و« اخبـار موسكو » وعندمـا كنت ازور القريـة كنت اجـد لدي ما ارويه » .

بدايـة الحرب العالميـة

« تقترن بدايـة الحرب العالمية الاولى في ذاكرتي بتدميـر ونهـب المحلات الاجنبيـة في موسكـو . وتحت تأثير الدعاية تطوع كثير من الشبان للذهاب الى الجبهـة وخاصة الشبان الاثرياء . ومن بين هؤلاء كـان صديقي الكسندر (ابن خاله) الذي دعاني الى التطوع انا الاخر . وفي البداية اعجبتني الفكرة لكنني قررت استشارة فيودور ايفانوفيتش الذي كان صاحب اكبـر تأثير علي وبعد ان استمع الرجل الي قال :

انني افهم دوافع الكسندر ، فابوه ثري ولديه مـا يستحق الحرب مـن اجله لكن . .ما الذي يدفعك انت ايهـا الاحمق الى الحرب ؟ قد يكون مـن اجل ابيك الذي طـرد مـن موسكو قسرا ، وقد يكون من اجل امك التـي تتضور جوعا . سوف تعـود عاجزا قعيدا لا حاجة لاحد بك » .

اقنعتني كلمـاته بالعدول عن التطوع للحرب . وسبني الكسندر على تغيير موقفي ثم رحل هو الى الجبهـة ليعود بعد شهرين باصابة جسيمة » .

« في ذلك الوقت كنت لا ازال اعمل في الورشة واقيم لدي الارملـة ماليشيفا في مقابل فندق « موسكو » حاليا . وادفع لصاحبة الشقة ثلاثـة روبـلات في الشهر نظير السرير المخصص لي » .

« ووقعت في حب ابنة الارملة التي كانت تدعى « ماريا » واتفقنا علـى الزواج ولكن الحرب ـ كمـا هي العادة دائما ـ قضت على كل آمالنـا وتخطيطنـا للمستقبل . فنظرا للخسائر الفادحة في جبهة القتال تقرر في عام ١٩١٥ تجنيد مواليـد ١٨٩٥ وبذلك رحل الى الجبهة شبان لم يبلغـوا العشريـن من عمـرهم بعـد .

« وحل دوري ! لم اكن اشعـر بحماس خاص للحرب لكنني كنت اؤمن بانني اذا جندت لا بد ان اقاتل بشرف في سبيل روسيا .

الفصل الثاني

الخدمة العسكرية

ـ الاسرة والفقر ـ المدرسة والتفوق ـ الادب والثورة ـ الصبا والعمل ـ عهد الشيوعية ـ
ـ الحرب والحب ـ

« استدعيت للخدمة العسكرية في ٧ آب ١٩١٥ والحرب العالمية الاولى تدور على اشدها

« ووزعت على سلاح الفرسان فكنت بذلك في غاية السرور فقد كنت دائما معجبا بهذا النوع الرومانتيكي من القوات ووزع جميع رفاقي على سلاح المشاة فكانوا يحسدونني على حسن حظي »

ومن « مالوياروسلافيتس » رحلنا في قطارات شحن البضائع الى « كالوجا » وحينها شعرت بعمق لاول مرة بالوحدة والكآبة . كان هناك من يغني ، ومن يلعب الورق ، ومن يبكي شاكيا همومه لزملائه ، ومن يجلس صامتا يضغط على اسنانه بقوة ، ومن يثبت نظره على نقطة واحدة وقد استولى عليه التفكير في مصيره كجندي . وكنت اطرح على نفسي السؤال التالي: « هل انت مستعد لاداء الخدمة العسكرية الشاقة وهل تندفع الى القتال اذا تحتم ؟ » كانت حياتي السابقة قد صهرتني ، ولهذا كنت اعتقد انني سوف اؤدي واجب الجندي بشرف .

وفي اول طابور تساءل احد المجندين الى اين تقودنا ؟ورد العريف وكان

انسانا طيبا : ــ « نصيحة خذوها مني يا اولاد .. لا توجهوا مثل هذه الاسئلة للقيادة . على الجندي ان ينفذ الاوامر والتعليمات دون مناقشة. فالقيادة تعلم الى اين تقود جنودها » .

وفي تلك اللحظة سمعنا صوت القائد يدوي :

ــ الكلام ممنوع تماما .

ولكزني بكوعه صديقي الجديد سيفتسوف هامسا :

ــ ها هي الخدمة العسكرية بدات ! وعرفنا صف الضابط قائد الفصيلة بنفسه قائلا :

ــ انا قائد فصيلتكم المساعد ماليافكو . ارجو ان تكونوا قد فهمتم ما شرحه قائد الوحدة . وعليه فانكم سوف تخلصون في خدمتكم للقيصر والوطن . انا لا اطيق الخروج عن قواعد الضبط والربط .

« مر اليوم الاول ثقيل الوطأة على النفس ، ثم تعاقبت الايام على نمط واحد ممل ، وكان من الصعب الانخراط في سلك الجندية ولكن قسوةالحياة علينا من قبل جعلت الاكثرية نعتاد الحياة العسكرية في غضون اسبوعين»

« وفي ايلول ١٩١٥ رحلنا الى اوكرانيا للانضمام الى كتيبة الفرسان الخامسة الاحتياطية كانت معسكرة في محافظة خاركوف » .

« وظهر ان الخدمة في الفرسان اكثر اثارة من الخدمة في المشاةولكنها اشق فبخلاف التعليم العام يجري التدريب على اعمال الخيالة واتقان السلاح الابيض الخ .. وكان علينا ان نستيقظ في الخامسة وليس في السادسة كما هو الحال في المشاة ، وان نخلد الى النوم بعد ساعة مما هو متبع في المشاة ، وكان امتطاء صهوة الجواد اشق تدريب .. حتى ان كثيرين اراقوا دماءهم دون ان يظهروا الشكوى ، فقد كان كل ما يقال هو « اصبر ايها القوزاقي » وتحلى الكثيرون بالصبر حتى خضعت لهم الجياد » .

« كان قائد فصيلتنا المساعد دوراكوف ــ بالرغم من لقبه ــ اللقب مشتق من لفظ « غبي » بالروسية) انسانا ذكيا وطيبا . كان قائدا شديد الصرامة لكنه لم يكن يلجا ابدا الى اهانة الجنود . بينما كان مساعد القائد على العكس من الاول تماما اذ كان عصبيا فظا نزقا . وقد ذكر الجنود القدامى انه قد حطم سنان كثير من المجندين وذات مرة تربصنا به حتى وجدناه في ركن منزو واسدلنا عليه غطاء خيمته ثم انهلنا عليه بالضرب المبرح حتى لا يتبين اشخاصا . وبعد ذلك توقعنا ان نقدم جماعيا الى محكمة عسكرية ميدانية لكن دوراكوف حين عاد الى مركز قيادته سوى الامر وتوصل الى ابعاد مساعده ».

« في ربيع ۱۹۱٦ كنا قد اتممنا تدريبنا واحطنا علما بانه سيجري تشكيل سرية خيالة مقاتلة لترسل الى الجبهة . وحل محلنا المجندون الجدد من مواليد ۱۸۹۷ ».

« ومن بين اكثر الجنود تدريبا وقع الاختيار على ثلاثين فردا لاعدادهم كصف ضباط . وكنت انا واحدا من هؤلاء .

لم اكن راغبا في الانضمام الى هذه المجموعة التعليمية ولكنني نزلت على ارادة قائد الفصيلة الذي كنت اشعر نحوه باحترام مخلص لرجاحة عقله واستقامة خلقه وحبه للجندي »

ـ لا تزال الفرصة امامك واسعة للذهاب الى الجبهة يا عزيزي ولكن عليك قبل ذلك ان تدرس العلم العسكري على نحو اعمق . سوف يفيدك ذلك مستقبلا وانا واثق من انك سوف تكون صف ضابط ناجح ..

ثم فكر قليلا واضاف :

ـ انا مثلا لا اتعجل الذهاب الى الجبهة . فخلال عام في الخطوط الامامية ادركت جيدا ما هو الوضع وفهمت الكثير . فالمؤسف والمؤسف جدا ان يموت شعبنا هكذا .. ولاي شيء ؟ اني اتساءل .

وفي اثناء الفرقة التعليمية كان اقدم صف الضباط في غايةالرزالة والسخف والعجرفة . انا اذكر فقط ان الجنود كانوا يطلقون عليه « ابو اربعة ونصف » وذلك لان احدى اصابع يده اليمنى كانت مبقورة » ولكن هذا لم يمنعه من توجيه الكلمات القوية التي تطرح الجنود ارضا . وكان « ابو اربعة ونصف » يضطهدني بشكل خاص لكنه على اي حال لم يجروء على رفع قبضته في وجهي . كنت اعلم ان ايذاءه المستمر لي انما يعكس تخلفا ذهنيا بشما ، ونفسية شريرة منحطة ، لكنني كنت سعيدا لانه لم يكن يجد الفرصة للاحتكاك بي في اثناء الدروس .

وحين فشل في اخذي بالعنف لجأ الى تغيير تكتيكه ازائي فاستدعاني ذات يوم احد الى خيمته وقال لي :

ـ انا ارى انك شاب ذو شخصيةقوية، ومتعلم ، وذو قابلية لاستيعاب العلم العسكري ، ولكنك موسكوني وعامل فما هي حاجتك الى انهاكنفسك في الدروس العسكرية سوف اتخذك كاتبا شخصيا لي تملأ تقارير التدريب نخلافه .

فاجبته : ـ انا لم التحق بالفرقة التعليمية لكي اكون كاتبا وانما

لكي ادرس العلم العسكري بالتفصيل ولكي اصبح صف ضابط . فاستشاط « ابو اربعة ونصف » غضبا وقال متوعـدا .

ـ الايام بيننا وسوف ترى كيف سافعل المستحيل حتى لا تصبح صف ضابط في يوم من الايام .

اقترب موعد الامتحان ولم يكـن احد من زملائي يشك في انني سأكـون اول الدفعـة وساحصل بالتالي على اول رتب صف الضباط بينما كـان بقية الناجحين يحصلون على رتبـة مساعـد صف الضباط . وذلك تقديـرا للاول على دفعته ولكن ظنون الجميع خابت وحقق ابو اربعةونصف وعيده فلذا هـو قبل الامتحان باسبوعين يعلن في الطابور قرار فصلي من الفرقـة لسوء السلوك وعدم احترام القيادة المباشرة « غير ان الصدفة » البحتة تدخلت لتصحيح الوضع . فقـد كان معنا في الفرقة متطوع ابلـغ الواقعـة الى الضابط قائـد المدرسة ، الذي استدعاني وحقق معي ثـم انصفني بالغاء قرار الفصـل .

ـ اذهب الى فصيلتك واستعد لاداء الامتحان .

الا ان الاولوية لم تكن من نصيبي بل من نصيب هذا المتطوع وتخرجت انا برتبة مساعـد صف ضابط تماما كبقية الجنود .

وانني الان اذ اقيم الفرقة التعليمية لصف الضباط في الجيش القديم لا بد ان اقر بان مستوى التعليم كان جيدا بشكل عام وخاصة في ما يتعلـق بالتشكيلات ، فقـد كان كل خريج يجيد اجادة تامـة اعمـال الفروسيـة واستخدام السلاح واسلوب اعداد المقاتل . وليس صدفة ان كثيرين من صف ضباط الجيش القديم قد اصبحـوا بعـد ثـورة تشريـن اول من خيرة قادة الجيش الاحمـر .

ومن الناحيـة التربويـة كانت القسوة هي الاساس . فلم يكن طلاب فرقة ضباط الصف يتدربون على التعامل الانساني مع الجنـود ولا علـى الدخول الى اعماق الجنود . كان الهدف الوحيد هو خلق جندي مطيـع طاعـة عمياء . كـان الانضباط العسكري مبنيا على القسوة . ورغـم ان اللوائح العسكريـة لم تكـن تبيح العقاب الجسماني الا ان ذلك النوع كـان شائعـا على اوسع نطاق .

* * *

ما اكثر ما كتب عـن الجيش الروسي لكنني اريـد ان اتوقف فقط عنـد نقاط تبدو لـي هامـة .

ما هي اكثر الملامح تمييزا للجيش القيصري القديم ؟
اول شيء هو عدم وجود وحدة او تلاحم بين جماهير الجنود وبين كبار الضباط .

وعلاوة على ذلك فان الجهل المتفشي بين الجنرالات وكبار الضباط بالتكتيك وادارة العمليات - فيما عدا حالات فردية - ادى الى ان فقد هؤلاء القادة احترام الجنود لهم . اما الضباط ذوو الرتب المتوسطة فقد كانت غالبيتهم - وخاصة قبيل انتهاء الحرب - قريبة الى الجنود بروحها ومزاجها . وكان الجنود يشعرون ازاء هؤلاء القادة بالحب والثقة والحماس في اطاعة الاوامر ملقين بانفسهم في الماء والنار .
ويجب القول بان ضباط الوحدات كانوا يعتمدون تماما على صف الضباط في تعليم وتربية الجنود . ولا شك ان تلك الثقة قد ادت الى تنمية روح الاستقلال ، والمبادأة ، وتحمل المسئولية .

وتدل تجربة اعوامي الطويلة على انه حيث تختفي الثقة بصغار القادة ، وحيث تفرض عليهم وصاية مستمرة من قبل الضباط الكبار ، لا يمكن مطلقا خلق قيادات حقيقية في المستويات الصغيرة ، وبالتالي لا يمكن مطلقا خلق تشكيلات جيدة .

في اوائل آب وصل امر من قيادة اللواء بتوزيع خريجي الفرقة على السرايا . فصدر امر الى ١٥ فردا بالتوجه مباشرة الى الجبهة للالتحاق بفرقة الفرسان العاشرة وكان ترتيبي الثاني بين هؤلاء المقاتلين ولم ادهش لذلك فقد كنت اعلم ان « ابو اربعة ونصف » وراء هذا الاختيار .
وانطلقنا في مسيرة طويلة . وفي الصباح الحارث على موقعنا طائرة استكشاف معادية فاعلنت اشارة التحذير من الغارة الجوية واختبأ كل شخص كيفما اتفق له ودارت الطائرة فوق رؤوسنا ثم اتجهت غربا ملقية بعض القنابل الصغيرة . ونتيجة للغارة اصيب احد الجنود اصابة قاتلة كما اصيب خمسة جياد بجراح .
كان هذا هو اول تعميد قتالي لنا .
وفي تشرين الاول عام ١٩١٦ جرحت في اثناء قيامي بصحبة زميلين بدورية استطلاعية تعثرنا في اثنائها بلغم ادى انفجاره الى اصابة الرفيقين اصابة مباشرة والى وقوعي من على صهوة الجواد . وقد عدت الى وعيي بعد يوم كامل في المستشفى ثم رحلت بعد ذلك الى خاركوف للاستشفاء حيث مكثت بها حتى تشرين اول .

انتقلت من السرية الى الفرقة التعليمية جنديا شابا ولكنني عدت بلقب صف ضابط ، وتجربة ميدانية ، وميداليتي صليب جيورجي لتمكني من اسر ضابط المآني ولاصابتي في اثناء القتال .

« وفي محادثاتي مع الجنود فهمت انهم لا يتحرقون رغبة في شم رائحة البارود .

ورغم انني كنت من صف الضباط فقد كان الجنود يثقون بي ويناقشونني في امور جدية . وبالطبع كان فهمي وقتها محدودا للقضايا السياسية ، لكنني على كل حال كنت موقنا بان البلاشفة وحدهم وليس سواهم هم الذين يستطيعون ان يقدموا السلام والارض والحرية للشعب الروسي .

وذلكما حاولت ان اروجه بين جنودي على قدر ما استطعت » .

ولقد كافاني جنودي ، وذلك على النحو التالي :

في الصباح الباكر اعلنت حالة الطوارىء على السرية دون سبب مفهوم والتقيت بالملازم كيفسكي قائد الفصيلة فسألته :

ـ لماذا يجري جمعنا يا صاحب النبالة .

فرد على سؤالي بسؤال :

ـ وانت .. ماذا تظن ؟

فقلت له ان الجنود لا بد ان يعرفوا الى اين يساقون خاصة وقد وزعت عليهم الذخيرة .

ـ لا بأس فهي قد تفيد .

وانقطع حوارنا لمجيء قائد الكتيبة البارون فون دير جولتس الذي كان قائدا حائزا على كثير من ميداليات واوسمة الكفاءة العسكرية لكنه كان مكروها جدا من الجنود .

وامر قائد الكتيبة بالتشكيل ثلاثات ثم التحرك الى مدينة بلاكل حيث كان يوجد مقر قيادة لواء الفرسان الخامس الاحتياطي وهناك رأينا ان قوات اخرى قد سبقتنا . وبسرعة انطلق البارون فون دير جولتس الى داخل مبنى القيادة فتبعه على الفور قادة الكتائب الاخرى .. لم يكن احد يفهم فيم الامر .. ولكن سرعان ما انضحت الحقيقة اذ ظهرت مظاهرة تحمل الرايات الحمراء . وخرج من مبنى القيادة عسكري طويل القامة اخذ يعلن بصوت جهوري ان الطبقة العاملة والجنود والفلاحين في بلادنا لا يعترفون منذ اليوم بالقيصر نيكولاي الثاني ولا بالراسماليين والاقطاعيين : فالشعب الروسي يرفض محاولة الحرب الاستعمارية الدامية . انه في حاجة الى

السلام والارض والحرية . انهى المتحدث العسكري خطابه القصير بتعارات: «تسقط القيصرية » ، « تسقط الحرب » ، « عاش السلام بين الشعوب » « عاشت سوفيتات ممثلي العمال والجنود » !

(كلمة سوفيت تعني بالروسية مجلس ثوري) .

وبدون ايـة اوامر ادرك الجنود بحسهم الثوري ما الذي ينبغي عليهم عمله فاختلطـوا بالمتظاهرين ورددوا هتافاتهم تم اعلن عن تكـوين سوفيتات الجنود في الوحدات ونم انتخابي رئيسا لسوفيت السرية . وتم القبض على البارون فـونديز جولتس وغيره من القادة الذين كانوا يشكلون خطرا علـى الثورة وتم تصعيدي والملازم كيفسكي لعضوية سوفيت الكتيبة .

وبعد ذلك اصدرت اوامري بتسريح الجنود بعد توزيع الاسلحة والذخائر عليهم واختبأت بعض الوقت في بلاكل .

***

وفي كانون الاول ١٩١٧ عدت الى قريتي وفقط في آب ١٩١٨ تمكنت من تحقيق رغبتي في الانضمام الى صفوف الجيش الاحمر فالتحقت متطوعا بلواء الفرسان الرابع التابع لعرقـه فرسان موسكو الاولى .

في البدايـة كان الجيش الاحمر يتشكل فقط من المتطوعين ثم قررت الحكومة السوفيتية تدريب كافة العمال من سن ١٨ الى ٤٠ على استخدام السلاح واعتبارهم تحت الطلب . وحين التحقت بالجيش الاحمـر كـان تعداده قد وصـل الى قرابة نصف مليون . وفي عام ١٩١٨ الحاسم فـي تاريخ الثورة ارسى الحزب البلشفي بقراراته العسكرية العديدة ونشاطـه العملي الواسـع اسس القوات المسلحـة السوفياتية .

الفصل الثالث

الاشتراك في الحرب الاهليـــة

ـ الثورة المضادة ـ الحرب الاهلية ـ العدوان المسلح ـ الحزب والشعب والجيش ـ انتصار الثـورة ـ

كانت الحكومة القيصرية قد قادت البلاد الـى الافلاس التام ثم ازداد الوضع سوءا باستيلاء قوات الغزو الاجنبـي والحرس الابيض المتمرد على مناطق اقتصاديـة في غايـة الاهميـة .

وفي منتصف ١٩١٨ كانت قوات الحرس الابيض والغزو الاجنبي تبلغ ما يعرب مـن مليـون جندي وضابط على مستوى عصري من ناحية التدريب والتسليـح .

ولكي نفهم كيف تمكـن الجيش الاحمر من الحاق الهزيمة بالعدو الذي كـان يتفوق عليه في التسليح والتدريب لا بد من مراعاة الروح الوطنيـة المتاججة والصفات الفريـدة المعنوية والسياسية التي كانت تتحلى بهـا قوات العمال والفلاحين الذيـن يدافعـون عن حريـة واستقـلال وطنهـم الاشتراكـي الجديـد .

في ربيـع ١٩١٩ نظم الغزاة الاستعماريون حملة موحدة ضد السلطة السوفيية تضم قوات الولايات المتحدة وفرنسا وبريطانيا واليابان وايطاليا

وتشيكوسلوفاكيا وعددا من الدول الاخرى ، وكانت قوات الجيش الاحمر في هذا الوقت تضم مليونـا و٨٠٠ الف جندي .

ونظرا لعدم كفايـة الخامـات والقوى العاملـة تعطل الكثير من المصانع والفبارك . واصبحت مشكلـة امداد الجيش الاحمر بالمؤن والذخيرة مسالة في غايـة الصعوبة . وكثيرا مـا كـان يجري نقل المؤن من منطقـة الـى اخرى حيث كـان يتحدد مصير البلاد .

« في اول اذار ١٩١٩ قبلت عضوا بالحزب الشيوعي الروسـي (البلشفي) . منذ ذلك التاريخ سقط الكثير مـن الذاكرة ولكن اليوم الذي حصلت فيه على عضويـة الحزب ظل في ذاكرتي طول العمر . فمن هـذا الحيـن وانـا احاول اخضاع كل تفكيري وطموحي واعمالي لواجبات عضو الحزب وعندمـا وصل الامر الى خوض القتال ضـد اعداء الوطن كنت دائما اذكـر مطالبة الحزب لعضوه بـان يكـون قدوة للتفاني فيخدمة شعبه » .

خاض زوكوف كثيرا من المعارك حتى جرح بشظايا قنبلة يدوية فـي جنبه الايسر وساقه اليسرى . تم ترحيله على اثرهما الى المستشفى . وبعـد قيامه باجازة لمدة شهر عاد الى قيادته مطالبا بترحيله فورا الى ميدانالقتال ولكـن الاوامر صدرت له بالالتحاق بقوات الاحتياط مؤقتا الى حيـن بدا الدراسـة في مدرسة « القـادة الحمر » بمحافظـة ديزانسك في كانـون الثاني ١٩٢٠ .

« كان مستوى التعليم للدراسين غير كاف . ذلك انهم كانوا يختارون غالبا من بين العمال والفلاحين الذين كـان حظهم من التعليم قبل الثـورة محدودا جـدا . غير انه مـن الضروري ان اشيد بجديتهم في الدراسة شاعريـن بقصر مدة الدراسـة وطول البرنامج ومدركين خطورة المسئوليـة الملقـاة على عاتقهم كقـادة حمـر » .

« وانتهت الدورة الدراسية في موسكـو حيث كان لي اصدقاء كثيرون اتوق الى رؤيتهم قبل توجهي الى الجبهة ، وبصفة خاصة كنت حريصا على لقاء تلـك التي قاسى في حبهـا القلب الغني . ولكنني للاسف لم اتمكـن من زيارة احـد . فغالبـا ما كـان القاده يضطرون الى التغيب فى ماموريات هامة مع تكليفي بالقيام باعمـال القائـد نظـرا لانني كنت رئيس الدورة . وهكذا اضطررت الى الاكتفاء بارسال خطابات الى معارفي . ولست ادريان كـان هـذا ام غيره من الاسباب هو الذي ادى الى فسخ خطوبتنا وفيمـا بعـد علمت ان ماريـا قد تزوجت ومن حينها لم يحدث قط ان التقينا » .

واذكر ان مفوض الكتيبة زار سريتنا واقترح علينا العمل لعدة ايام في ترميم بيوت الفلاحين الفقراء واسر جنود الجيش الاحمر فرحبنا باقتراحه. واخذ المفوض على عاتقه اشق عمل وهو تطهير البئر العمومية التي كانت عصابات الحرس الابيض قد القت فيها شتى القاذورات وكانت البئر عميقة الى حد كبير . وحين نزل المفوض الى القاع كاد يختنق لولا ان هرع الجنود لانتشاله . وحين خرج لاهث الانفاث امر بانزاله ثانيا . ومن جديد انتشل ... وظل على هذه الحال حتى تمكن في اخر الامر من تطهير البئر . وفي المساء كانت القرية كلها تشيد برجولة المفوض . ولم يخل الامر من مصادفات طريفة فقد كلفت مجموعة من الرفاق بترميم حظيرة احدى الارامل الفقيرات واخيرا ىبت ان المجموعة قد ادت هذا العمل في بيت اسرة ترية تحمل نفس لقب الارملة الفقيرة » .

وفي ختام هذا الفصل الحافل بذكريات عن المعارك التي اشترك فيها ضد الغزاة الاجانب وقوات الحرس الابيض وعصابات الاقطاعيين يقول المارشال زوكوف :

« مرت اعوام كثيرة . وطوى النسيان كثيرا من صفحات المصاعب التي واجهت شعبنا في خلال الحرب الاهلية ولكن شيئا واحد لا يمكن ان ينسى ، وهو ان كل مقاتل كان يؤمن ايمانا راسخا بعدالة الافكار التي نادى بها حزب لينين في ايام ثورة تشرين الاول ».

* * *

في تلك الفترة كتب الجنرال البريطاني نوكس الى حكومته يقول انه من الممكن انزال الهزيمة بالمليون معاتل الذين يشتركون في جيش البلاشفة.. ولكن طالما ان المائة والخمسين روسيا لا يريدون البيض بل يريدون الحمر فانه لا معنى اطلاقا لمساعدة البيض .

« لاسباب كثيرة كان من المستحيل على الجيش الاحمر ان يلتزم بخبرة الحروب السابقة بما فيها الحرب العالمية الاولى التزاما كاملا . فللنضال ضد اعداء الدولة السوفييتية الفتية كان لا بد من خلق تنظيم عسكري خاص ذي طابع طبقي متميز وتسليحه بنظرة جديدة الى جوهر واساليب النضال .

وكما قال فلاديمير ايليتش لينين فان « اي ثورة لا تساوي شيئا ما لم تكن قادرة على حماية نفسها » .

ولقد لعب الحزب ولجنته المركزية ولينين شخصيا الدور الحاسم

في تنظيم الدفاع عن الوطن وتوحيد كافة قوى الجبهة والمؤخرة ،وتعبئة جماهير العمال وجنود الجيش الاحمر ، والفلاحين في النضال ضدالغزاة والثورة المضادة في سنوات الحرب الاهلية وهو ما مكن للشيوعية من النصر على العدو » .

ومع ذلك فان لينين واللجنة المركزية لم يحلا محل القيادة العليا والمجالس الثورية في قيادة العمليات التي قامت بها جبهات وجيوش ووحدات الجيش .

كان المجلس الثوري العسكري للجمهورية كما كانت المجالس العسكرية للجهات والجيوش تسترشد في عملياتها بقرارات اللجنة المركزية للحزب الشيوعي الروسي « البلشفي » وكذلك كان تعيين القادة والمفوضين في المراكز الرئيسية ، وتدعيم القدرة الدفاعية للجمهورية يجري وفق مقررات اللجنة المركزية .

لقد كان دور الشيوعيين داخل الجيش اقرب ما يكون الى دور الاسمنت في البناء . وقد قامت اللجنة المركزية مرارا بعمل تعبئة حزبية لتدعيم المواقع الحساسة من الجبهات بالشيوعيين . ففي تشرين اول١٩١٨ كان عدد اعضاء الحزب في الجيش الاحمر يبلغ ٢٥ الفا وبعد عام واحدارتفع العدد الى ١٢٠ الفا وفي آب ١٩٢٠ وصل العدد الى ٣٠٠ الف اي حوالي نصف العدد الكلي لاعضاء الحزب فيهذا الوقت .

ان النشاط الوطني والقتالي للشيوعيين الجنود ، والمفوضينوالمسئولين السياسيين والخلايا الحزبية قد كان العامل الاساسي في ارتفاع الروح المعنوية والوعي السياسي للجيش الاحمر .

يقول ميخائيل فرونزي في تقييم دور الجهاز الحزبي ـ السياسي للجيش في سنوات الحرب الاهلية : من الذي ادخل النظام والانضباط في صفوف كتائب الجيش الاحمر الفتية والتي كانت تتكون في ظروف القصف المدفعي العاصف ؟ من الذي كان في وقت الهزيمة والفشل يقوى رجاله واستبسال المقاتلين ويزودوهم بطاقات جديدة كلما تخلخلت صفوفهم ؟

من الذي كان يتولى شئون الجبهة الداخلية ويرسى دعائم الحكم السوفييتي ليكفل بذلك سلامة ونجاح تحركات الجيش الى الامام . من الذي تمكن بعمله الدوءب المثابر من تفريق صفوف العدو وتخريب خطوطه

الخلفيـــة مهيئا بذلـــك الظروف لتحقيق الانتصارات الحاسمة ؟ ان منظمات الجيش السياسية هي التي ادت هذه المهام ولا بد من القول انهـا قد ادتها على خير وجه ، ان فضلهم السابق لا يمكن تقديره » .

* * *

ويعلق المارشال زوكوف قائلا : « ليس في وسعي الا ان اوقع الف مرة بالموافقـة على هذه الكلمـات الرائعة وان اشهد بصحتها الكاملة » .

« ان الشعب والحزب لم ينتصرا فحسب على العدو في الحرب الاهلية، بل ارسيـا في غمـرة النضال قواعـد جيش نظامي جماهيري يتكون علـى اساس الخدمة العسكريـة الاجباريـة للكادحين . فقـد تكونت اجهـزة القيـادة العسكريـة المركزيـة والمحلية ، ووضعت اللوائح والقوانين الاولى، وتم توحيـد التشكيلات والوحدات المقاتلة ، وفي نهايـة عام ١٩٢٠ كان تعداد جيشنا يبلـغ ٥،٥ مليـون جندي رغم انـه كـان قد فقـد حوالي ٨٠٠ الف بين قتيل وجريح ومفقود وقرابة مليـون و٤٠٠ الف من الشهداء الذين اودت بحياتهـم الامراض الناجمـة عن قلة الغذاء ، والدواء والكساء ، وسوء الرعاية الطبيـــة » .

ومن واقـع التجربة العسكريـة الطويلة والاستنتاجات النظرية المتعلقة بعصر الحرب الاهليـة والتي تم على هديهـا بناء القوات المسلحة السوفييتية، اود ان اتوقف عند النقاط التاليـة :

اولا وحدة الجيش والشعب : وهي التي ولدت قوة جبارة تفوق بكثير قوة السلاح . وقد كـان لينين يرى المصدر الرئيسي لهذه القوة في انـه لاول مـرة في التاريخ يوجـد جيش يعرف لماذا يحارب ولاول مرة في التاريخ تحمل العمال والفلاحـون اقسى المحن مدركين انهم يدافعون عن الجمهورية السوفييتية والاشتراكيـة ،عن سلطـة العمال والفلاحين .

وثانيا : الدور القيادي للحزب في القضايـا العسكرية المباشرة كما في التأثيـر على الجيش من خلا الجهاز الحزبي السياسي : ومن الناحيـــة العسكريـة فـان لقيادة الحزب الشيوعي اهميـة عظمى نظرا الى انه هـو الحزب الحاكم في دولة تقوم على الملكيـة العامة لوسائل الانتاج. وبفضـل ذلك يمكـن حشد كافـة قوى وموارد الاقتصاد الوطني الى ابعد الحدود مشيا مع الاتجاهات العسكريـة وبفضل ذلك الوضع ايضا تتاح امكانيات غير محدودة لحريـة استخدام الموارد الماديـة والبشرية ، وتطبيـق سياســة عسكريـة موحـدة . واخضاع الجميع ، وكل على حدة لتلبيـة المتطلبات العسكريــة .

ومن ناحيــة العمل الحزبي السياسي فبفضلهتتحقق وحدة ووضوح الهدف بالنسبة لجميع العناصر الثوريــة الواعية في الجيش والاسطول . كما يتضاعف عدد هذه العناصر الباسلــة وتتكــون قاعــدة عريضــة للبطولــة الجماعيــة .

وكما يقول لينين :« ان المعجزة التي تحققت لم يكن مــن الممكــن ان تتحقق لولا ان الحزب كان في غايــة اليقظــة والانضباط ، ولولا ان الحزب استطاع التنسيق بيــن جميع المؤسسات والتنظيمات العسكرية ، ولولا ان اللجنــة المركزيــة استطاعت تطبيق الشعار الذي اعلنته « الكل كفرد واحد» والحقيقة ان العشرات فالمئات فالالوف فالملايين قد هبت كفرد واحدوقدمت تضحيــات لا مثيل لها . لولا ذلك لمــا احرزنا النصر رغم الحملات المتكررة التي شنتهــا قوات الدول الامبرياليــة المتحالفة » .

وثالثا : فانني اود ان اتناول احد مبادىء بناء قواتنا المسلحة وهو مبدأ المركزيــة المطلقــة ، ووحدانيــة القيادة والانضباط الحديدي . خاصة ان المعارضيــن من مختلف الالوان قد انتقدوا المرة بعد المرة هذا المبدأ

يقول لينين : « ان عدم توحيــد القيادة في المجال العسكري يؤدي حتما وفي كل موقع الى الكارثة والفوضى ، والذعر ، وتعدد السلطات والهزيمة » .

ونظرا للظروف التاريخيــة كــان من الصعب في بدايــة سنوات الثورة تطبيــق مبدأ « وحدانية القيادة » ولكــن هذا المبدأ اللينيني اصبح سائــدا فيمــا بعد كاحــد الاسس الرئيسيــة التي يقوم عليها بناء القوات السوفييتية الــى جانب تزايــد اهميــة دور المنظمــات الحزبية والسياسية . وبالاضافة الى الانضباط الحديدي القائم على الفهم والادراك العميق من جانب الجندي لواجبه في الدفاع عــن الوطن ، تصبح « وحدانية القيادة » ضرورة حيوية لخلق وحدة وتلاحم وارادة وتصميم القــوات المسلحة .

وفي كل فترة تاريخيــة مر بهــا الوطن كان بناء القوات المسلحة يكتسب ملامــح جديدة تزيــد من قوته واستعداده للتصدي للعدوان .

ان التجارب والمبادىء العسكريــة التي استخلصت من نيران الحرب الاهليــة قــد تطورت في الثلاثينات والاربعينات لتصبح جزءا لا يتجزأ من جبروت هذا الجيش الذي سحق الفاشية في الحرب الوطنية العظمى (الحرب العالميــة الثانيــة) .

الفصل الرابع

قيـــادة كتيبـــة فلـــواء

ـ اعادة بناء القوات المسلحة ـ العمل السياسي في الوحدات ـ القيادة العسكرية بيـن الجمود والتطور ـ ميـلاد قائـد جديـد ـ

يصف المارشال زوكوف اوضاع روسيا في اعقـاب الحرب الاهلية وحالة الدمار والتدهور الاقتصادي وتعطـل وسائل المواصلات الخ .. وما ادى اليه ذلك مـن ضرورة حشد كافـة طاقات البلاد على جبهة البنـاء الاقتصادي . وبينما كانت الضرورة تقتضي تخفيض عدد القوات المسلحة واعتماداتهـا : كانت الضرورة ايضـا تقتضي تقوية الدفاع الوطنـي . وهـو يستشهد بتعبير لينين :

« اننـا الان قد فرضنا على عدد من الدول الكبرى ان تتخلى عـن خوض الحرب ضدنـا .. ولكن الى متى يستمر هذا الوضع .. نحـن لا نستطيع ان نقطع براي » .

وفي نهايـة عام ١٩٢٤ كان تعداد القوات المسلحة قد انخفض من٥،٥ مليـون الـى ٥٦٢ الفـا .

كان التسريح بالطبع يتجاوب مع مصالح ملايين الجنود الذين طـال حنينهم الى الحقول والآلات والعودة الى اسرهم وكان مـن الصعب جدا ابقاء

جنود محترفين . والواقع انه لم يبق في صفوف الجيش العامل غير اولئك الذين كانت مواهبهم وميولهم الشخصية تؤهلهم لتكريس حياتهم للعمل العسكري .

« من حزيران ١٩٢٢ الى اذار ١٩٢٣ كنت اعمل قائدا لسرية في كتيبة الفرسان الثامنة والثلاثين ثم مساعدا لقائد كتيبة الفرسان الاربعين التابعة لفرقة الفرسان السابقة في مدينة سمارسك . كان على رأس هاتين الكتيبتين قادة محنكون تعلمت منهم الكثير . وكان هناك تعاون وتآلف تامان بين القيادة والجهاز السياسي والتنظيم الحزبي.

« كنا نعيش في اماكن متفرقة لدى الفلاحين في القرى المجاورة ونطهى الطعام في مطابخ الميدان المتنقلة ، ولم تكن لدينا نواد او خلافه ولكننا في ذاك الوقت كنا نعتبر هذه الظروف عادية تماما في ظل الاوضاع القاسية التي كانت تسود الوطن .

وقد كان معظم القادة من الشبان الاصحاء الممتلئين تحمسا وطاقة وصلابة وعلاوة على ذلك فقد كان معظمنا غير متزوج وبالتالي فليست لديه اية اهتمامات اخرى خارج نطاق الخدمة . ولم تكن ندخر جهدا في اداء الواجب حتى لقد كنا نعمل في اليوم بمعدل ١٥ ــ ١٦ ساعة .ومع ذلك لم يكن الوقت يتسع لانجاز جميع الواجبات .

وفي ربيع ١٩٢٣ استدعيت الى مقر قيادة الفرقة . لا انكر انني شعرت ساعتها بالقلق ، والخوف من ان اكون قد ارتكبت خطأ ما . لكن قائد الفرقة استقبلني بترحاب وقدم لي الشاي ثم بدأ يسألني عن الاستعداد التكتيكي والقتالي في فرقتنا .. وفجأة سألني :

ــ ما هو تصورك لمدى استعداد قوات الفرسان لدينا لخوض حرب المستقبل . وما هو تصورك لحرب المستقبل .

كان السؤال يبدو لي صعبا فاحمر وجهي ، وعجزت عن اعطاء الرد على الفور . ولحظ القائد ارتباكي فأمهلني حتى استجمعت تفكيري المشتت.

ــ نحن القادة ليست لدينا المعارف والخبرات الكافية لتعليم قوات باسلوب عصري . فنحن نعلم مروسينا على النحو الذي علمونا اياه في الجيش القديم .

ولكي نحسن اعداد القوات من كافة النواحي لا بد من تسليح القادة انفسهم بالمفاهيم العصرية للفن العسكري .

ـ ذلك صحيح ... ولكن حتى تتهيأ الظروف المناسبة لا بد ان يعتمد القادة على التثقيف الذاتي .

وفي هذا اللقاء انباني قائد الفرقة بقرار تعييني قائدا لكتيبة الفرسان التاسعة والثلاثين .

وعند وداع القائد لفني شعور بالزهو والمسئولية ، فقيادةالكتيبة تعد دائما اهم مرحلة في اتقان الفن العسكري . فالكتيبة هي الوحدةالقتالية الرئيسية حيث يتطلب تنظيم القتال تنسيقا للجهد المشترك من جميع انواع القوات البرية بل وقوات اخرى غير برية كما يقتضي الامر في بعض الاحوال .

وفي رأيي ان قائد الكتيبة الذي ينجح في الاحتفاظ بقواته في حالة الاستعداد الدائم للقتال ويبرع في قيادة كتيبته سوف يكون دائما قائدا طليعيا في جميع مراحل القيادة الاعلى في وقت السلم والحرب على السواء .

***

عندما استعيد الماضي يبدو لي كل شيء عاديا . لكن الامر كان يختلف تماما في حينه .. ففي السادسة والعشرين من عمري اصبحت قائد كتيبة انا الذي انهيت مدرسة ضباط الصف في الجيش القيصري وفي الجيش الاحمر انهيت فرقة اعداد القادة الحمر . هذا كل ما هناك والحقيقة انني بانتهاء الحرب الاهلية اخذت بمنتهى الجدية ادرس كل ما تصل اليه يدي من الكتب العسكرية وخاصة تلك المتعلقة بالتكتيك.

ـ كنت من الناحيه العملية اشعر بان خبرتي لا بأس بها ولكنني من الناحية النظرية كنت اشعر بتخلفي عن المستوى اللائق بقائد كتيبة. وحين تأملت هذا الوضع لم يطل بي التفكير حتى اهتديت الى انه لا يجوز تضييع الوقت بل يجب ان استميت في تنمية ثقافتي العسكرية ورغم انني في ذلك الوقت كنت اعمل بمعدل ١٢ ساعة في اليوم لرعاية القوات التي تحت قيادتي ، فقد اضفت الى برنامج حياتي اليومي ٣ ـ ٤ ساعات للدراسة . وكنت ارى ان وقت الراحة سوف يأتي فيما بعد .

ويروي المارشال زوكوف كثيرا عن لقاءاته اثناء المناورات والتدريبات بالقواد البارزين في ذلك الوقت من ابطال الحرب الاهلية المشاهير من طراز حاي وتوخاتشفسكي ، وبلوخير واوردجينكيدذي وفرونزي وبوديوني ، وبجوروف وقد اشادوا جميعا بكفاءة الوحدة واخلاص افرادها قادة وجنودا

وهو يشير دائما الى الاهتمام الشديد الذي كان يبديه القادة براحة الجنود وطعامهم واقامتهم وتنمية ثقافتهم .

ويروي كيف استدعاه قائد الفرقة واخبره بترشيحه للدراسة في مدرسة الفرسان العليا في لينفراد ، وكيف ادى الامتحان وكان من زملائه في الدفعة راكاسوفسكي ، وباجراميان ، وبريمنكو واخرون من قادة الكتائب الذين اصبحوا فيما بعد من المع قادة الاتحادالسوفييتي في الحرب العالمية الثانية .

« كمعظم زملائي في الدفعة كنت ارى لينفراد لاول مرة . وقد تعرفنا على معالم المدينة بمنتهى الشغف ، وتجولنا في المناطق التي شهدت احداث تشرين الاول ١٩١٧ ، هل كان يمكن في هذا الوقت ان يدور بخلدي انني بعد سبعة عشر عاما سوف اقود قوات جبهة لينفرادالتي دافعت عن مدينة لينين ضد القوات الفاشية ! » .

* * *

وفي خريف ١٩٢٥ انتهت الدراسة واتفق راي قواد الكتائب زوكوف وسافيليوف وريبالكين على القيام بمغامرة مثيرة لم يكن لها مثيل في ذاك الوقت في داخل الاتحاد السوفيتي او خارجه وهي القيام بسباق خيل جماعي لمسافة طويلة تبلغ ٩٦٣ كيلومترا وهي المسافة بين لينفراد ومقر قيادة القواد الشبان الثلاثة في مدينة مينسك . وكان املهم تسجيل رقم قياسي دولي ولقد قطعوا هذه المسافة في سبعة ايام رغم اصابة جواد زوكوف . واستولى السرور على الفرسان الثلاثة وهم يجدون الشعب والجنود ورئيس مجلس المدينة وقائد المنطقة العسكرية في استقبالهم بالرايات الحمراء ، والهتافات الحماسية الداوية ، اذ كانت اخبار الرحلة المثيرة قد وصلتهم من قيادة مدرسة الفرسان العليا في لينفراد .

وفي شتاء ١٩٢٦ استدعى زوكوف الى مقر قيادة فيلق الفرسان الثالث حيث احيط علما باختياره مفوضا سياسيا للكتيبة مع احتفاظه بمنصب القيادة . وكانت هذه أول واقعة من نوعها في فرقة الفرسان السابعة .

« وكنت في عملي التنظيمي والايديولوجي استعين بسكرتير لجنة الحزب ومساعدي للشئون السياسية . والحقيقة انهما لم يخجلا ابدا من توجيه النقد الحزبي لتصرفاتي واسداء النصح لي . فقد كنت نظرا لحداثة عهدي بهذه الوظيفة اقع في بعض الاخطاء . ومن هنا فقد كانت انتقاداتهما تفيد الصالح العام » .

« ولكي يتمكن كبار القادة من توجيه التربية السياسية لا بد ان يكونوا على قدر من الثقافة السياسية ارفع بكثير من مرءوسيهم . وفي تلك السنوات التاريخية كنا ـ نحن القادة العسكريين ـ ننمو في مجال الفكر العسكري اسرع بكثير من نمونا في فكرنا السياسي واستيعابنا لاسس النظرية الماركسية اللينية .

وفي ايار ١٩٣٠ عينت قائدا للواء الفرسان الثاني التابع للفرقة السابعة التي كان راكاسوفسكي قد عين قائدا لها منذ عام . ولقد اشرت من قبل الى ان قسطنطين راكاسوفسكي كان زميلي في مدرسة الفرسان العليا في لينغراد طوال عامي ١٩٢٤، ١٩٢٥ . ولقد كان يعاملني برقة وكنت انا بدوري اجل حنكته العسكرية وخبرته الكبيرة في الاشراف والاعداد القتالي والتربوي للقوات » .

لقد اضطلعت بقيادة الكتيبة التاسعة والثلاثين قرابة سبع سنوات كانت لي مدرسة قيمة تعلمت خلالها الكثير في مجال التكتيكات والعمليات والمعارف النظرية .. واذا كنت في وقت واحد قائدا عسكريا ومفوضا سياسيا ، فقد ادركت بعمق الدور القيادي التنظيمي لحزبنا في بناء القوات المسلحة وفي الحياة اليومية للوحدات » .

« بالطبع كانت لي اخطائي .. ولكن من ذا الذي لا يخطيء ؟ الا ان يكون من اولئك الذين لا يعملون الا بتعليمات من اعلى دون اظهار اي مبادأة ـ وفي رأيي ان المسألة ليست في الخطأ بل في سرعة ملاحظته وتلافيه » .

« كان البعض يلومني على صراحتي الشديدة التي كنت اعتبرها صفة لا غنى عنها للقائد البلشفي . وحين القي نظرة الى الوراء اجد انني بالفعل كنت اقسى مما يجب في بعض الاحوال وانني لم اكن دائما حليما وصبورا ازاء اخطاء مرؤسي فقد كنت افقد توازني ازاء هذا او ذاك من مظاهر افتقاد الضمير في عمل العسكريين او سلوكهم الشخصي ويبدو ان البعض لم يفهم ذلك كما انني لم اكن بما فيه الكفاية اغتفر الضعف الانساني » .

لا شك ان هذه الاخطاء قد اصبحت الان اكثر وضوحا لي ، فتجارب الحياة تعلم الكثير . غير انني للان اعتقد انه ليس لاحد الحق في الاستمتاع بحياته على حساب عمل الاخرين .. وعلى العسكريين بالذات ان يدركوا هذه الحقيقة فهم الذين سيتحتم عليهم قبل غيرهم ان يخوضوا المعارك في

ميادين القتال دفاعا عن الوطن دون ان يبخلوا بحياتهم » .

كان اللواء الذي عين زوكوف قائدا له يتكون من كتيبتين احداهما الكتيبة التي ترك قيادتها قبل ترقيته مباشرة ولهذا فهو يقول انه كان حريصا على عدم اثارة اية حساسية لدى وحدات الكتيبة الاخرى ، وانه بموضوعية قد ادرك مزايا ونقاط ضعف كل كتيبة وسعى جاهدا الى خلق الظروف المناسبة لتبادل الخبرات بين الكتيبتين .

وزارة الدفاع بموسكو لاعداد المستويات بالحاق زوكوف بفرقة دراسية فـي مقـر

في نهاية ١٩٢٩ صدرت الاوامر القيادية العليا . ويشيد زوكوف في مذكراته بدور ميخائيل نرونزي في ارساء اسس المدرسة العسكرية السوفيتية . « وتحديد العلاقة بين الانسان والسلاح وتطوير مختلف انواع الاسلحة والتنسيق بين استخداماتها ، وتحديد العلاقة بين جبهة القتال والجبهة الداخلية ،واساليب تدريب القوات،واستخلاص الدروس من تجارب الحرب العالمية الاولى والحرب الاهلية » .

وهو يشيد بالقائد الموهوب ميخائيل توخاتشفسكي الذي كانت له تنبوءاته العبقرية بطبيعة الحرب في المستقبل » وقد وضع توخاتشفسكي اسسا جديدة لنظريات وتكتيك واستراتيجية وعمليات الحرب في المستقبل كما بين العلاقة الوثيقة بين نظريات وتطبيقات البناء العسكري وبين البناء الاجتماعي والقاعدة الانتاجية للدولة » .

***

ويذكر زوكوف عددا من اسماء الكتب التاريخية لمشاهير القادة السوفييت الذين كانوا في طليعة المفكرين العسكريين ليس في روسيا وحدها بل في العالم المعاصر .

ويتحدث عن تطوير الاسلحة في الاتحاد السوفيتي واهتمام الحزب بانشاء صناعات حربية وتشجيع الاختراعات والابتكارات العملية العسكرية . « وفي نهاية العشرينات كان لدى القوات المسلحة السوفيتية ٧ آلاف مدفع ميدان فقط ومعظمها من الطراز الخفيف ولم تكن هناك على الاطلاق مدفعية دبابات ولا مدفعية مضادة للدبابات ولا مدفعية مضادة للطائرات . وفي ١٩٢٨ كان عدد الطائرات الحربية يبلغ ١٠٠٠ طائرة فقط ، وعدد الدبابات والسيارات المصفحة ٢٠٠ ، وكان الجيش يفتقر جدا الى الآليات . ولعله من المضحك ان اشير الى ان الجيش الاحمر لم يكن لديه غير ٣٥٠

سيارة نقل ، ٧٠٠ سيارة ركوب و٦٧ جرارا مجنزرا . ولكن لا ينبغي ان ننسى انــه قبل ١٩٢٨ لم تكــن في بلادنا صناعة سيارات او جرارات على الاطـــلاق » .

« وفي ذاك الوقت كانت الدول الامبريالية الكبرى تنمي قوالها المسلحة ولقــد كانت بريطانيا في حالة حدوث حرب تستطيع وقتئذ لان تنتج ٢٥٠٠ دبابة في الشهــر وتستطيع فرنسا انتاج ١٥٠٠ دبابــة . وكانــت القــوات المسلحــة الامبرياليــة تمتلك عشرات الآلاف من الطائرات . وكانت عملية الميكنة العسكريــة تجري بمعدلات سريعــة جدا . وبكلمة فقد كان اعداؤنــا السابقون (والمحتملون) يسبقوننا بشوط هائل في مجال التسليح بالمقارنة مــع اوضــاع الحرب العالميــة الاولى » .

وبمقارنــة هذه الارقام لا يسع الانسان الا ان يفكر مرارا في المواقــع التــي حددتهــا الظروف التاريخية لنــا لكي نبدأ منهــا سباقنا المرير مــع العالــم الراسمالــي !» .

وفي عام ١٩٢٥ قال ميخائيل فرونزي فــي تقريــره حــول الاوضاع العسكريــة امــام اللجنــة المركزيــة :

كثيرون من رفاقنا ـ واعتقد ان معظمهم ممن اشتركوا فــي جبهــات القتال فــي الحرب الاهليــة ـ يعيشون فيمــا يبدو في الحالــة النفسية التي خلقتهــا ظروف الحرب الاهلية . واني احذر من الخطورة البالغه لهــذه النفسية ، فالحرب في المستقبل لن تكــون شبيهة بالحرب الاهلية من حيث التسليــح ولا اساليب القتال . فسوف نلتقي بجيوش ممتازة مسلحه باحدث الوسائل التكتيكية المتطورة . واذا لم تكــن لدى جيشنا مثل هذه الامكانيات فان العاقبة سوف تكــون وخيمــة ووخيمــة جــدا . لا بــد من اخــذ هذا في الاعتبار عندمــا نقرر الاجراءات الواجب اتخاذها لاعداد البلاد للدفاع » .

وفي ربيــع ١٩٣٠ عاد الدارسون من موسكو الى وحداتهم .. ولم يطل بقائي في قيــادة اللواء اذ رشحت للعمل مساعداً للمفتش العام على سلاح الفرســان السوفيتي وهكذا بدأ زوكوف عمله مع بطل الحــــرب الاهلية الاسطوري مارشال الاتحاد السوفيتي سيمون بوديوني .

ولم يستغرق استعدادي للرحيل اكثر من لحظات معدودة . فقد كــان كل مــا فعلته ان ارتديت بذلتي العسكريــة وجمعت متاع الاسرة في حقيبة واحدة . لم يكــن احد منــا في ذلك الوقت يمتلك اكثر من ذلك وكان ذلك يعــد ظاهرة طبيعيــة .

وبعد لقاء حار مـع قادة وجنود الفرقـة السابعـة استمعت فيه الى ارق عبارات الثناء والمودة ركبت القطار مع زوجتي وابنتي ايرا التي كانت في عامهـا الثانـي .

العمل الجديد

اتاح العمل الجديد لزوكوف امكانيات غير محدودة في الاتصـال بالقيادات العسكريـة العليـا ، والاشتراك في اعادة بناء القوات المسلحـة السوفيتية على اسس عصرية ، وتكويـن قوات المدفعية والطيران، والبحريـة وتغيير طبيعـة وتسليح ودور سلاح الفرسان ، ومناقشة القضايا العسكرية العليـا على ضوء التطورات العالميـة والداخليـة خاصة وقـد تميزت هذه الفترة بوصول النازيـة الى الحكم في المانيـا ونمـو الروح العسكريـة العدوانية فـي اليابان وايطاليـا واشتـداد حـدة الصراع بيـن الـدول الامبرياليـة على اعادة تقسيـم العالم الى مناطق نفوذ وسيطرة .

ويتوقف زوكوف طويـلا عند معرفته الشخصية المباشرة بوخاتشفسكي الذي حذر مبكرا من ان العدو الرئيسي للاتحاد السوفيتي في المستقبـل سوف يتمثل في المانيا النازية . ويصف زوكوف القائد العظيم توخاتشفسكي بانه كـان « عملاقـا في الفكر العسكري والمع نجم بين القادة العسكريين فـي بلادنـا ».

وذات يوم استدعى زوكوف لمقابلة المساعد الاول للمفتش العام علـى سلاح الفرسان ، الذي ابلغه باختياره قائدا لفرقـة الفرسان الرابعة .

وكانت هذه الفرقـة تحمل اسم فورشيلوف بطل الاتحاد السوفيتي ووزير الدفاع السوفيتي في ذاك الوقت وكان فورشيلوف قد حارب فـي صفوفهـا في اثنـاء الحرب الاهليـة وعلى راس جنودهـا حقق كثيرا مـن المآثر البطوليـة التي ترتفع الى مستوى الاساطير ولكن وضع الفرقة كان قد تدهور . وحين بلغ الامر فورشيلوف انتابه حزن عميق وطلب من بوديونـي ترشيح قائد لهذه الفرقـة فوقع اختيار بوديوني على زوكوف .

قال بوديوني وهو يودع زوكوف عند ناهبه للرحيل لتسلم مهام منصبـه الجديـد :

ـ كانت الفرقـة الرابعة خير قوات الفرسـان في الجيش الاحمر ولا بـد ان تصبح كذلك في المستقبل . ويقول زوكوف في سرد ذكرياتـه ان التاريخ قد اكـد تحقيق مطلب المارشال بوديوني فهو بعمله الدؤوب قد اعاد الى تشكيلات ووحدات الفرقـة روحهـا المعنويـة والقتالية العالية واشرف

على استيعابهـا لانـواع اسلحـة الجديدة وتربيـة كوادر قياديـة اثبتت في ميادين القتال اثناء الحرب العالمية كفاءة عالية واستبسالا باهرا .

ويقول المارشال زوكوف انه كـان دائمـا يحتفظ بخطـة المناورات في سريـة تامة اذ كـان يحدد لقيادة الكتيبة مكـان التجمـع ويختاره بحيث يتحتم على الكتيبة الوصول اليـه من طرق حافلة بالموانع والعوائق الطبيعية ودون ان يزود الكتيبة باحتياجاتها الى الدعم من جانب الوحدات الهندسية لكي تتعـود القوات على الاعتمـاد على قواهـا الذاتية ولينمي فيها القدرة على مواجهـة الصعاب بروح التحدي والتصميم على الوصول الى الهدف .

« كانت هذه التدريبات في غاية المشقة مـن الناحية الجسمانية بحيث كـان الجنـود في بعض الاحوال يسقطون من الاعياء . وكثيرا ما كـان الافـراد يعانـون لعدة ايام متواليـة من الحرمـان من النوم والطعـام الطبيعي . ولكن كم كان الجنود والضباط يشعرون بسعادة غامرة حين يحلون المشاكـل العويصة التي تواجههم في الطريق الى تحقيق الهـدف المحـدد لوحداتهـم » .

ويقول زوكوف ان تنظيم « امسيات رفاقية » لتبادل الاراء والانتقادات فيما يتعلق بتقييم المناورات والعمليات التدريبية كـان يلعب دورا ايجابيـا خطيـرا في تثقيف الجنود ورفع معنوياتهم واثارة الحمية في نفوسهم .

***

وفي عام ١٩٣٥ توجت جهود الفرقـة بالتقديـر الرفيع اذ حصلت على وسام لينين وهو ارفع وسام سوفيتي . وحصل عدد من قادة وجنود الفرقة علـى اوسمة وميداليات « وحصلت انا على وسام لينين ولقد هزني كل هذا من الاعمـاق وحين قرات وثيقـة تقليـد الوسام فكرت بعمق فيمـا نستطيع ان نعمله لكي نواصل رفع الاستعداد القتالي والمستوى العام للفرقة » .

« كان عام ١٩٣٥ عامـا مشهودا في حياتنا نحن العسكريين اذ قـرر الحزب تدعيما لنفوذ القادة ادخال نظام الرتب الشخصية في تنظيم الحياة العسكريـة وبناء عليه اصبح بلوخير وتوخاتشفسكي وبوديوني وفورشيلوف ويجوروف اول مارشالات الاتحاد السوفيتي .

« وعلى وجه الخصوص اذكر مناورات ١٩٣٦ لا سيمـا عملية عبور نهر بزيوزينا وهو نفس النهر الذي شهد القضاء على فلول جيش نابليون المنسحب من روسيـا عـام ١٨١٢ » .

وكانت المناورات تجري في حضور المارشال فورشيلوف وزير الدفاع الذي اهتم على وجـه الخصوص بالتفتيش على مدى كفاءة الفرقة التي تحمل

عيسى يوسف اللويشي



لينيـــن زعيم الشيوعية ... والقوة الديناميكية فيها

اسمـــه . وقد التقى فورشيلوف بكثيرين ممن حارب معهم على ظهـــور الجيـاد في الحرب الاهلية وقال لاحدهم ـ لكم تغير الوضع في ســلاح الفرســان عن ايام الحرب الاهليــة .. ما هو تقديرك أيهـا الصديق القديم للدبابة . هل تخيب آمالنا ؟ أيهمـا اضمن الدبابة ام الجواد .. ما رأيك ؟

ورد عليه فيودور كوستنكـو :

ـ لم يحن الوقت بعـد لوضع الجياد والسيوف والرمـاح في المتحف فقـد تفيـد الوطـن .. ولكننا نولى الدبابة اهتمامـا خاصا ، فهـو نـوع حديث من الاسلحـة المتحركـة .

وتمت المناورة الشاقـة بنجاح عظيم ممـا اسعد القادة العظام وقواد وجنـود الوحـدات المقاتلـة .

وبعد اربـع سنوات من قيادة الفرقـة الرابعة رقى زوكوف الى قيادة فيلـق الفرسـان القوقازي الثالث .

« منذ ذاك الحين مضى اكثر مـن ثلاثين سـنة الا انني وحتى اليوم لا زلت احتفظ باطيب الذكريات عن الجنـود والقواد والمسئوليـن السياسيين الذين عملوا معـي في صفوف الفرقة الرابعة القوقازية » .

الفصل الخامس

قيــادة الفيلق الثالث فالسادس

ـ بعد عشرين عامـا من الثورة ـ اعتقالات غير مشروعـة في الجيش ـ دراسة الاشتراكيـة والماركسيــة ـ

تسلمت قيادة فيلق الفرسان الثالث القوقازي عــام ١٩٣٧ .. كــان قد مضي عشرون عامــا من عمر السلطـة السوفيتية...عشرون عاما من النضال الشاق والانتصارات المجيدة فــي ميادـين الاقتصاد والثقافة وكافة قطاعــات البناء الاشتراكي ممــا كــان خير شاهد على عظمة افكــار ثــورة تشرين الاول » .

« وكانت الدول الامبريالية الكبرى تحشد الجيوش الهائلـة وتـرصد المزيد فالمزيد من الاعتمادات للتحضير لحرب جديدة ... فبين عامي ١٩٣٤ و ١٩٣٨ كانت نسبة الاعتمادات العسكرية الى الميزانية العامة قــد ارتفعت في اليابان : من ٤٣٪ الى ٧٠٪ ، وفي ايطاليا : من ٢٠٪ الى ٥٢٪ ، وفــي المانيا : من ٢١٪ الى ٦١٪ .

وفي ١٩٣٥ استولت ايطاليا على الحبشة وفي ١٩٣٦ اشتركت المانيـا وايطاليا في التدخل العدواني على جمهورية اسبانيا وبدات المعارك والقتــال

ليس فقط ببساطة بين دولة واخرى وانما كانت رحى الحرب قد بدأت تدور بين قوى الرجعية والفاشية وبين قوى الديموقراطية والاشتراكية » .

في ١٩٣٧ كان الجيش السوفياتي قد أصبح جيشا قويا وعصريا في تسليحه وتدريبه وتنظيمه وثقافته ، وكانت الامية قد اختفت تماما من صفوف الجنود . ومع التطور التكنيكي للقوات المسلحة تطور مستوى التأهيل المهني للمقاتل السوفياتي وارتفع مستواه الفكري . وعلى سبيل المثال فقد كان الاعتماد السنوي المخصص للتعليم والثقافة داخل صفوف القوات المسلحة يبلغ ٢٠٠ مليون روبل وكانت مكتبات الوحدات المقاتلة تضم زهاء ٢٥ مليون كتاب . وكان الجيش يشترك بنشاط في الحياة السياسية للبلاد « ولكن يكن قد بقي من العسكريين القدامى الا اولئك الذين اثبتت الحياة اخلاصهم للسلطة السوفياتية اما القيادات الجديدة فقد كانت تتكون من العمال والفلاحين الذين تخرجوا من مدرسة الحرب الاهلية او الذين تلقوا تعليمهم التكنيكي وتربوا سياسيا في مدارس القوات المسلحة وكان العمال والفلاحون يشكلون ٧٠٪ من الكادرات القيادية وكان ٥٠٪ من القواد ينتمون الى الحزب الشيوعي والكمسمول » .

« ولهذا فقد كانت حركة الاعتقالات غير المشروعة التي جرت في صفوف القوات المسلحة ظاهرة غير طبيعية وغير منسجمة مع جوهر النظام ولا مبرر لها في الظروف الموضوعية التي مرت بها البلاد عام ١٩٣٧ » .

واعتقل فيمن اعتقل عدد من ابرز القادة ، الامر الذي كان يستحيل الا ينعكس الى درجة ما على تطور قواتنا المسلحة .

مكثت قائدا للفيلق الثالث سبعة شهور حتى اقترح على الانتقال الى قيادة فيلق الفرسان السادس القوقازي ورحبت بالفكرة لعدة دوافع من بينها انه كان من حيث التدريب والتسليح والتعداد يتفوق على الفيلق الثالث ، واهم من هذا كله ان الفيلق الجديد كان يضم الفرقة الرابعة التي سبق ان كنت قائدا لها طوال اربع سنوات والتي كنت بالطبع اشعر ازاءها بتعلق خاص .

واذ اصبحت قائدا للفيلق السادس اخذت بمنتهى الجدية اسعى الى استيعاب قضايا العمليات الاستراتيجية مدركا انني لم اكن بعد قد وصلت الى المستوى المطلوب . وكنت بوضوح اضع في اعتباري ان على قائد الفيلق ان يكون على اطلاع واسع جدا . ومن هنا فقد بذلت مجهودا مضنيا في التمكن من العلوم العسكرية .

« كانت السعادة تغمرني حين اجد ان محاضراتي او تدريسي لمجموعات من الضباط واركان الحرب تؤدي الى نتائج ايجابية محسوسة في رفع مستوى الدارسين . وقد كنت اعتبر هذا بمثابة اعظم مكافأة على جهودي . فاذا كان الدارسون لا يستفيدون شيئا جديدا ولا يحصلون على شيء من خبرة قائدهم فأن هذه الدروس في تقديري ليست سوى طعنة مباشرة لضمير القائد ودليل على عدم كفاءته . والحقيقة المؤلمة ، انه كان لدينا عدد غير قليل من القادة الذين كانت معارفهم تضعهم دون مستوى مرؤوسيهم » .

واذا كنت قد درست المسائل العسكرية على نحو تفصيلي ودائم ومتعاظم خطوة فخطوة نظريا وعمليا ، فانني قد تعرفت على النظرية الماركسية اللينينية من مناسبة الى اخرى ، ومن موضوع الى آخر ودون اي تخطيط في معظم الاحوال .

وفي نهاية ١٩٣٨ رشح زوكوف الى منصب مساعد قائد قوات منطقة بيلوروسيا العسكرية .

« وبمقتضى منصبي الجديد كان علي في حالة السلم ان اتولى قيادة الاعداد القتالي لوحدات الفرسان وعدد من الوية الدبابات المخصصة بموجب خطة التعبئة لمعاونة الفرسان ، وفي حالة الحرب كان علي ان اتولى قيادة مجموعة من الفرسان الميكانيكية قوامها من ٤ الى ٥ فرق فرسان ومن ٣ الى ٤ الى ٥ فرق وغيرها من وحدات التدعيم .

« كنت غير متحمس لترك الفيلق الذي الفته ولكن مستقبل العمل مع تشكيلات ميدانية كبرى كان شديد الاغراء ولهذا قبلت الترشيح .

« وبعد توديع الوحدات الخاضعة لقيادتي سافرت الى سمولينسك حيث كان مقر قيادة منطقة بيلوروسيا العسكرية وبحرارة بالغة استقبلني كافاليوف قائد المنطقة .

« خرجت بخبرة ومعرفة كبيرتين من عملي في قيادة الفيلقين الثالث والسادس ولقد احتفظت دوما بشعور العرفان بجميل كل من ساعدني في عملي وكل من عمل بشرف في سبيل تدعيم الدفاع القومي » .

حسين يوسف الزويني

الفصل السادس

الحرب غير المعلنة على النهر

ـ اليابان تغزو منغوليا ـ زوكوف يتولى القيادة ـ اليابانيون يستميتون في القتال ـ اول انتصار للجيش الاحمر خارج بلاده ـ اللقاء الاول بستالين ـ خطر النازية ـ

في آخر ايار ١٩٣٩ تلقى زوكوف امرا بالمثول الفوري امام وزير الدفاع السوفياتي المارشال فورشيلوف فاستقل زوكوف القطار الى موسكو فوصلها صبيحة ٢ حزيران ...

« وبعد تبادل التحية قال فورشيلوف :

ـ شنت القوات اليابانية هجوما مفاجئا على جمهورية منغوليا الشعبية التي يتعهد الاتحاد السوفياتي في ١٢ اذار ١٩٣٦ بأن يدافع عنها ضد اي اعتداء خارجي . وها هي خريطة منطقة الاحداث في ٣٠ ايار .

وبعد شرح الموقف قال فورشيلوف :

ـ هل انت مستعد للتوجه بالطائرة فورا الى هناك ، ولتسلم اعباء القيادة اذا اقتضى الموقف ؟ فرد زوكوف باقتضاب :

ـ « مستعد للطيران في هذه الدقيقة ! »

وصل زوكوف الى منغوليا واجرى مشاوراته مع قادة القوات المنغولية وقادة القوات السوفياتية الخاصة ، وبعد تدارس الموقف من كافة نواحيه ايقن ان القوات الموجودة في منغوليا لن تتمكن من القضاء على المغامرة العسكرية اليابانية وخاصة فيما لو طور اليابانيون هجومهم في مناطق اخرى وفي اتجاهات جغرافية جديدة ، فارسل اشارة عاجلة الى وزير الدفاع يقترح فيها خطة عمليات القوات السوفياتية والمنغولية وفي اليوم التالي تلقى زوكوف اشارة تتضمن موافقة المارشال فورشيلوف التامة على تقديره وتخطيطه وحينئذ طلب زوكوف ارسال تعزيزات بالطائرات والمدفعية والدبابات .

وقد نجحت خطة زوكوف في القضاء على القوات المعتدية اليابانية المتمركزة في جبل بابن تساجان والتي عبرت نهر خالخين جول رغم التفوق الكبير في تسليح العدو .

« كان الجوكر الوحيد في يدنا هو كتيبة الفرسان الميكانيكية وقد قررنا ان نستغلها دون ابطاء لكي تشن هجوما « على الطائر » على القوات اليابانية التي لم تتمركز بعد حتى لا تتمكن من بناء الخنادق والاستحكامات الدفاعية المضادة للدبابات . فقد كان العدو بالفعل قد رصد تحرك دباباتنا وبدأ يسلط على طوابيرها نيران مدفعيته . ولم يكن في مقدور العدوان يختبىء فمئات الكيلو مترات من الصحراء المكشوفة الخالية حتى من الاعشاب كانت تحاصره من كل الاتجاهات .

استمرت المعركة طوال نهار وليل ٤ تموز وفي الثالثة صباح ٥ تموز فقط انتهت تماما مقاومة العدو . واسفر القتال عن آلاف الجثث وتلال من الجياد وحطام عدد هائل من المدافع بانواعها المختلفة والسيارات . وفي الاشتباكات الجوية خسر العدو ٤٥ طائرة .

« والى حين اكتفى العدو بالدوريات الاستطلاعية ثم في ١٢ آب بدأ العدو الهجوم بكتيبة من المشاة مدعمة بالمدفعية والسيارات المصفحة والدبابات وقوة جوية قوامها ٢٥ قاذفة قنابل .. وتمكن العدو من احتلال جبل « الرمال الكبيرة » ثم توالت تعزيزات القوات المعادية » .

« وتأهبت القوات السوفياتية المنغولية المشتركة لشن هجوم شامل بهدف القضاء النهائي على القوات اليابانية التي دخلت الاراضي المنغولية. وبناء عليه طلبت القيادة من موسكو ارسال تعزيزات جديدة » .

« وفي ٢٠ آب ١٩٣٩ بدأ الهجوم الشامل لتطويق العدو وتدميره ودارت معارك طاحنة طوال ايام ٢٠ و ٢١ و ٢٢ ابدى العدو خلالها مقاومة

مستميتة ، وخاصة في منطقة « جبل الرمال الكبيرة » حيث كانت المقاومة اعنف مما تصورنا مما اقتضانا ادخال لواء مدرعات احتياطي مدعم بالمدفعية » .

« وفي صبيحة ٢٦ آب كانت قواتنا قد حطمت جناحي القوات المعادية واخذت تطوق بنجاح كل حشود الجيش الياباني السادس حيث دارت معارك متواصلة من اجل تشتيت وحدات العدو وتطويق كل منها على حدة ثم سحقها نهائيا » .

قاتلت الوحدات اليابانية الى آخر رجل . ولكن الجنود في النهاية ادركوا كذب الدعاية التي تزعم ان الجيش الامبراطوري لا يقهر . فهم قد شهدوا باعينهم كيف عجزت قواتهم عن كسب معركة واحدة في الحرب التي دامت اربعة شهور .

مع ستالين

وفي ٣٠ آب تم القضاء على الجيش الياباني السادس عن آخره ولكن زوكوف واصل البقاء بقواته في منغوليا حتى استدعي هو الى موسكو في اول ايار ١٩٤٠ للتوجه الى وزارة الدفاع لتلقي التعليمات بتعيينه في منصب جديد .

« وبعد بضعة ايام استقبلني يوسف ستالين شخصيا وكنت في طريقي الى لقائه اشعر برهبة شديدة فلم يكن قد سبق لي ان التقيت به . وبصحبة ستالين كان بالمكتب كاليفين ومولوتوف وغيرهما من اعضاء المكتب السياسي .

كان ستالين يدخن الغليون لكنه بادرني على الفور بالسؤال :

ـ ما هو تقديرك للجيش الياباني ؟

ـ الجندي الياباني الذي حاربناه في خالخين جول مدرب جيدا وخاصة لخوض المعارك المحدودة ، وهو منضبط ومطيع وشرس في القتال وخاصة في وضع الدفاع .

والضباط الصغار على درجة عالية جدا من التدريب ويقاتلون بشراسة مذهلة . وكالعادة لا يقع صغار القادة في الاسر ولا يتخاذلون في وقت الشدة ، اما الضباط وخاصة ذوو الرتب المتوسطة والعليا فمستوى تدريبهم منخفض ولا تظهر عليهم روح المبادأة ويميلون الى القيادة طبقا لما جرت عليه التقاليد .

وفيما يتعلق بالمستوى التكنيكي للجيش الياباني فهو في تقديري

متخلف . ولا يفوتني ان اشير الى ان قواتهم كانت تتفوق على قواتنا الجوية في بداية الامر وحتى جاءتنا الطيارات الجديدة من طراز « تشايكا » و « أي ١٦ » وعندما جاءتنا مجموعة الطيران ابطال الاتحاد السوفياتي بقيادة سموشكيفيتش اصبحت لنا السيطرة الجوية البارزة » .

وجدير بالذكر اننا واجهنا صفوة الجيش الياباني تلك التي يطلق عليها « الوحدات الامبراطورية » .

واصغى ستالين الى تقريري باهتمام ثم سألني :



ماوتسي تونغ وبعض رجاله في بكين

ـ وكيف قاتلت قواتنا ؟

اخذ زوكوف يسرد بالتفصيل تقييمه للحرب ويقول انـــه لاحظ ان ستالين كان يصغي اليه بشغف فاستطرد :

ـ بالنسبة لجميع قواتنا ، وقادة وحداتنا ، وبالنسبة لـــي شخصيا كان القتال على نهر خالخين جول مدرسة قيمة للخبرة القتالية . واعتقد ان الجانب الياباني سوف يستخلص لنفسه الآن استنتاجات اكثر دقة فيمـــا يتعلق بقوة وكفاءة الجيش الاحمر .

وتدخل في الحوار كاليفين وطرح علـى زوكوف سؤالا عـــن تصوره لهدف الحكومة اليابانية من تدبير هذا العدوان فرد عليه زوكوف بان الهدف في رايه هو « احتلال الاراضي المنغولية الواقعة خلف نهر خالخين جـــول ثم اتخاذ مواقع على النهر تكفل حماية الخط الحديدي الاستراتيجي الذي سعى اليابان لمده حتى حدود الاتحاد السوفياتي فيما وراء البيكال » .

عندئذ قال ستالين : « لديك الآن خبرة قتالية فخذ على عاتقك قيادة منطقة كييف العسكرية واستخدم خبرتك في اعداد القوات للقتال » .

« واذ كنت في فترة وجودي بمنغوليا لا اتمكن من المتابعة التفصيلية للقتال الدائر بين المانيا من جانب وبين انكلترا وفرنسا مـــن الجانب الآخـــر فقد انتهزت الفرصة لاتساءل :

ـ ما هو فهمكم للطابع البالغ السلبية للحرب الدائرة في الغرب ومـــا هي توقعاتكم فيما يتعلق بتطور العمليات العسكرية في المستقبل ؟

« ضحك ستالين ثم اجاب :

ـ ان الحكومة الفرنسية برئاسة دالاديه والحكومة البريطانية برئاسة تشمبرلين لا تريدان الدخول بجدية فـــي حرب مـــع هتـــلر . فهما تأمـــلان حتى الآن في دفع هتلر الى خوض الحرب ضد الاتحاد السوفياتي . وهمـــا برفضهما عام ١٩٣٩ الدخول معنا في حلف معاد للهتلرية انما عبرا عـــن رغبتهما في عدم تقييد ايدي هتلر في عدوانه على الاتحاد السوفياتي ... ولكن شيئا من ذلك لن يتحقق . ولسوف يتحتم عليهما ان يدفعا ثمنـــا غاليا بسبب سياستهما القصيرة النظر » .

« عدت الى فندق موسكو .. وظللت طويلا عاجزا عـــن الاغفاء تحت تاثير انطباعاتي عن لقائي باعضاء المكتب السياسي » .

« كنت في غاية الانفعال بالمظهر الخارجي لستالين ، وبصوته الخافت، ودقته ، وعمق تفكيره ، والمامه بالقضايـــا العسكرية ، واهتمامه الشديـــد بالاصغاء الى تقديري » .

حسن يوسف الكويتي

الفصل السابع

قيادة القوات الخاصة
في منطقة كييف العسكرية

ـ هتلر يغزو اوروبا ـ ستالين ينادي بالتحالف مع بريطانيا وفرنسا ضد الفاشية ـ بريطانيا وفرنسا ترفضان التحالف ـ

((كان تعييني قائداً لاكبر منطقة عسكرية يعد بالنسبة لي تشريفاً خاصاً ، وقد بذلت كل ما في وسعي لكي ابرر الثقة الغالية بي من جانب اللجنة المركزية والحكومة السوفياتية)) ..

وكان زوكوف سعيداً بانتقاله الى موقعه الجديد لما اشتهرت به منطقة كييف في اوساط العسكريين السوفيات من تفوق بارز في المستوى التكنيكي والتدريبي ولوجود عدد من القادة المشهود بكفاءتهم الرفيعة ومن بينهم بوركايف ، ياكوفليف ، موزيتشنكو ، كوستنكو ، روبتسيف ، باجراميان ، بتوخيمد .

وعلى امتداد ١٩٤٠ كان زوكوف قد تفقد جميع القطاعات الخاضعة لقيادته والتي اسعده انها جميعها قد عبرت عن ترحيبها الصادق بمقدمه .

كان صيف وخريف عام ١٩٤٨ لتدريبات شاقة في منطقة كييف على

استيعاب الدروس المستخلصة من الحربين اللتين خاضهما الجيش الاحمر ضد اليابان وفنلندا وكذلك من العمليات العسكرية الدائرة في الغرب . ففي هذه الفترة كانت الحرب العالمية الثانية مشتعلة في اوروبا . وكان قد تكون محور « برلين – روما» العدواني كما تكون «الحلف المضاد للكومنترن» بين المانيا واليابان .

ومن طرائف هذه الفترة يروي المارشال زوكوف كيف رفضت الحكومة البولندية مساعدة الجيش الاحمر ضد التهديد النازي بل كيف اخذت تقيم استحكاماتها وتحشد قواتها على حدودها الشرقية استعدادا لمحاربة الاتحاد السوفياتي ، فاذا بالقوات الهتلرية تجتاحها من الشمال والجنوب والغرب وتستولي بسرعة على مخازن السلاح والذخيرة .

« كيف كانت احوال الجيش الاحمر في هذه المرحلة الحرجة ؟ » .

« في تقريره المطروح على المؤتمر الثامن عشر للحزب قال ستالين في تحديد خطورة الحرب الامبريالية الجديدة ان بلادنا تعمل بلا كلل من اجل المحافظة على السلام ولكنها في الوقت ذاته تقوم بعمل هائل من اجل زيادة الاستعداد القتالي لجيشنا الاحمر والاسطول الحربي ولقد كان الامر كذلك في الواقع .

وبينما كان الاتحاد السوفياتي صادقا الى النهاية في سعيه الى خلق نظام دفاعي عن اوروبا بالتحالف مع بريطانيا وفرنسا . وقد بلغ اخلاص الاتحاد السوفياتي حدا جعله يطرح على البعثتين العسكريتين الفرنسية والبريطانية كثيرا من اسرار الدفاع الوطني ولكن الدولتين لرسلتا الى الاجتماع الثلاثي للوفود العسكرية وفدين لينقلا بصراحة انهما كانا يتالفان من شخصيات من الدرجة الثانية .

« وفي التوجيهات السرية للوفد البريطاني جاء بصراحة ان بريطانيا « لا تريد ان تأخذ على عاتقها اية مسؤوليات محددة » يكون من شانها ان « تقيد ايديها » وكلف الوفد بان يجري مفاوضاته « بمنتهى البطء » وان « يعامل الروس بحذر » وفيما يتعلق بعقد اتفاقية عسكرية ينبغي على الوفد ان « يسعى بقدر المستطاع الى الاكتفاء بالصيغ العامة » .

ويورد المارشال زوكوف في مذكراته النص الرسمي لمحاضر اجتماعات الوفود العسكرية السوفياتية والبريطانية والفرنسية .

في ١٥ آب ١٩٣٩ يقول شابوشنيكوف رئيس هيئة اركان حرب القوات المسلحة السوفياتية : « ان الجيش الاحمر في القطاع الاوروبي من

الاتحاد السوفياتي يحشد ويضع تحت تصرف الجبهة لدرأ العدوان الفاشي على اوروبا ١٢٠ فرقة مشاة ، ١٦ فرقة مدرعة ، ٥ آلاف وحدة مدفعية ميدان ثقيلة ، من ٩ الى ١٠ آلاف دبابة ، من ٥٠٠٠ الى ٥٥٠٠ طائرة حربية قاذفة ومقاتلة عدا وسائل النقل الجوي » .

اشتراك روسيا

وهناك ثلاثة احتمالات لاشتراك الاتحاد السوفياتي في الحرب ، وهي كالآتي طبقا لما وافق عليه الوفد السوفياتي في المفاوضات :

اولا : اذا اعتدى الحلف العدواني على بريطانيا وفرنسا ، يقدم الاتحاد السوفياتي ما يعادل ٧٠٪ من القوات التي توجهها بريطانيا وفرنسا ضد العدو الرئيسي ـ المانيا كما يشترك الاسطول السوفياتي في الشمال مع الاسطولين البريطاني والفرنسي في العمليات التي تجري عند شواطيء فنلندا والترويج خارج المياه الاقليمية للدولتين ، كما يشترك الاسطول السوفياتي بالعمليات في بحر البلطيق وتقوم الغواصات السوفياتية بقطع الطريق على نقل المواد الاولية من السويد الى العدو الرئيسي .

ثانيا : اذا وقع العدوان على بولندا ورومانيا واتفقت بريطانيا وفرنسا مع الدولتين ضحيتي العدوان على مرور القوات السوفياتية باراضيهما ، فان الاتحاد السوفياتي مستعد لتقديم ما يعادل ١٠٠ / من القوات المسلحة التي تقدمها بريطانيا وفرنسا للقتال ضد المانيا مباشرة .. وفيما يتعلق بالمجهود الحربي البحري يتولى الاسطول السوفياتي بالاضافة الى المهام الواردة في الاحتمال الاول ، مسؤولية الحيلولة دون تسلل اسطول او غواصات العدو الى البحر الاسود .

ثالثا : اذا شن العدو هجومه على الاتحاد السوفياتي عن طريق اراضي استونيا وفنلندا ولاتفيا فانه يتحتم على بريطانيا وفرنسا الدخول فورا في الحرب ضد العدو او الحلف العدواني ، وعلى بولندا المتحالفة مع بريطانيا وفرنسا ان تدخل الحرب ضد المانيا وتسمح للاتحاد السوفياتي بالمرور في الاراضي البولندية .

وعلى بريطانيا وفرنسا ان تقدما ٧٠٪ من القوات السوفيانية التي سبق التنويه بحشدها على الحدود الاوروبية للاتحاد السوفياتي . كما يتحتم على القوات البحرية لبريطانيا وفرنسا ان تقوم بالمجهود الحربي كما هو مبين في الاحتمال الاول .

وفي ١٧ آب ١٩٣٩ تكلم لوكيتنوف قائد القوات السوفياتية فذكر

المواصفات الفنية الرئيسية للطائرات السوفياتية ، وتحدث عن امكانيات صناعة الطائرات ، والاستعداد القتالي للقوات ، وعن التنسيق في العمليات بين القوات البرية والبحرية والجوية . وقال ان القوات الجوية السوفياتية لن تجعل من اهدافها ضرب السكان المسالمين .

واخذ الكلمة المارشال بيرنيت فقال : « بودي ان اعبر بالنيابة عن الوفدين البريطاني والفرنسي عن شكرنا للجنرال لوكيتنوف على بيانه الدقيق ولقد تأثرت جدا بالطاقة والتنظيم الذي استطاع الاتحاد السوفياتي بواسطتهما من تحقيق هذه النتائج الباهرة في بناء القوات الجوية » .

ماذا كان يحدث لو .... ؟

يردد المؤرخون وكتاب المذكرات طرح السؤال التقليدي :« ماذا ... لو ...؟ » وبالفعل ماذا كان يمكن ان يحدث لو أن بريطانيا وفرنسا قبلتا في ١٩٣٩ اقتراح الاتحاد السوفياتي بتوحيد المجهود الحربي ضد العدوان .. لا بد ان مستقبل اوروبا كان سيتحدد على نحو آخر .

في منتصف نيسان دعى المكتب السياسي للحزب الى عقد اجتماع موسع للمجلس « العسكري الاعلى » يحضره كبار القادة لبحث مبادىء اعداد القوات المسلحة على ضوء الاوضاع القائمة . وقد قررت اللجنة المركزية تشكيل لجنة عسكرية خاصة برئاسة جدانوف وفوزنيسينسكي للاشراف على عمل وزارة الدفاع . وبناء على توجيهات اللجنة المركزية « والمجلس العسكري الاعلى » اصدرت وزارة الدفاع قرارا يتعلق « بالاعداد العسكري والسياسي للقوات المسلحة في فترة الصيف من عام ١٩٤٠ » .

كان هذا القرار يعني عمليا اعادة تنظيم القوات المسلحة والعمل السياسي لكي يكون المقاتلون في وضع استعداد دائم ولكي يكون التدريب في روح الحرب الفعلية بكل ما تعنيه من احتمالات .

وفي ٨ ايار ١٩٤٠ عين تيموشنكو وزيرا للدفاع وتعيينه وضع التدريبات في اطار سليم اي طبقا لما سوف يحدث في الحرب واصبحنا نركز على المخابرات والاستفادة الفعالة من ظروف البيئة في الدفاع كما في الهجوم . وبدأنا نحرص على اقناع المقاتلين بأن الوحدة لا تصبح قوة ترهب العدو الا حين يكون مستوى اعداد الافراد جميعهم عاليا .

« وفي نهاية ايلول ١٩٤٠ تقرر عقد اجتماع لكبار القادة في موسكو

وطلب مني وزير الدفاع ان اعد تقريرا عن « طبيعة العمليات الهجومية الحديثة .. وكان علي ان اقدم تقريري الى وزير الدفاع في اول تشرين الثاني » .

كان هذا الاجتماع اشبه بدورة دراسية على اعلى مستوى فقد كلف كبار القادة باعداد تقارير عن اهم موضوعات الفن العسكري الحديث مثل « طبيعة العمليات الدفاعية الحديثة » ، « القوات الجوية في العمليات الهجومية وفي النضال من اجل السيطرة في الجو » ، « قتال الفرقة المدرعة في الدفاع والهجوم » . والقى رئيس اركان حرب القوات المسلحة السوفيالية تقريرا عن المسائل العامة المتعلقة باعداد الجيش الاحمر للعمليات والمعارك . وفي هذا التقرير اشار بوجه خاص الى الاستعداد غير الكافي لدى المستويات العليا من القادة اركان الحرب . وقد كان ذلك يرجع الى ترقية عدد من الكادرات الشابة التي كانت دون المستوى المطلوب لهذه المناصب القيادية العليا .

وبعد انتهاء الاجتماع كان المفروض ان تجري في اليوم التالي « مباراة عسكرية كبرى » الا اننا قد استدعينا للاجتماع بستالين .

الاجتماع الى ستالين

قابلنا ستالين ببرود الى حد كبير فقد حيانا بايماءة لا تكاد تلحظ .. ثم دعانا الى الجلوس حول المائدة . وعلى الفور وجه اللوم الى وزير الدفاع لانه فض الاجتماع دون ان يعلم راي ستالين في الكلمة الختامية التي القاها وزير الدفاع نفسه ، ورد تيموشنكو بانه قد بعث بكلمته الى ستالين وتصور انه قد قراها ولم يجد عليها اعتراضا .

طرح ستالين سؤاله على الحاضرين :

ــ ومتى تبدأ المباراة العسكرية .

فرد تيموشنكو وزير الدفاع :

ــ غدا صباحا .

قال ستالين : طيب . اجروا المباراة ولكن لا تعرفوا القادة بعد ذلك .. من الذي يلعب عن الزرق ومن الذي يلعب عن الحمر ؟

ــ عن الزرق (الغرب) يلعب الفريق اول زوكوف وعن الحمر (الشرق) يلعب الفريق بافلوف .

ومن صباح اليوم التالي بدأت المباراة العسكرية الكبرى في العمليات الاستراتيجية . وكأساس للوضع الاستراتيجي اخذت الاحداث المحتمل وقوعها في حالة هجوم المانيا على الحدود الغربية للاتحاد السوفياتي .

وكانت قيادة المباراة لوزير الدفاع تيموشنكو ورئيس هيئة اركان الحرب ميرتسكوف . كان الهجوم من جانب الزرق (الالمان) وكان الحمر (الجيش الاحمر في موقف الدفاع) .

كان الهدف الرئيسي من المباراة في العمليات الاستراتيجية هو التحقق من واقعية وجدوى المواقف الاساسية في خطة تغطية وتحركات القوات في فترة بداية الحرب .

في الاتجاه الاستراتيجي الغربي كانت الجبهة تمتد من بروسيا الشرقية الى بولسيا اما تشكيل القوات فكان كما يلي : الزرق (الغرب) ـ اكثر من ٦٠ فرقة ، والحمر (الشرق) اكثر من ٥٠ فرقة . وتجري تحركات القوات البرية مع قوات تدعيم جوية هائلة .

كانت المباراة حافلة بمواقف تراجيدية على جانب الزرق (الشرق) وقد كانت هذه المواقف شبيهة جدا بما حدث فعلا بعد هجوم المانيا الفاشية على الاتحاد السوفياتي في ٢٢ حزيران ١٩٤١ .

وبانتهاء المباراة اصدر وزير الدفاع اوامره الى قائدي الجانبين اي انا وبافلوف باجراء تحليل لما حدث مع ابداء الرأي في نقاط القوة والضعف لدى كل من الجانبين .

واقترح ستالين اجراء التحليل في الكرملين حيث وجه الدعوة الى قيادة وزارة الدفاع وهيئة اركان الحرب ، وقواد المناطق العسكرية ورؤساء اركان حربهم . والى جانب ستالين حضر اعضاء المكتب السياسي .

« تولى الفريق اول ميرتسكوف رئيس هيئة اركان الحرب وصف سير المباراة وعندما وصل الى سرد البيانات عن موازين القوى وتفوق الزرق في بداية المباراة وخاصة في البيانات والطائرات ، لم يحتمل ستالين هزيمة الحمر فقاطع ميرتسكوف بقوله :

ـ لا تنس انه في الحرب ليس التفوق الحسابي هو المهم الوحيد ، وان براعة القادة والقوات ليست اقل اهمية .. وبعد أن ابدى ستالين عدة ملاحظات سأل الحاضرين :

ـ هل من راغب في التعليق ؟

اخذ الكلمة تيموشنكو وزير الدفاع واعلن عن نمو خبرة قادة المناطق ورؤساء الاركان في العمليات التكتيكية وعن الفائدة المؤكدة من وراء الاجتماع الذي انعقد من وراء اجراء مباريات الاستراتيجية العسكرية .

ثم تكلم الفريق بافلوف وما ان بدأ حديثه بتقييم الاجتماع حتى قاطعه ستالين :

ما هي الاسباب الكامنة وراء التحركات الفاشلة لقوات الجانب الاحمر؟
وحاول بافلوف التخلص من الموقف المحرج باثارة الضحك قائلا :

ــ هكذا يحدث دائما في المباريات الحربية . ولم يستحسن ستالين هذا المزاح فرد بقوله :

ــ لا بد لقائد المنطقة العسكرية من اتقان الفن العسكري والقدرة على ايجاد الحلول الصحيحة في كافة الظروف ... وهو ما لم يحدث من جانبك اثناء المباراة . هل من راغب آخر في التعليق ؟

وطلبت انا الكلمة فطالبت باجراء مثل هذه المباريات بشكل مستديم لانها مفيدة جدا في تنمية مستوى الادراك الاستراتيجي للعمليات لدى كبار القادة . ولا بد لرفع مستوى الثقافة العسكرية لكبار القادة من تنظيم حلقات دراسية ميدانية تحت الاشراف المباشر لوزارة الدفاع وهيئة اركان الحرب .

ثم وجهت انتقادي الى جعل خط الدفاع الاول على الحدود مباشرة كما هو الحال في بيلوروسيا لانها في حالة الحرب سوف تتعرض للقصف المباشر المركز مما يعرض الخطوط التالية ايضا للتدمير في بداية الحرب » .
واعتبر بافلوف انتقاد زوكوف بمثابة هجوم شخصي عليه فرد عليه بمحاولة فاشلة للهجوم المعتاد . واشترك فورشيلوف في تبادل الاتهامات مما اضطر زوكوف الى انهاء كلمته .

ويقول زوكوف ان اغرب ما شهده هذا الاجتماع هو الخطاب الذي القاه المارشال كوليك مساعد وزير الدفاع لشؤون التسليح . فقد طالب برفع تعداد فرق المدافع الرشاشة الى ١٦ ــ ١٨ الف مقاتل ، وطالب بجر المدافع بواسطة الخيول ، ورغم ان تجربة اسبانيا تؤكد ان الدبابات ينبغي ان تعمل اساسا كاسلحة مساعدة للمشاة على مستوى الوحدات الصغيرة .
« ينبغي الاقتراض على تكوين فيالق الدبابات والمدرعات وهنا سخر منه وزير الدفاع قائلا » :

كل الكادرات القيادية للجيش ادركت حتمية الاسراع في تكوين فيالق الدبابات والمدرعات الا كوليك فهو وحده يلتبس عليه الامر.. وتدخل ستالين في المناقشة مبديا ادانته لموقف كوليك الذي ينم عن تخلف فكري . ثم انهى تعليقه قائلا :

ـ ان النصر في الحرب سوف يكون الى جانب القوات التـــي تملك دبابات ووحدات ميكانيكية اكثر .

« وفي اليوم التالي لاجراء المباراة استدعيت لمقابلة ستالين وبعـــد تبادل التحية قال لي ستالين :

ـ ان المكتب السياسي قد قرر اعفاء ميرتسكوف مــن منصب رئيس هيئة اركان الحرب وتعيينك بديلا له .

كان يمكن ان اتوقع اي شيء الا هذا ولذلك عجزت عن الرد والتزمت الصمت حينا ثم قلت :

ـ انا لم اعمل في اركان الحرب في اي يوم من الايام . لقد كنت دائما في قيادة القوات .. ولا استطيع ان اصبح رئيسا لهيئة اركان الحرب .

ـ المكتب السياسي قرر تعيينك .

وكان ستالين يضغط بشكل خاص على حروف كلمة « قرر » .

ـ واذا لم اصلح لرئاسة الاركان فانني ارجو ان يسمح لي بالعودة الى قيادة القوات .

ـ اذن اتفقنا .. وغدا يصدر قرار اللجنة المركزية .

وبعد ربع ساعة كنت في مكتب وزير الدفاع الـذي استقبلني وهـو يبتسم قائلا : علمت كيف رفضت تعيينك ... فقد اتصل بي ستالين تليفونيا منذ دقائق وروى لي مـا حدث بينكما . والآن اسرع الى كييف وعـد فورا الى موسكو . لا تنتظر حتى يصل القائد الجديد ليتسلم منك قيادة المنطقة .

وفي اول شباط ١٩٤١ تقلـدت مهام منصبي الجديد كرئيس لهيئـة اركان الحرب .

سمير يوسف الموشي

الفصل الثامن

قبل الحرب الوطنية العظمى

ـ اصدار قانون التجنيد الاجباري ـ تيموشنكو لم يكن قادرا على تصحيح الاخطاء ـ الطيران كان هواية شخصية لستالين ـ ستالين يقول لمولوتوف (على مهلك) ـ المخابرات الالمانية توزع خرائط بريطانيا على قواتها المسلحة ـ زوكوف يقول : سأتحدث عن الخطأ في فيما بعد ـ

« طوال شهر شباط كنت مشغولا بدراسة المسائل المرتبطة مباشرة بنشاط هيئة اركان الحرب .. وكان وقت العمل اليومي يمتد الى ١٥ ــ ١٦ ساعة . وكثيرا ما كنت اضطر الى المبيت في مكتبي . لا استطيع الادعاء بانني قد اعتدت سريعا على مهام منصبي ذي الجوانب الكثيرة التنوع. فقد تمكنت من ذلك بعد فترة وبفضل معاوني المختصين » .

كيف كان حالنا قبيل الحرب ؟ وهل كانت البلاد والقوات المسلحة مستعدة لمجابهة العدو بما ينبغي ؟

يقول المارشال زوكوف ان تقديم رد موضوعي شاملا هو من شأن العلماء والمؤرخين . واما من جانبه فهو على استعداد لان يدلي برايه في الجانب العسكري منه ، وعلى قدر الامكان سوف يرسم صورة عامة للاحداث المزعجة التي توالت في الشهور والايام الاولى من الحرب ثم يتوقف عند بعض هذه الاحداث بالتفصيل .

يبدأ المارشال تقييمه لهذه الظروف بتنـــاول التنميـــة الاقتصادية والصناعية التي هي اساس القدرة الدفاعية للبـلاد فيقرر بالارقام كيفيـة تخطي معدلات التنمية في خطتي التنمية الاولـــى والثانية . وكيف كانت ارقام الانتاج في العام الرابع من الخطة الخمسية الثالثة تعادل من ٨٦٪ الى ٩٠٪ مما هو مفروض ان يتحقق في العام الخامس من الخطة الثالثة اي في نهاية ١٩٤٢ ويقرر ان معدلات نمو الصناعة الثقيلـة والحربية بالـذات كانت اكثر بكثير مما هو مرسوم في الخطة فبينما كـــان المعدل العـــام للنمـو الصناعي ١٣٪ كان معدل نمو الصناعة الحربية ٣٩٪ في السنة . ويشيـر الى الدور الخاص الذي لعبه ستالين شخصيا في الاشراف علـى الصناعة الحربيـة .

وفي ايلول ١٩٣٩ اصدر مجلس السوفيات الاعلى قانـــون التجنيد الاجباري وبمقتضاه اصبح سن الاستدعاء للخدمـة ١٩ سنـة ، وبالنسبة لخريجي المدارس الثانوية ١٨ سنة واصبحت مدة التجنيد تتراوح مـا بين سنتين وخمس سنوات .

كما اتخذت الاجراءات لجعل يـــوم العمل ٨ ساعات وطوال الايـام السبعة من الاسبوع . ووضع نظام جديد للتعليم المهنـي والحرفي . كمـا فرضت جزاءات صارمة على الاهمال فـــي العمل . كمـــا اصدر مجلس السوفيات الاعلى قراراته بتقسيم وزارة الانتاج الحربي الـى اربع وزارات مستقلة للطيران ، والبحرية ، والذخيـرة ، والتسليـــح وبتقسيم وزارة الصناعة الى ثلاث وزارات للصناعة الثقيلـــة والمتوسطة والخفيفة ، كمـا انشات وزارة جديدة على علاقة وثيقة بخدمة المجهود الحربي (وزارة النقل البري ، ووزارة الانشاءات وغيرها) .

وكانت المسائل العسكرية الكبـــرى والمبدئية تناقش فـــي المجلس العسكري الاعلى للجيش الاحمر ، وكانت المسائـــل ذات الاهمية الخاصة تناقش ويبت فيها بحضور ستالين وغيره من اعضاء المكتب السياسي .

وصدر تحديد قبيل الحرب لتوزيع الاختصاصات بين كبار المسؤولين عن وزارة الدفاع .

« والآن فلنستعرض كيف كانت عليه احوال القوات المسلحة قبيـــل الحرب مباشرة :

● فيما يتعلق بالمشاة : « طلبت انا والمارشال تيموشنكو وزير الدفاع من ستالين في منتصف اذار ١٩٤٠ الاذن باستدعاء قوات الاحتياطي لفرق المشاة لكي نتمكن في الوقت المناسب مـــن الاعـــداد لمتطلبات المرحلة . فـــي

البداية رفض ستالين طلبنا . وقيل لنا ان استدعاء الاحتياطي على هـذا النطاق الواسع سوف يعطي للالمان مبررا لاثـارة الحرب . ولكن المطلب تحقق في نهاية اذار واستدعـى فعـلا ٥٠٠ الف جنـدي وصـف ضابط تكونت منهم ٦٠ فرقة » .

تقويـة السلاح

● وبالنسبة للمدفعية : « فانه في الفترة من ١ كانون الثانـي ١٩٣٩ الى ٢٢ حزيران ١٩٤١ قدمت الصناعة الحربية للجيش الاحمـر ٢٩٦٣٧ مدفع ميدان ، ٥٢٤٠٧ هاون ، وجملة المدافع بما في ذلـك مدافع الدبابات ٩٢٥٧٨ » .

« في ربيع ١٩٤١ كنا قد بدانا في تشكيل ١٠ الويـة مدفعية مضادة للدبابات ولكننا حتى حزيران لم نكن قد انتهينا من ذلك .

« وان المارشال كوليك الذي كان مسؤولا امام ستالين عـن المسائل المتعلقة بالمدفعية لم يكن دائما يحيط ستالين علما على نحو صحيح بفعالية هذا النوع او ذاك من نماذج تسليح قوات المدفعية » .

« وحتى بداية الحرب لم تكن ادارة سلاح المدفعية تعطـي الاهتمام اللائق بقذائف « كاليوشا » النفاثة . فقط في حزيران قررت لجنة الدفاع انتاج هذه القذائف على نحو واسع . وهنا لا بد من الاشادة بجهود العاملين في صناعة هذه القذائف الذين تمكنوا بعملهم النشيط المخلص مـن تزويد القوات بالدفعة الاولى في خلال ١٠ ـ ١٥ يوما من بداية الحرب .

كان ستالين يعتبر المدفعية اكثر اسلحة الحرب اهمية ويوليها اهمية خاصة وقد كان ستالين على معرفة شخصية وثيقـة بوزيـر التسليح اوستينوف ، ووزير الذخيرة فانيكوف ، وبخبراء تصميم المدفعية وعلـى رأسهم الجنرالان ايفانوف وجرابين وكان على ثقة كبيرة بكفاءتهم النادرة .

وفيما يتعلق بسلاحي المهندسين والاشارة والطرق البريدية والسكك الحديدية ففي ١٨ شباط ١٩٤١ ارسل الجنرال بافلوف قائـد المنطقـة العسكرية الغربية تقريرا الى ستالين ومولوتوف وتيموشنكو قـال فيـه : « انني ارى ضرورة اعداد المسرح الغربى للعمليات الحربية في خلال عـام ١٩٤١ ولذلك فلا يجوز ابدا تأجيل انشاء شبكة الطرق والسكك الحديدية لمدة عدة سنوات » .

كذلك ففي تقريره اشار الجنرال جابيتش قائـد سلاح الاشارة الـى نقص وسائل الاتصال الحديثة كما اشار الى عدم احتياطي كاف من وسائل

الاتصال . وكان واضحا من تقريره ان معدلات تزويد القوات بشبكات الاتصال اللاسلكي منخفضة جدا وتتراوح ما بين ٢٧٪ وبين ٥٢٪ كما ان القوات ليست مدربة على استخدامها في وقت الحرب تدريبا كافيا . ولم يكن هناك على الاطلاق خطوط تحت الارض للاتصال لكي تستغل في قيادة المعارك الاستراتيجية .

ولكن وزير الدفاع تيموشنكو كان غير قادر على تصحيح الوضع . ولا يرجع ذلك الى تقصيره او عدم رغبته في بذل مزيد من الجهد ولكن لانه قد فعل الكثير بالفعل طوال عام ١٩٤٠ دون ان يتمكن من انجاز المطلوب على الوجه الاكمل وقد قال وزير الدفاع في هذا الصدد :

ــ « انا اتفق معكم في تقدير الموقف ولكنني اعتقد انه يكاد يكون من المستحيل تغييره على نحو جدي لكي يمكن تلافي جميع اوجه النقص . لقد كنت بالامس لدى ستالين . وهو قد تسلم تقرير بافلوف وامر باخباره بانه على الرغم من عدالة جميع مطالبه فليست لدينا الآن امكانيات تحقيقها » .

وفيما يتعلق بالقوات الجوية : فقد سبق ان اشرت الى الاهتمام الكبير من جانب الحزب والحكومة بتطوير القوات الجوية وتنمية صناعة الطائرات وابتكار نماذج اكثر فعالية . ويكفي انه في الفترة من ١ شباط ١٩٣٩ الى ٢٢ حزيران ١٩٤٤ تسلمت القوات الجوية من صناعة الطائرات ١٧٧٥٤ طائرة حربية من بينها ٣٧١٩ طائرة من النماذج الحديثة .

كان ستالين يكرس كثيرا من الوقت والاهتمام بمصممي الطائرات حتى انني استطيع القول بان الطيران كان الى حد ما هواية شخصية لستالين . ومع ذلك فقد كانت صناعة الطائرات متخلفة عن احتياجات المرحلة . ويمكن القول بان ٧٥ ــ ٨٠٪ من القوة الجوية السوفياتية كان من النماذج العتيقة التي تتخلف كثيرا عن الطراز الموحدة الموجود لدى المانيا الفاشية .

وقد تقرر في اول ١٩٤١ اجراء تعديلات كبرى على انتاج الطائرات وتنظيم التشكيلات الجوية كما راى التوسع الهائل في انشاء المطارات واعداد الطيارين . ولكن الحرب كانت قد نشبت قبل انجاز كل هذه المشروعات .

كذلك فلم يكن الطيارون قد تدربوا بما فيه الكفاية على النماذج الحديثة وخاصة على القتال الليلي . وبعد عام ونصف من الحرب كانت القوات الجوية السوفياتية في غمرة النضال قد اكتسبت مظهرا جديدا وقويا .

وبالنسبة لقوات الدفاع الجوي :

بناء على اقتراحنا قررت اللجنة المركزية والحكومة دعم قوات الدفاع الجوي بوحدات من الطائرات المقاتلة لتقوية الدفاع عن موسكو ولينينجراد . ولقد لعبت هذه الوحدات ،كما هو معروف دورا عظيما في صد الهجمات الجوية للوقات الفاشية .

وحتى بداية الحرب لم تكن قوات الدفاع الجوي قد استكملت بعد تسليحها الحديث ولم تكن قد وصلت من ناحية الكم والكيف الى القدرة القتالية المنشودة .

وبالنسبة للقوات البحرية : كان العدد الكلي للسفن الحربية ٦٠٠ قطعة من بينها ٢١١ غواصة ، ٢٧٩ زورق طوربيد هذا بالاضافة الى اكثر من ١٠٠٠ وحدة مدفعية سواحل ، واكثر من ٢٥٠٠ طائرة .

ولم يوجه الاهتمام اللائق بالدفاع الجوي وبالمدفعية الساحلية . ولقد اخطات وزارة البحرية خطأ جسيما في عدم تقدير اهمية الاسطول الشمالي الذي قدر له ان يلعب دورا بالغ الخطورة .

« وعلى العموم فان القوات البحرية كانت في حالة توحي بالثقة وقد واجهت العدو بشكل مشرف » .

« واخلاصا للتاريخ فانني اقرر ان ستالين عند مناقشة المسائل المتعلقة بالقوات البحرية لم يكن يوجه الدعوة لوزير الدفاع تيموشنكو لحضور المناقشة ولا لرئيس هيئة اركان الحرب » (المارشال زوكوف) .

« ويشهد نمو تعداد القوات المسلحة في الفترة من ١٩٣٩ الى ١٩٤١ بمعدل ٢٨٠ ٪ على الاهتمام الكبير بدعم الدفاع الوطني من جانب الحزب والحكومة » .

ويشير المارشال زوكوف الى ان نشر الثقافة العسكرية والتدريب على القتال بين المواطنين وخاصة الشباب قد لعب في اثناء الحرب دورا تاريخيا .

ثم يقول ان مستوى الدراسة في الاكاديميات العسكرية التي كانت خاضعة لاشرافه المباشر كانت على مستوى رفيع ومواكب لمتطلبات وخصائص الحرب الحديثة وان المعلمين كانوا يؤكدون ان الحرب الحديثة قد اصبحت تجري دون سابق اعلان فالعدو يفضل استغلال عنصر المفاجاة ، وان القوات المتحاربة قد اصبحت تفضل الدخول في المعارك التكتيكية والاستراتيجية بقواتها الرئيسية منذ البداية ، وان الحرب بطبيعتها لا بد ان تكون قاسية ومريرة وقد تطول مما يتطلب تعبئة كافة قوى الشعب

وتنسيق النضال على جبهة القتال مع النضال الباسل على الجبهة الداخلية.
« وعموما فقد كانت النظرية العسكرية على مستوى العصر الا ان التطبيق كان متخلفا عن النظرية الى نحو مشهود » .

درس الموقف

كنت بعد دراسة الموقف من الناحية التكنيكية والاستراتيجية قد توصلت الى انه بالنسبة لبلاد عملاقة كبلادنا تصبح مسالة الدفاع عملية ذات جوانب سلبية كبيرة . وقد اخبرني معاوني في هيئة الاركان بان خلفائي في المنصب كان لهم نفس الراي .

وكان حشد القوات الفاشية في بروسيا الشرقية وبولندا والبلقان يثير فينا قلقا خاصا لا سيما وان الاستعداد القتالي لقواتنا المسلحة في المناطق العسكرية الغربية لم يكن مطمئنا ، كما كان تخلف امكانيات الصناعة عن تلبيات احتياجات الاستعداد للحرب يثير انزعاجنا وعندما ناقشت وزير الدفاع في هذه الامور قال لي :

القيادة تعرف ذلك جيدا ولكن الدولة غير قادرة على اعطاء المزيد .

وذات يوم استدعاني تيموشنكو وقال لي انه كان بالامس لدى ستالين الذي طلب منه ابلاغي بالمثول امامه لتقديم تقرير عن الموقف . وطلب مني ان اكون مستعدا فاستفسرت منه عما ينبغي ان استعد له فقال :

ــ كن مستعدا لكل شيء . ولكن تذكر انه لن يسمح لك بتقرير مطول . فما تعرضه علي في ساعات ينبغي ان يعرض عليه في عشر دقائق.

ــ وما الذي استطيع عرضه في عشر دقائق والامور كلها في غاية الاهمية ، وتحتاج الى اهتمام جدي لاتخاذ القرارات الحكومية المناسبة .

وفي مساء السبت توجهت لمقابلة ستالين في مقره الريفي فوجدت عنده المارشال تيموشنكو والمارشال كوليك وبعض اعضاء المكتب السياسي وبعد تبادل التحية بادرني ستالين بالسؤال :

ــ هل انت على معرفة بالقذائف النفاثة من طراز كاتيوشا .

ــ سمعت بها فقط لكنني لم ارها .

ــ اذن عليك في الايام القليلة القادمة ان تذهب برفقة تيموشنكو وكوليك وابورينكوف لمشاهدة اطلاقها . والآن حدثنا عن اعمال هيئة اركان الحرب وحدثته بما سبق ان عرضته على وزير الدفاع ثم قلت :

ـ نظرا لخطورة الوضع السياسي العسكري ارى من الضروري اتخاذ الاجراءات العاجلة لكي نتلافى في الوقت المناسب تلك السلبيات في الدفاع عن الحدود الغربية وفي اعداد القوات المسلحة للقتال .

قاطعني مولوتوف :

الطعـام مع ستاليـن

ـ ما الذي تعنيه .. افي تصورك اننـــا سوف نخوض الحرب ضد الالمـان ؟

ـ على مهلك .

اوقف ستالين اندفاع مولوتوف .

وبعد استماع ستالين الى تقريري دعانا الـــى الغداء حيث استمر الحديث يدور متقطعا . وسألني ستالين عـــن تقديري للقـوات الجويـة الالمانية . فقلت له ما كان في تصوري :

ـ لدى الالمان قوات جوية غير سيئة فاطقم الطيارين قـد تلقت تدريبا قتاليا راقيا على التعاون مع القوات البرية . وفيما يتعلـق بالجانب المادي فان طائراتنا المقاتلة الحديثة الطراز ليست اسوأ في شيء على الاطلاق مـن طائراتهم . كذلك فالطائرات القاذفة ليست دون مثيلاتها الالمانية بل اعتقد انها افضل منها . المؤسف فقط ان عددها لا يزال قليلا جدا .

تدخل تيموشنكو في الحديث قائلا : الطائرات المقاتلـة بالذات قليلـة جدا ولست اذكر من الذي تهجم على وزير الدفاع بقوله :

ـ سرجي كونستنتينوفيتش (تيموشنكو) يركز تفكيره في الطيران الدفاعي . لم يرد وزير الدفاع بشيء . واعتقد انـه ببساطة لـم يسمع التعليق نظرا لضعف حاسة السمع لديه .

كان الغداء بسيطا للغاية . فالطبق الاول شوربة « بورش » اوكرانية والطبق الثاني جريشكا مـع كميـة كبيـرة مـن اللحـم .... واخيـرا بعض الفواكه مع كوب من الكمبوت . كان ستالين فـي حالة نفسية طيبة . يمزح كثيرا ويشرب نبيذا من صنع جورجيا (بلـــد ستالين وهي مشهورة باجود انواع النبيذ في الاتحاد السوفياتي) .

وفي نهاية اللقاء قال ستالين : يجب التفكير جيدا فـي اعداد المسائل التي تقدم للحكومة لاخذ قرارات بصددها مـــع اظهار اولويات المسائـل المعروضة للبحث . ولكن ينبغي الانطلاق في ذلك مـن امكانياتنا الواقعية دون الجنوح الى الخيال فيما يتعلق بما نحن الآن عاجزون عن تحقيقه .

قبيل الحرب مباشرة كانت في هيئة اركان الحرب مجموعة متعاونة ومتجانسة من الجنرالات والضباط الواسعي المعرفة والخبرة .

كانت هيئة الاركان تضطلع باعباء جسيمة في مجال العمليات والتنظيم والتعبئة وفي وقت السلم كانت الهيئة هي الجهاز الرئيسي لوزارة الدفاع، وفي وقت الحرب كان عليها ان تصبح الجهاز الرئيسي للقيادة العليا .

ولقد كان هناك تقصير في اعداد مواقع قيادة تتناسب مع ظروف الحرب .

هذا بالنسبة للقيادة العليا كما بالنسبة لوزارة الدفاع ورئاسة الاركان، وقادة اسلحة وادارات ومناطق القوات المسلحة .

كذلك فقد التغيير المتلاحق في منصب رئيس هيئة اركان الحرب ـ الذي تولاه اربعة رؤساء في مدى خمس سنوات ـ عاملا اساسيا في عدم التمكن من الدراسة اللاعميقة لامكانيات الدفاع واحتمالات تطويرها في حالة الحرب .

ويزعم الآن بعض المؤرخين وكتاب المذكرات انه قبيل الحرب لم تكن لدينا خطط تعبئة القوات المسلحة وخطط الانتشار الاستراتيجي للوحدات المقاتلة . وليس لهذه المزاعم اساس من الصحة .

« ولقد كان من الاخطاء الاستراتيجية ان المصدر الرئيسي للخطر كان يعتبر الاتجاه الجنوبي الغربي اي اوكرانيا وليس بيلوروسيا . هذا بينما كانت القيادة العليا الالمانية قد حشدت في اتجاه بيلوروسيا اضخم مجموعاتها البرية والجوية . وقد كان لهذا التصور الخاطىء تأثيره السيىء على سير الاحداث في بداية الحرب اذ ارغمت قوات الجيش التاسع عشر وبعض وحدات الجيش السادس عشر على الاشتباك في القتال بمجرد وصولها من اوكرانيا لدعم قواتنا المتمركزة في بيلوروسيا وذلك قبل ان تتخذ مواقعها القتالية » .

« كان من رأي وزير الدفاع وهيئة اركان الحرب وانا شخصيا انه لا بد من جعل قواعد الامدادات قريبة من مواقع القوات . كان هذا يبدو صحيحا لكن الواقع اثبت انه كان خطأ وقعنا فيه جميعا . ذلك ان العدو في بداية الحرب استطاع بعد فترة قصيرة ان يستولي على هذه القواعد مما خلق صعوبة في امداد القوات وتكوين الاحتياطيات .

« ولقد كان من تصوراتنا الخاطئة كذلك ان اعتبرنا ان القوات الرئيسية لدولتين كبيرتين كالمانيا والاتحاد السوفياتي يمكن ان تشتبك في القتال بعد بضعة ايام من المعارك الدائرة في المناطق المتاخمة للحدود .

ولقد كنا كذلك نخطيء اذا ساوينا بين الالمان وبيننا في الوقت اللازم لتركيز وتحريك القوات . فقد اظهر الواقع انه لم تكن هناك مساواة على الاطلاق في القوى والظروف » .

ثم ينتقل المارشال زوكوف الى استعراض القوة الاقتصادية والعسكرية الهامة لالمانيا الفاشية خاصة بعد اجتياحها اوروبا والاستيلاء على مصادر الطاقة والوقود والمواد الاولية .

« وطبقا لتقرير رئيس المخابرات العسكرية الجنرال جوليكوف بتاريخ ايار ١٩٤١ كانت الحشود الالمانية الموجهة ضد الاتحاد السوفياتي تبلغ من ١٠٣ الى ١٠٧ فرق » .

« ولقد كنا نبلغ ستالين على الفور بالمعلومات التي يقدمها رئيس ادارة المخابرات . ولست ادري ما هي بالذات المعلومات التي كان الجنرال جوليكوف يقدمها الى ستالين شخصيا » .

الاخطاء الروسية

« في حزيران ١٩٤١ كان تعداد القوات المسلحة الالمانية يبلغ ٨٫٥ مليون جندي اما عندنا فقد كان تعداد القوات المسلحة بما في ذلك المجندون الجدد يبلغ قرابة ٥ مليون جندي » .

« كان هتلر يرى ان الوقت قد حان للهجوم على الاتحاد السوفياتي ، وكان يلح في التعجيل بهذا الهجوم . ولم يكن الحاحه بلا اساس .. وفقط في الفترة من ٢٥ ايار الى منتصف حزيران دفعت المانيا الى الحدود السوفياتية بسبع واربعين فرقة من بينها ٢٨ فرقة دبابات وآليات » .

« ولقد احطنا ستالين علما بأن قواتنا الموجودة في مناطق البلطيق وكييف واوديسا والمنطقة الغربية لن تكون كافية لصد هجوم القوات الالمانية » .

وفي ايار ١٩٤١ اصدرنا التعليمات الى بعض القوات المتمركزة في الداخل بأن تتوجه الى مناطق الحدود وقد تم بالفعل تحريك ٢٨ فرقة .

اعتقد ان الاوان قد آن للتحدث عن الخطأ الرئيسي في ذلك الوقت.. الخطأ الذي ترتبت عليه بطبيعة الحال اخطاء اخرى كثيرة .. عن الفشل في تحديد موعد وقوع الهجوم النازي الالماني .

جاء في خطة عمليات ١٩٤٠ التي كانت تسري عام ١٩٤١ بعد ادخال التعديلات عليها انه في حالة الحرب لا بد فورا من :

ـ وضع القوات المسلحة في حالة الاستعداد الكامل .

ـ اعلان التعبئة العسكرية على نطاق البلاد كلها .
ـ استكمال تعداد القوات طبقا لما هو وارد في خطة التعبئة .
ـ حشد وتحريك القوات المعباة فـــي مناطق الحدود الغربية طبقــا لخطط المناطق العسكرية والقيادة العسكرية العليا .

وهنا يثار سؤال : لماذا لـــم تقم القيـــادة برئاسة ستالين بتنفيـذ الاجراءات التي وضعتها وقررتها هي بنفسها في خطة العمليات الحربية ؟

غالبا ما يدان ستالين على هذه الاخطاء وسوء التقدير . بالطبع كانت لستالين اخطائه . ولكن .. لا يجوز البحث عن اسباب هذه الاخطاء بمعزل من الظواهر والظروف الموضوعية التاريخية ، عن جملة العوامل السياسية والاقتصادية مجتمعة . وبعد ان تتضح كـــل النتائج فليس اسهل مـــن الرجوع الى بداية الاحداث واعطاء مختلف الـــوان التقييم . وليس اصعب من محاولة تفهم كل هذه العوامل المتداخلـــة ، والقوى المتصارعة والآراء والمعلومات والوقائع المتناقضة في الفترة التاريخية المعينة .

وبمقارنة وتحليل جميع الاحاديث التي ادلى بها ستالين في حضوري وبين المقربين اليه ، توصلت الى اعتقاد راسخ : لقد كانت افكاره واعمالــه كلها متاثرة برغبة واحدة هي تفادي الحرب . ولقد كان واثقا مـــن ان ذلك سوف يتأتى لــه .

لقد كان ستالين يفهم جيدا ما هي الكوارث القاسية التـــي يمكـــن ان تلحق بشعوب الاتحاد السوفياتي اذا وقعت الحرب مع عـــدو قوي ومحنك مثل المانيا الفاشية . ولهذا فقد سعى شانه في ذلك شأن حزبنا كله الـــى تفادي الحرب .

تحت انظارنا الآن ، وخاصة في الاعلانات المتاحة علـــى اوسع نطاق ، حقائق في معظمها تحذر من وقوع العدوان على الاتحاد السوفياتي وعـــن حشد القوات الفاشية على حدودنا ، .. ولكـــن الوثائـــق ، التـــي لوحظت بعد قهر المانيا الفاشية ، تؤكد انه في تلك الفترة ، كانت توضع علـــى مكتب ستالين اخباريات كثيرة من نوع مختلف تماما . واليكم اسوق المثل الآتي :

بناء على توجيهات هتلر في الاجتماع المنعقد بتاريخ ٣ شباط ١٩٤١ ، اصدر الفيلد مارشال كيتيل رئيس اركان حرب القيادة العليـــا بتاريخ ١٥ شباط ١٩٤١ امرا خاصا « بتضليل العدو » . ولتغطية عمليـــة باربادوس قام قسم المخابرات ومكافحة الجاسوسية التابـــع لهيئـــة الاركان العليا « بتخطيط » وتنفيذ عدة اعمال تهدف الى نشر اشاعات ومعلومات كاذبة . فتحريك القوات نحو الشرق كان يصدر على انه « اكبـــر عملية خداع فـــي

التاريخ الهدف منها تحويل الانظار عن الترتيبات النهائية لغزو بريطانيا » .
وزيادة في التمويه نشطت المطابع الالمانية في اصدار نشرات عن طوبوغرافية بريطانية لتوزيعها على القوات ، كما ارسلت مجموعة هائلة من المترجمين الى اللغة الانكليزية ، واعدت خططا للاستيلاء على مناطق على مضيق المانش ، واشيعت معلومات عن « فيلق المظلات » المتاهب للغزو . واقيمت على الساحل بطاريات صواريخ وهمية . وانتشرت بين القوات اخبار عن أنهم يذهبون الى الشرق للراحة قبل بدء الهجوم على بريطانيا كما الحدود ايضا انهم يحتشدون على الحدود السوفياتية تمهيدا للمرور عبر اراضي الاتحاد السوفياتي الى الهند . ولتاكيد هذه الفكرة وضعت بالفعل خطط خاصة تحت اسماء سرية « اكولا » و « جاربون » وسلطت الدعاية النازية في هذا الوقت هجوما على بريطانيا بينما لجات الى مهاجمة الاتحاد السوفياتي . وفي هذه العملية اشترك الدبلوماسيون .. وخلافه .
« مثل هذه المعلومات بالاضافة الى انخفاض مستوى الاستعداد للقتال في القوات المسلحة السوفياتية هو الذي جعل ستالين يبدي حذرا شديدا ازاء تنفيذ الاجراءات التي تقتضيها خطط التعبئة والعمليات استعدادا للتصدي للهجوم المحتمل » .

ستالين والحرب

وكان ستالين كذلك يدرك ان التغييرات التي طرات مؤخرا على تنظيم القوات المسلحة قد ادت الى وجود عدد لا يستهان به من القادة في مواقع لا تؤهلهم لها خبرتهم القتالية . وقد كانت كل الجهود توجه الى تصحيح هذه الاوضاع في نهاية ١٩٤١ .

« كان ستالين حريصا على السلام كشرط اساسي لبناء الاشتراكية في الاتحاد السوفياتي . وكان يعتقد ان حكومات بريطانيا والولايات المتحدة وغيرهما من الدول الغربية ترغب في الخروج من الوضع العسكري الصعب ، وانقاذ انفسهم من الكارثة وذلك بالعمل بكل وسيلة على دفع المانيا الى خوض الحرب ضد الاتحاد السوفياتي . ولهذا كان ستالين ينظر بريبة بالغة الى اخباريات الحكومة الغربية عن تأهب المانيا للحرب ضد الاتحاد السوفياتي » .
ويسوق المارشال زوكوف عددا من الامثلة التي جعلت ستالين يشك كثيرا في صدق المعلومات الواردة عن طريق الحكومات الغربية .
« وفيما يتعلق بمعاهدة عدم الاعتداء بين المانيا والاتحاد السوفياتي

فليس هناك اساس للزعم بان ستالين قد كان يثق في جديته . ولقد وقع في ظروف كان لا يجوز فيهـا ان يعرض الاتحـاد السوفياتي نفسه لخطـر الهجوم عليه من جانب المانيا ومن جانب اليابان في وقت واحد . وعلى اي حال فانا شخصيا لم يحدث قط ان سمعت من ستالين ما يوحي باطمئنانه الى معاهدة عدم الاعتداء » .

« وفي خطاب في الاحتفال بتخريج دفعـة جديدة مـن الاكاديمية العسكرية قال ستالين في ٥ ايار ١٩٤١ : صحيح ان المانيـا لديها افضل جيش من ناحية التكتيك كما من ناحية التنظيم . ولكن الالمان واهمون فـي تصورهم ان جيشهم جيش مثالي وانه لا يقهر . ليست هنـاك جيوش لا تقهر ان المانيا لن يكتب لها النصر تحت شعارات حروب الغزو والاغتصاب، تحت شمار اذلال الشعوب واخضاع الدول والحكومات .. ولا بد علينا من اعادة تنظيم دعايتنا وصحافتنا وسياستنا الاعلامية . ان الاستعداد للحرب جيدا لا يعني فقط بناء جيش عصري وانما يعني كذلك التعبئة السياسية».

ويقول المارشال زوكوف : « ان الحزب والشعب قـد اعدا البـلاد للدفاع في اللحظات الحاسمة . واني لا اقول هذا تهربا من المسؤولية عـن اخطاء تلك المرحلة فالذي يهمني هو ان اساعد في رسم صورة حقيقية لمـا حـدث .

الاخبار السرية

تنتشر الآن مزاعم كثيرة عما اذا كنا قد علمنا علـى التحديد بخطة الهجوم ويوم بداية التنفيذ .

انا لا استطيع ان اقطع بما اذا كان ستالين قـد احيط علما بذلـك ام لا . وهل حقا اخبر بيوم الهجوم ام لا . فالحقائق الهامـة التي كـان ستالين يتلقاها بنفسه لم يكن يقولها لي . الا انه حقا قد قال لي ذات مرة : هناك شخص يمدنا بمعلومات هامة جدا عن نوايا حكومة هتلر لكـن لدينـا بعض الشكوك فيها .

ربما كان ستالين يعني بذلك الشخص ريخارد زورج الـذي عرفت قصته بعد الحرب فقط » .

وبهذه المناسبة اود ان اقول اننا كثيرا مـا كنا نتلقى معلومات قيمـة بالفعل لكننا كذلك كثيرا ما كنا نخطىء استخلاص النتائج منها فعلى سبيل المثال قـدم الجنرال جوليكوف مديـر المخابـرات تقريـرا قيمـا يصف فيه احتمالات خطة الهجوم الالماني ويحدد للهجوم ميعادا ما بين ١٥ ايـار

و ١٥ حزيران . ولقد جاء الهجوم بالفعل في الميعاد وعلــى النحو المذكور لكن الجنرال جوليكوف انهى تقريره حينذاك بقوله :

« ولا بد من اعتبار هذه المعلومات والوثائق بمثابة تضليل صادر عـن المخابرات البريطانية وربما عن المخابرات الالمانية ذاتها » .

وفي ٦ ايار ١٩٤١ ارسل وزير البحرية الادميرال كوزنتسوف تقريرا الى ستالين بنفس المعنى السابق وفـي الختام قال الادميرال : « واعتقد ان هذه المعلومات كاذبة ومختلقة بدافع تحسس رد فعل الاتحاد السوفياتي » .

وفي ١٣ حزيران اتصل تيموشنكو تليفونيا بستالين فـــي حضوري وطلب منه الاذن باعطاء الامر بوضع القوات على الحدود في وضع الاستعداد للقتال فرد ستالين : سوف نفكر في ذلك .

وفي اليوم التالي ذهبت وتيموشنكو الـــى ستالين واخبرناه بالقلـق الشديد في المناطق العسكرية المتاخمة للحدود وطلبنا منه الاذن باعلان حالة الاستعداد القصوى فرد ستالين : انتما تقترحان اعـلان حالـة الطوارىء وتحريك القوات فورا نحو الحدود ، تلك هي الحرب ! فهل يفهم كـل منكم هـذا ام لا ؟

الا ان ستالين بدأ معنا حوارا حول الموقف : مـــا عدد الفرق الموجودة في هذه المناطق ؟

ـ ١٤٩ فرقة ، ولواء مدفعية خفيفة .

ـ وهل هذا قليل . ان الالمان طبقا لمعلوماتنا ليس لديهم هـذا القدر من القوات .

ـ تقارير المخابرات تفيد بان الفرقة الالمانية الواحدة تعدادها حوالي ضعف تعداد الفرقة السوفيالية .

ـ لا ينبغي تصديق المخابرات على الدوام ..

وفي هذه الاثناء دخل سكرتير ستالين واخبره بان نيكيتا خروشوف يتصل به من كييف . رفع ستالين السماعة . ومـــن الاجابات ادركنا ان الحديث يدور حول الزراعة .

ـ طيب ... انهى ستالين المحادثة بهذه الكلمة ويبدو ان خروشوف كان يعطيه صورة وردية عن المحصول القادم .

خرجت من الكرملين في حالة نفسية سيئة وودت ان اتنزه قليــلا وفي حديقة الكسندر كان الاطفـــال يمرحون بشقاوة فتذكـرت طفلتـي وداهمني شعور حاد بالمسؤولية الكبرى التي تقع علـــى عاتقنا نحن جميعا ازاء الاطفال .. ازاء مستقبلهم ومستقبل البلاد .

وفي مساء ٢١ حزيران اتصل بي تليفونيا رئيس اركان منطقة كييف واخبرني بان جاويشا المانيا قد هرب من قواته وسلم نفسه الى قوات الحدود واعلن انهم يستعدون ـ اي الالمان ـ لشن الهجوم صباح ٢٢ حزيران.
على الفور اخبرت بذلك وزير الدفاع وستالين الذي استدعاني ووزير الدفاع الى مكتبه بالكرملين .
وفي الطريق اتفقت مع الوزير ومساعدي الجنرال فاتوتين على الحصول باي وسيلة على موافقة ستالين على اعلان حالة الاستعداد القصوى في القوات المسلحة استقبلنا ستالين وحده وكان يبدو متوترا . الا يجوز ان الجنرالات الالمان قد ارسلوا هذا الجندي لكي يتسبب في اثارة الصدام المسلح ؟. هكذا بادرنا ستالين بالسؤال فرد لمعيه تيموشنكو :
ـ لا . نحن نرى ان الجندي الهارب يقول الحق .
في تلك اللحظة دخل اعضاء المكتب السياسي فطرح عليهم ستالين السؤال التالي :
ـ وما العمل ؟
لم يرد احد .
وهنا قال وزير الدفاع : ينبغي فورا اصدار توجيه الى قوات مناطق الحدود باتخاذ وضع الاستعداد الكامل للقتال .
فقال ستالين : اقرا مشروع التوجيه .
قرأ زوكوف مشروع التوجيه فطلب ستالين اختصاره ثم اقره .
وفي الدقيقة الثلاثين من صباح ٢٢ حزيران تم ابلاغ التوجيه الى المناطق العسكرية المختصة .

ويصف المارشال زوكوف شعوره بعد عودته من اللقاء الاخير بستالين قبل نشوب الحرب بانه كان « شعورا عجيبا وغريبا ومزدوجا » فهو من جانب يحس بنوع من الرضا لانه بذل كل ما في وسعه من اجل تدعيم الدفاع الوطني وهو من جانب آخر يحس بقلق شديد لان هجوم الالمان قد يبدأ قبل ان يصل التوجيه الى الجبهة . وان كثيرا من الاعمال التي ينبغي اداؤها قبل نشوب القتال قد يكون ولى اوانها .

« كان الظلام قد خيم منذ وقت طويل ، وكان يوم ٢١ يوشك ان يطويه التاريخ ، وكنت امضي انا وتيموشنكو وزير الدفا عصامتين الى مقر وزارة الدفاع . ولكنني كنت واثقا من ان هذه التأملات ترهق فكر تيموشنكو هو الاخر . ونزلنا من السيارة بعد ان اتفقنا على اللقاء في مكتب وزير الدفاع بعد عشر دقائق » .

الفصل التاسع

بداية الحرب

ـ الآن .. بدأت الحرب .. ـ ستالين يستدعي المكتب السياسي ـ العدو يهاجم بكل قوة ..
ـ الجيش الثامن ينسحب ويتبعه الجيش الحادي عشر .

في منتصف ليلة ٢١ حزيران اتصل بي قائد منطقة كييف واخبرني بان جنديا المانيا ثانيا من الكتيبة ٢٢٢ التابعة للفرقة المشاة ٧٤ الالمانية قد عبر النهر سباحة وتقدم من حرس الحدود واخبرهم بان القوات الالمانية سوف تبدأ الهجوم في تمام الرابعة صباحا .

بعد موت ستالين ظهرت ادعاءات بان الهجوم قد فاجأ بعض القواد ورؤساء الاركان وهم ينامون في سلام او يلهون بلا اكتراث . وذلك تجنيا على الحقيقة . فقد كانت ليلة السلام الاخيرة ليلة مشهودة حافلة بالعمل المضني .

وفي الساعة الثالثة والدقيقة السابعة عشرة صباحا اتصل بي قائد اسطول البحر الاسود الادميرال اكتيابرسكي واخبرني بان طائرات مجهولة كثيرة العدد تقترب من اتجاه البحر . وفي الثالثة والنصف اتصل بي الجنرال ليموفسكي رئيس اركان المنطقة الغربية وافادني بان الطائرات

الالمانية قد اغارت على مدن بيلوروسيا وبعد عشر دقائق افادني الجنرال بوركايف رئيس اركان منطقة كييف بان الالمان قد قاموا بهجوم جوي على مدن اوكرانيا .

وامرني وزير الدفاع بالاتصال بستالين وكان نائما فجاءني على التليفون بعد ٣ دقائق واحطته علما بالموقف وطلبت منه السماح بالامر بدء العمليات المضادة فالتزم ستالين الصمت لكن انفاسه كانت تصل الى سمعي .

ــ هل فهمتني ؟

مرة ثانية لا شيء غير الصمت . ثم اخيرا سالني ستالين :

ــ واين الوزير ؟

ــ يتصل بكييف .

ــ احضر وتيموشنكو الى الكرملين واطلب من يوسكوبيشيف استدعاء جميع اعضاء المكتب السياسي فورا .

ثم اتصل بي الادميرال اكتيابرسكي ثانية .

ــ تم صد الهجوم الجوي للعدو . فشلت محاولة ضرب السفن . لكن المدينة اصابها بعض التدمير .

واحب أن اشير الى ان قوات اسطول البحر الاسود كانت في طليعة وحداتنا التي واجهت هجوم العدو بمقاومة منظمة .

وفي الرابعة وعشر دقائق بدأ الهجوم البري في منطقة البلطيق العسكرية .

وفي الرابعة والنصف دخلت وتيموشنكو مكتب ستالين الذي كان يجلس الى المائدة شاحب اللون يدخن غليونه ومن حوله جميع اعضاء المكتب السياسي .

المقاومة الروسية

قال ستالين : يجب الاتصال فورا بالسفارة الالمانية . وكلف مولوتوف باستقبال السفير الذي افاده بان المانيا قد اعلنت الحرب على الاتحاد السوفياتي . غاص ستالين في مقعده واستغرق في تفكير عميق . وساد الجو صمت طويل وثقيل حتى غامرت انا بتبديده قائلا : لا بد من الدخول في المعركة بكل ما نملك من قوة وايقاف العدو عن مواصلة التوغل .

فصحح وزير الدفاع تعبيري بقوله : ليس ايقافه .. بل تدميره .

واتضح فيما بعد ان العدو بمساعدة المتسللين والعملاء قد استطاع

تدمير خطوط الاتصال السلكي . ولقد سبق ان اشرت الى ان وسائل الانصال اللاسلكي لم تكن متوفرة لدى جميع قوات مناطق الحدود . ثم بدات ترد الى رئاسة اركان المناطق معلومات متناقضة من مصادر مختلفة وكان لبعضها طابع تخريبي . كذلك فان رئاسة هيئة الاركان لم تتمكن من الحصول على معلومات حقيقية من المناطق مما وضع هيئة اركان الحرب والقيادة العليا في موقف حرج .

وتكونت القيادة العليا على النحو التالي : تيموشنكو رئيسا ، زوكوف، ستالين ، مولوتوف ، فورشيلوف ، بوديوني ، كوزنتسوف . وجدير بالذكر ان هيئة الاركان كانت قد اقترحت تعيين ستالين رئيسا . فالواقع ان ستالين كان لا يمكن الا ان يكون رئيسا للقيادة العليا . فالوضع الجديد قد خلق ازدواجية كان لها تأثيرها السلبي اذ اصبح تيموشنكو الرئيس القانوني بينما ظل ستالين الرئيس الفعلي .

وفي الساعة ١٣ يوم ٢٢ حزيران اتصل بي ستالين . وقال لي انه لا يثق في قدرة قادة المناطق العسكرية على مباشرة مهامهم الخطيرة في هذه الظروف الصعبة ولهذا فقد قرر المكتب السياسي ارسالي الى الجبهة الجنوبية الغربية كممثل للقيادة العليا ، وارسال المارشالين شابوشنيكو ف وكوليك الى الجبهة الغربية . وطلب مني السفر فورا الى كييف ومنها الى رئاسة اركان الجبهة في ترنوبول بصحبة خروشوف .

وبناء عليه كلفت الجنرال فاتوفين بتسيير شؤون رئاسة هيئة اركان الحرب بالنيابة عني في غيابي .

وفي مقر المجلس العسكري للجبهة جرت مناقشة الوضع بالتفصيل. واقترحت على قائد الجبهة ان يأمر مبدئيا وعلى الفور بتجميع الفيالق الميكانيكية بهدف توجيه ضربة مضادة الى المجموعة الرئيسية من حشود جيش « الجنوب » الذي توغل في منطقة سوكول على ان يكون هناك تدعيم تشترك فيه كل القوات الجوية التابعة للجبهة بالاضافة الى مجموعة مساعدة من القوات الجوية القاذفة البعيدة المدى التابعة مباشرة للقيادة العليا. وفي الحال قامت رئاسة اركان حرب الجبهة بتجهيز خطة العمليات المبدئية وتوزيعها على جيوش الجبهة وفيالقها . ولا بد ان اشيد بالصلابة النفسية والقدرة التنظيمية التي كان يتحلى بها قادة الجبهة وخاصة الجنرالين م. ا بوركايف و م. ب كيربونوس .

وها هو ما كتبه في مذكراته اليومية رئيس اركان حرب القوات البرية للجيش الالماني الجنرال جالور في يوم ٢٤ حزيران ١٩٤١ :

« العدو باستمرار يواصل دفع مزيد من قواته الجديدة النشيطة الى ساحة القتال لمواجهة اسفين دباباتنا . وكما توقعنا ، قـــام العـــدو بقوات كبيرة من الدبابات بشن هجوم مضاد على الجناح الجنوبي لمجموعة الدبابات الاولى وتلاحظ تحركات في اماكن متفرقة » . هكذا قامت قوات الجبهـــة الجنوبية الغربية بشن واحدة من اولى الهجمات المضادة على العدو . ولقد كان يمكن لقواتنا ان تبيد قوات العدو لو كان تحت تصرف الجبهـــة قوات جوية اضخم وفيلق او اثنان من فيالق المدفعية الخفيفة . وعلى كل فقـــد تمكنت قواتنا من تحقيق المهمة الرئيسية وهـــي ايقاف زحف العدو فـــي اتجاه مدينة كييف عاصمة اوكرانيا .

ومن اتصالاتي بموسكو في هذه الفترة اخبرنـــي الجنرال فاتوتين (القائم باعمال زوكوف) بان قائد ورئيس اركان الجبهتين الغربية والشمالية الغربية لم يتمكنا للان من استعادة الاتصال بقيـــادة الجيوش مما جعـــل الفيالق والفرق تخوض المعارك متفرقة دون تنسيق جهودها مـــع القوات المجاورة ولا مع القوات الجوية . وتأكد لي من ذلك ان الوضع على الجبهتين حرج وخطير للغاية .

وافادني فاتوتين بان ستالين عصبي وميال الى تحميل المسؤولية كلها لقيادة الجبهة الغربية ورئاسة اركانها وانه يتهم المارشال كوليك بالتقصير .

وبعد فترة قصيرة تأكد ان القوات الالمانية قـــد تمكنت من اختراق دفاعات الجبهتين في بضع مناطق وانها تتقدم بسرعة في داخل بيلوروسيا والبلطيق .

هكذا بدأت محنة الشعب السوفياتي !

اتهـامـات

في السنوات الاخيرة جرت العادة ان يوجه الاتهام الى القيادة العليا لتباطئها في دفـــع القوات الضاربـــة الرئيسية للاتحـــاد السوفياتي مـــن اعماق البلاد الى مناطق الصدام على الحدود لصد ضربات العـــدو وارغامه على التقهقر . لست ارضى لنفسي ابداء راي قاطع فيما كان يمكن أن يتطور اليه الوضع لو ان هذا كان قد حدث .. الى افضل .. ام الى اسوأ . على انني اشير الى انه كان من المحتمل ان تقع القوات الرئيسية السوفياتية في نفس الوضع القاسي الذي وقعت فيه قوات مناطق الحدود . ذلك انهـــا كانت تفتقر الى ما فيه الكفاية مـــن وسائل الدفـــاع المضادة للدبابـــات والطائرات . كما كانت اقل قدرة على الحركة من قوات العدو ، وكان يمكن

تماما ان تعجز عن الصمود امام الضربات البانرة للقوات المدرعة للعدو .

في الصباح الباكر من يوم ٢٦ حزيران افادني فاتوتين بان الوضع في البلطيق وبيلوروسيا سيىء للغاية وان الجيش الثامن التابع للجبهة الشمالية الغربية ينسحب في اتجاه ريغا ، وان الجيش الحادي عشر ينسحب في اتجاه بولوتسك . وان الفيلق الميكانيكي الواحد والعشرين يتقدم من منطقة موسكو لتدعيم الجبهة .

« بوجه عام كان ما يجري مصداقا لما حدث اثناء المباراة التي جرت في ايار من نفس العام في رئاسة الاركان تحت اشراف المارشال تيموشنكو » .

« تحدثت من قبل عن بعض الاوضاع التي قادت الى هزيمتنا في بداية الحرب وسوف اتحدث عن العوامل الاخرى التفصيلية فيما بعد ولكنني اريد الآن ان اشير الى ان الاخطاء التي وقعت فيها القيادة العليا لا تعفي القيادة العسكرية على جميع المستويات ، من المسؤولية عن سوء التقدير والمواجهة » .

« ان كل قائد عسكري يقوم بعمليات فاشلة لا يملك الحق في التنصل من المسؤولية بالقاء الذنب على القيادات الاعلى . فعلى القوات المسلحة وقياداتها طبقا للوائح ان نكون على الدوام مستعدة لتحقيق المهام القتالية. الا انه قبيل الحرب بل وحتى مساء ٢٢ حزيران كان قادة بعض التشكيلات والتجمعات الداخلة في نطاق الدفاع عن الحدود ، ينتظرون الى آخر دقيقة وصول التعليمات من اعلى دون ان يتخذوا وضع الاستعداد الملائم رغم انه كان يصل الى اسماعهم ضجيج الموتورات وجلبة الجنازير على الجانب المقابل من خط الحدود .

وقبيل الحرب كان ستالين وسيموشنكو ورئاسة الاركان يعتقدون بناء على معلومات المخابرات بان القوات الالمانية اذا هاجمت الاتحاد السوفياتي فانها سوف تكون مضطرة الى الابقاء في اوروبا والشرق الادنى وبقية البلاد المحتلة على ما لا يقل عن ٥٠٪ من مجموع القوات الالمانية .

وفي الحقيقة كانت المانيا قبيل الهجوم على الاتحاد السوفياتي قد ابقت في المناطق المشار اليها فقط على اقل من الثلث وفيما بعد انخفضت هذه النسبة .

كانت الضربة القوية للقوات البرية والجوية الالمانية على جبهتنا الاستراتيجية الغربية تنطلق كالسهم في اتجاه موسكو .

ونشأ وضع حرج في منطقة برست . الا ان العدو لم يتمكن من

القضاء على مقاومة الابطال المحاصرين في قلعة برست مما ارغم القوات الالمانية على الدوران من حول المدينة الصامدة التي كانت ملحمتها البطولية مفاجاة لقوات جودريان المدرعة والجيش الالماني الرابع .

وانطلقت قوات جودريان الى مشارف مينسك حيث دار قتال بطولي عنيف . وقد ركز العدو القصف بالطيران على المدينة التي اشتعلت فيها النيران في كل جانب وقضت على آلاف السكان المسالمين وفي لحظات الموت كان آلاف المدنيين يصبون لعناتهم اليائسة على الطيارين الالمان المتوحشين .

وفي ٢٦ حزيران اتصل بي ستالين شخصيا وابلغني بسوء الاوضاع على الجبهة الغربية وطلب مني العودة الى موسكو . وقال ان المارشال كوليك قد انقطعت اخباره .

سافرت الى موسكو ومن المطار توجهت مباشرة الى ستالين الذي استقبلني ومعه تيموشنكو ومساعدي الاول فاتوتين . حياني ستالين بايماءة خفيفة ثم قال لي على الفور :

ــ « فكروا معا فيما يمكن عمله في هذا الوضع الحرج ثم قولوا لي رايكم » ووضع امامنا خريطة الجبهة الغربية .

قلت له : نحتاج الى ٤٠ دقيقة لمناقشة الموقف .

ــ وهو كذلك .

وبالمناقشة لم نجد حلا افضل من الانسحاب والتحصن عند خط الدفاع المار بدافين الغربية وبولوتسك دفيتيبسك واورشا وموجيليوف وموزير ، وفي نفس الوقت لا بد من اتخاذ اجراءات اقامة خط الدفاع التالي عند بحيرة سيليجاروفا وسمولينسك وروسلافل . ومع تكوين ثلاثة جيوش جديدة من فرق موسكو الاحتياطية .

استنزاف قوات العدو

كان الهدف الاساسي من اقتراحنا استنزاف قوى العدو وايقاف زحفه الى موسكو عند احد الخطوط الدفاعية ثم تنظيم هجوم مضاد بالاعتماد على قوات الشرق الاقصى وتكوين قوات جديدة .

متى واين سوف نتمكن من ايقاف زحف العدو نحو موسكو ؟ وما هي المناطق التي سوف نتخذها منطلقا للهجوم المضاد وما هي القوى التي سوف نعبئها لتحقيق هذا الهدف ! لم نكن بعد ندري . فقد كان هذا مجرد امنية .

وفي ٢٧ حزيران بدات اعطي التعليمات بتنفيذ المشروع الى القوات

المعنية رغم البطولة الجماعية للجنود والقادة الصغار وبرغم الصمود الباسل والعناد الذي ابداه القادة الكبار ، ظل الوضع علـــى الجبهة الغربية يزداد سوءا حتى انتهى الامر في ٢٨ حزيران الى انسحاب قواتنا مـــن مدينـة مينسك ، التي اقتحمها العدو واخذ بوحشية يبيد السكان المدنيين ويدمر بنيرانه آثار المدينة ومعالم حضارتها . وكـــان لسقوط مينسك عاصمـة بيلوروسيا وقع سيء ومؤلم على نفسية القيادة العليا وهيئة اركان حرب.

في ٣٠ حزيران اتصل بي ستالين تليفونيا وامرني باستدعاء قائـــد الجبهة الغربية الجنرال د. يافلوف . وفي اليوم التالي وصل يافلوف الى موسكو وقد تعرفت عليه بصعوبـة كبيـرة . فلكم قـد تغيـر خـلال ايـام الحرب الثمانية وفي نفس اليوم اعفى من قيادة الجبهة وقدم الى المحاكمة وبناء على اقتراح المجلس العسكري للجبهة قدم الـى المحاكمة ايضا رئيس اركان حرب الجبهة الجنرال كليموتسكينج وقائـد قوات الاشارة الجنرال جريجوريف وقائد قوات المدفعية الجنرال كليتش وعدد آخر من الجنرالات اركان حرب الجبهة .

تقرر تعيين المارشال تيموشنكو وزير الدفاع قائـــدا للجبهة الغربية وتعيين الجنرال يريمنكو مساعدا له . وبغرض تدعيم الجبهة ضمت اليهـا جيوش الجبهة الاحتياطية .

وعلى الجبهة الشمالية الغربية استمرت الاوضاع سيئة الـــى حـد كبير . ونتيجة لسوء التنظيم من جانب قيادة الجبهـــة ، تحملت قـوات الجيش الثامن والحادي عشر خسائر كبيرة لانسحابها غيـــر المنظم فـي اتجاهات مختلفة اثناء محاولتها تفادي الوقوع في الحصار .

في ٣٠ حزيران اتصل بي ستالين واخبرني بالتعديلات الجديدة فـــي القيادة العسكرية التـي اصبح بمقتضاهـا مساعدي الاول الجنرال فاتوتين رئيسا لاركان حرب الجبهة الشمالية الغربية .

وبعد ١٨ يوما من بداية الحرب كانت الجبهة الشمالية الغربية قـــد انسحبت بالكامل من جمهوريتي لاتفيا ولتوانيا وجزء مـن جمهورية روسيا الاتحادية. وبناء عليه اصبح هناك خطر فعلي من هجوم العدو على لينينجراد التي كانت المناطق المؤدية اليها غير محصنة بالقوات والاستحكامات الكافية.

وطوال هذه الفترة لم تكن هيئة اركان حرب القيادة العليا تتلقى مـن اركان الجبهة الشمالية الغربية التقارير الوافية التفصيلية التي تبين وضع قواتنا ، وحشود العدو ومواقع تجمعاته الآلية والميكانيكية . وكنا كثيـرا ما نضطر الى تقدير الموقف بالتخمين للتطورات المحتملـــة . ولكن هـــذا

الاسلوب كما هو معروف يؤدي بالضرورة الى الوقوع في اخطاء .

على الجبهة الغربية كانت المعارك في الايام الاولى من تموز تدور في ظروف التفوق الساحق للعدو في القوات المدرعة والجوية وكانت قواتنا التي انهكتها المعارك الطاحنة والمتوالية تنسحب الى الشرق لكنها حتى في هذه الظروف القاسية كانت تكبد العدو خسائر جسيمة وتحاول بقدر المستطاع تعويق تقدمه .

وعلى نهر بريوزينا (نفس النهر الذي شهد هزيمة فلول نابليون ١٨١٨) دار قتال طاحن في منطقة مدينة بوريسوف بين قوات العدو وبين قوة مدرسة الدبابات حتى جاءتها قوات فرقة موسكو المدرعة الاولى بقيادة الجنرال كريزر . كانت فرقة موسكو تتشكل طبقا لمواصفات زمن الحرب من حيث الافراد والتسليح . وكانت مزودة بالدبابات من طراز ت : ٣٤ الحديث . وقد تمكن الجنرال كريزر من وقف تحرك قوات فرقة دبابات العدو الثامنة عشرة والمدعمة بقوات مساعدة ، لمدة يومين كاملين . ولقد كانت لذلك اهمية كبيرة في تلك الفترة . وقد كشف الجنرال كريزر في هذا القتال عن كفاءته العالية .

وعلى الجبهة الجنوبية تقدمت من الاراضي الرومانية قوات التحالف الالماني الروماني موجهة ضربتها الرئيسية في اتجاه موجيلوف ــ بودولسكي ــ جميرينكا مشكلة بذلك تهديدا لجناح ومؤخرة الجيوش السادس، والثاني عشر ، والسادس والعشرين التابعة للجبهة الجنوبية الغربية .

وبعد ٦ ايام من المعارك العنيفة استطاع العدو اختراق الجبهة الجنوبية والتوغل الى عمق ٦٠ كيلو مترا . وقد ازدادت اوضاع الجبهة الجنوبية سوءا بتمكن القوات الالمانية من اختراق خط دفاعنا في منطقة روتنو ــ دوبنو ــ كريمينتس والانطلاق الى الداخل .

ولكن زحف قوات العدو امكن ايقافها بفضل عدة عمليات عسكرية قامت بها الجبهة الجنوبية الغربية . وبذلك امكن تدعيم الدفاع عن كييف وفشل محاولات القوات الالمانية في تطويق قوات الجبهة الجنوبية الغربية.

وفي الجبهة الشمالية بدات المعارك في ٢٩ حزيران وكانت لها اهمية محلية محدودة التاثير في الوضع الاستراتيجي العام لتطور الاحداث .

وفي بداية الحرب لم تشتبك قواتنا البحرية مع قوات العدو في معارك ذات اهمية . اذ تركز جهدها القتالي في صد الغارات الجوية الا ان وضع اسطول البلطيق كان حرجا للغاية . وخاصة بالنسبة للقاعدة البحرية الاساسية حيث كانت توجد اكبر الحشود البحرية التابعة لاسطول البلطيق.

لقد اصبحت قاعدة تالين والمدينة ذاتها تفتقر الى الغطاء المتين من ناحية البحر نتيجة للمعارك الخاسرة التي خاضتها قوات الجيش الثامن التابع للجبهة الشمالية الغربية . وقد هبت جميع قوات اسطول البلطيق وكتائب العمال المسلحين للدفاع عن عاصمة جمهورية استونيا السوفياتية.

حاول العدو الاستيلاء الخاطف على قاعدة مدينة تالين ، لكنه ووجه بمقاومة بطولية عنيدة من جانب فيلق المدفعية الخفيفة العاشر التابع للجيش الثامن ، ووحدات مشاة الاسطول ، ومدفعية الاسطول الثقيلة ، وكتائب المقاومة الشعبية المسلحة .

تراجع ومقاومة

كذلك لعبت قوات طيران الاسطول دورا كبيرا في القصف المركز المباشر لقوات العدو الهاجمة . ولا بد ان اشيد بجنود اسطول البلطيق البواسل الذين اظهروا بطولتهم في البر والبحر على حد سواء .

في تلك الفترة كان الاسطول الشمالي ينسق جهوده مع قوات الجبهة الشمالية وقد قام بعدة عمليات ناجحة بالغواصات ضد سفن النقل الالمانية التي كانت تنقل خام النيكل من بتسامو . وقام اسطول البحر الاسود اساسا بنقل الافراد والذخيرة الى الجيوش المقاتلة في المناطق المتاخمة للبحر . كما قام بقطع طريق مواصلات العدو البحرية مع موانىء رومانيا وبلغاريا .

وبالاشتراك مع الطيران قامت قطع اسطول البحر الاسود بتوجيه ضربة الى القاعدة البحرية الرومانية في كونستانتسا . . . وكذلك كانت قوات الاسطول الجوية تغير باستمرار على المنشآت البترولية ، وخطوط السكك الحديدية الرومانية .

انني لا اتوقف بالتفصيل عند العمليات الحربية التي قامت بها القوات البحرية ايمانا بأن ادميرالات وقادة الوحدات البحرية اقدر مني على القاء الضوء على هذا الجانب . غير اني لا بد ان اقول ان نتائج التعاون بين القوات البحرية والقوات البرية العاملة في المناطق الساحلية كان يمكن ان تصبح اكثر فعالية لو كنا قبل الحرب استطعنا ان نجد حلولا موفقة لمسائل الدفاع عن السواحل والقواعد البحرية . فللاسف الشديد كان اهتمام القيادة العامة للقوات البحرية ، ووزارة الدفاع ، وهيئة اركان الحرب متأخرا جدا عن الوقت المناسب .

كانت قد مضت قرابة ثلاثة اسابيع منذ نقضت المانيا الفاشية اتفاقية

عدم الاعتداء بالهجوم الذي شنته قواتهـا المسلحة . وحتى ذلك الحين بلغت خسائـر القوات الهتلريـة حوالي ١٠٠ الف فـرد ، وما يزيـد عن ١٠٠٠ طائرة ، وزهاء ١٥٠٠ دبابة (٥٠ بالمئة مما كان متوفرا لدى العدو في بداية الحـرب) .

تكبدت القوات المسلحـة السوفيتية لا سيمـا على الجبهة الغربيـة خسائر جسيمة مما كـان له تأثير على تطور الاحداث فيما بعد . واصبح ميزان القوى الالمانيـة السوفييتية يميل اكثر من ذي قبل لصالح العـدو فالعدو قد حقق انتصارات حاسمة وتوغل في الاراضي السوفيتية الـى عمق ٥٠٠ ـ ٦٠٠ كيلومتر واستولى علـى مناطـق اقتصادية ومواقـع استراتيجية بالغـة الاهميـة .

كان ذلك كله مفاجأة كبيرة للشعب السوفيتي وقواتنا المسلحة . وفي هذه الايام العصيبـة ظهرت الوحدة الروحية والسياسية للمواطنين السوفيت بقـوة عارمـة .

سياسة الـردع

لم يفقـد الشعب ولا الحزب توازنهما ! فمنذ الوهلة الاولى اخـذ الحزب يومـا بعد يوم يظهر طاقـة تنظيمية وسياسية جبارة تستهدف امرا واحدا : تعبئـة كـل قوى الشعب لردع العدو .

ففي ٢٣ حزيران نفذت خطط التعبئة التي كانت معدة من قبـل وخاصـة في مجال تكويـن القوات الاحتياطية . وتلقت الوزارات المختصة تعليمـات بزيادة انتاج الدبابات والطيارات والمدافع المختلفة وكافة انواع المعدات العسكريـة . وبعـد اسبوع مـن الحرب عـدل برنامـج الانتـاج الحربي لرفع معدله بنسبة ٢٥ بالمئة في مدى الشهور الثلاثة التالية من عام ١٩٤١ ، وبالاعتمـاد على الارصدة الحكوميـة الاحتياطية قررت الحكومة اجراء تطويـر جذري لبرامج التوسع الصناعي في مناطق سيبيريا والاورال وكازاخستان وآسيا الوسطى . ولقد لقيت هذه المناطق دورا حاسما في التحول الى اقتصاد الحرب . وكان للجان الحزب فضل كبير في اعـادة تنظيم الاقتصاد الوطني في شرق البلاد . ولا بد من الاشارة على وجـه التخصيص بالجهـد الرائع الذي بذلته لجنة تشليابنسك الحزبية وعلـى راسهـا الرفيق باتالوتشيف .

وبدات اعادة تنظيم الصناعة والمواصلات وتوزيع الموارد الماديـة والبشرية ، وتهيئة الزراعة لخدمة المجهود الحربي . واخذت آلاف المصانـع

التي كانت بالامس تنتج السلع الاستهلاكية ، تنتج المعدات الحربية .
وعدل تصميم مصانع الصناعات الهندسية والميكانيكية لكي تتمكن من انتاج الدبابات والطائرات . وكلفت صناعة التعدين بالتوسع في انتاج الشرائط المصفحة ، ومستلزمات الصناعات الحربية وانواع ممتازة من الصلب وحددت للصناعات الالكترونية مهمات جديدة وطلب من مصانع تكرير البترول تركيز انتاجها في انواع الوقود اللازم للطائرات والدبابات والمدرعات . لقد حل انتاج اجهزة التفجير محل انتاج الساعات ، وكان حطام القاطرات يرسل الى ورش السكك الحديدية لاعادة التصنيع .

كان العدو قد احتل عددا من اهم المناطق الاقتصادية ، وشل حركة التعبئة العسكرية في المناطق العسكرية التي وقعت تحت الاحتلال ،لقد وقعت ملايين المواطنين ، وقدر هائل من الموارد تحت قبضة العدوالغاصب ففي الاراضي التي جرى احتلالها في مدى ثلاثة اسابيع كان يتركز ٤٠ بالمئة من المواطنين ، ٣٠ بالمئة من جملة الانتاج الوطني، وانخفض الى حد خطير انتاج المواد الاستراتيجية كالحديد والصلب ومصادر الطاقة وتعرضت المراكز الصناعية الجديدة للخطر الفعلي .

كان لا بد من اتخاذ قرارات استثنائية حاسمة لكي تقتلع المصانع من مواقعها ثم تنقل الى الشرق ، وتنضم الى الوحدات الانتاجية القائمة هناك . حتى يمكن الاعتماد على هذه المناطق في الاستعداد للانقضاض على العدو وايقاف زحفه ثم تدميره .

بدأ عمل لم يعرف التاريخ له مثيلا في ابعاده وطبيعته ! وبمقتضى قرار اللجنة المركزية للحزب الشيوعي، والحكومة السوفيتية تكونت « لجنة التهجير » عين لها شفيرنك رئيسا ، وكوسغين وبيرفوخين نائبين للرئيس ، وفي فترة وجيزة جدا من حزيران الى تشرين الثاني ١٩٤١ كان قد تم « تهجير » وتشغيل ما يزيد عن ١٥٠٠ مؤسسة صناعية كبرى معظمها خاص بالانتاج الحربي . وفي نفس الوقت كانت القوات تتزايد وباستمرار تتوجه نحو الغرب والجنوب الغربي حيث يدورالقتال.
كان هذا التحول العملاق يجري بمنتهى التوتر والايلام والعقبات والارهاق العصبي لكنه رغم كل شيء كان يجري دون توقف تحت الاشراف القيادي والتنظيمي للحزب.

(واعتقد ان ستارا من النسيان يسدل بغير حق على هذا الجانب البطولي في حياة الشعب والحزب . كذلك فان ما فعله الحزب والشعب

في هـذه المرحلـة العصيبة على الجبهـة الاقتصاديـة لا يأخذ للان مـا يستحقـه مـن الثنـاء) .

ان النظام الاشتراكي القائم علـى الملكية العامة لوسائل الانتاج لم يجد خيرا من تلك الظروف الخطيرة لكي يكشف خلالها بمنتهى الوضـوحعـن ميزاته الكبـرى .

ان ملحمة العمل الشعبي في تهجير وتشغيل الطاقات الانتاجية في سنوات الحرب ، والعمل التنظيمي الضخم الذي قام به الحزب لا يقـل مطلقـا في ابعاده واهميته بالنسبة لمصير وطننا عن اكبر المعارك في الحرب العالميـة الثـانيـة .

اذا لم تخني الذاكرة فان المكتب السياسي للحزب قـد قرر فيالايام الاولـى من الحـرب توجيه قرابة خمسيـن مـن اعضاء اللجنة المركزيـة الاصليين والاحتياطيين ، واكثر مـن مائـة من سكرتيرى لجان الحزب في المحافظات والاقاليم والجمهوريـات الاتحاديـة وكبار رجال الدولة المحنكين للعمل المباشر في جبهات القتـال . كذلك فقد قام الحزب بعدة اجراءات عمليـة من شأنهـا تقويـة القيـادة المركزيـة للحزب في مختلف الحيـاة العامـة وفي القوات المسلحـة على نحو خاص . وفي هذه الظروف اعيد تنظيم جهاز اللجنـة المركزيـة وتوزيع الاختصاصات على اعضائها ليتولى كل منهـم قيـادة قطاع معيـن من الشئون العسكرية والاقتصاديـة والسياسيـة .

معسكر حربي

(لقـد تمكـن حزبنـا باقتدار من تحويل البلاد كلهـا الى معسكر حربي) وكـان الشعب يؤمـن ايمانـا عميقـا بـان الحزب سوف يجـد مخرجا من هذا المأزق الصعب وسوف يتمكـن من تحقيقالنصر على القوات الفاشيـة الالمانية . كانت المسالة مسالـة وقت فحسب !

في ٣٠ حزيران ١٩٤١ تشكلت « لجنة الدفاع الوطني » برئاسـة ستاليـن السكرتيـر العام للحزب . وكانت للجنة صلاحيات وسلطـات مطلقة . وكـان يتحتم على جميع المنظمات المدنية والحزبيـة والحكومية ان تنفذ اوامر وتعليمـات « لجنة الدفاع الوطني » وكان للجنة ممثلـون يشرفون على تنفيذ قدراتها في الاقاليم والمحافظات والوزارات والمؤسسات والمنشـآت الكبـرى .

وكانت اجتماعات اللجنة تعقد في اي وقت من النهار او الليـل وغالبا

ما تكون في الكرملين اوداتشا ستالين (منزل ريفي في ضواحي المدن الكبرى . وقد جرت العادة في روسيا منذ القدم ان يكون للشخصيات المرموقة منازل من هذا الطراز يلوذون بها من ضوضاء المدن) . وفي هذه الاجتماعات كانت تناقش القضايا الهامة وتتخذ بشانها القرارات المناسبة ، وقد شهد هذا المنزل التخطيط للعمليات العسكرية الكبرى التي كان يشترك فيها اعضاء لجنة الدفاع واللجنة المركزية ومجلس الوزراء . وكان ذلك يضمن ــ حين تستدعى الحالة ــ تحقيق سياسة موحدة في مجال القيادة الاستراتيجية وتنسيق التعاون بين العمليات العسكرية والمجهود العام للشعب كله .

وكثيرا جدا ما كانت تثور مناقشات حادة ومحددة وفي العادة كان ستالين يدور حول المائدة وهو يصغي بانتباه الى الاراء المتعارضة . كان هو شخصيا لا يكثر الكلام ولا يحب اكثار الاخرين في القول . وكثيرا ما كان يقاطع المتحدثين بقوله : « اوجز » « اوضح » . كان يفتتح الاجتماعات بدون مقدمات او كلمات افتتاحية . واذا تكلم فبهدوء وطلاقة ونفاذ الى الجوهر مباشرة وكان يصيغ افكاره بوضوح وابجاز .

وحين كان المجتمعون لا يصلون الى راي موحد كانت على الفور تشكل لجنة تضم ممثلين للاطراف المتعارضة وتكلف بابلاغ المجتمعين بالاقتراحات التي يتفق الجميع عليها . هكذا كان يحدث ما لم يكن ستالين قد كون رأيا نهائيا . اما حين كان ستالين يدخل الاجتماع براي محدد فلم تكن المناقشات تثور اصلا او سرعان ما تهدأ حين ينضم ستالين الى احد الاطراف .

وطوال فترة الحرب اتخذت لجنة الدفاع ما يقرب من ١٠ آلاف قرار في المسائل العسكرية والاقتصادية .

المنظمات القتالية

كان ستالين انسانا قوي الارادة . ولا اذكر اني رايته مقهورا الى حد ما غير مرة واحدة . كان هذا في فجر ٢٢ حزيران ١٩٤١ حين تبدد يقينه من قدرته على الحيلولة دون وقوع الحرب .

منذ ٢٢ حزيران ١٩٤١ وطوال فترة الحرب كلها ، بالاشتراك مع اللجنة المركزية والحكومة السوفيتية ، كان ستالين بصلابة يقود البلاد والنضال المسلح وسياستنا الدولية .

رغم الموقف البالغ التعقيد ، كانت المنظمات الحزبية والهيئات

السوفيتية في أوكرانيا وبيلوروسيا والبلطيق تناضل من اجل التعبئة الشعبية النشيطة لمواجهة العدو . ولتحقيق هذا الهدف تكونت في الاراضي الواقعة تحت الاحتلال المؤقت تنظيمات سرية للحزب والكمسمول (كمسمول هي اختصار لثلاث كلمات روسية تعني اتحاد الشباب الشيوعي) وتشكلت الكادرات الرئيسية لفصائل المقاومة الشعبية التي انضم اليها القادة العسكريون والسياسيون للوحدات التي خرجت من الحصار .

ما ان وطئت اقدام العدو ارضنا حتى شعر بالكراهية التي يكنها المواطنون السوفيت للفاشية الالمانية وبالخسائر الجسيمة التي لحقت به على ايدي الرجال الذين انضموا الى العمل السري .

في تلك الايام لم يكن امام القيادة العليا غير طريقة واحدة : الدفاع على امتداد الجبهة الاستراتيجية . فالقوى والامكانيات لم تكن آنذاك تسمح بالقيام بعمليات هجومية كبرى . كان لا بد من تكوين قوات احتياطية استراتيجية ضخمة وتسليحها تسليحا يضمن لها التفوق على العدو ، ويمكنها من أخذ المبادأة ثم الانتقال الى العمليات الهجومية والشروع في طرد القوات المعادية من الاتحاد السوفيتي .

كل هذا تحقق .. ولكن ليس فورا .

فقواتنا قد انتقلت الى الدفاع الاستراتيجي نتيجة للانسحاب القهري . وقد فرض علينا ان نتحرك نحو الهدف بتجمعات تكنيكية وفي ظل عدم توفر القوى والامكانيات اللازمة لاقامة دفاع متين وعلى الاخص ضد الدبابات .

ولا يجوز ان ننسى ضعف قذائف مدفعيتنا المضادة للطائرات ، وعدم وجود غطاء جوي فعال . ففي بداية الحرب كان للعدو السيادة في الجو مما اضعف قوة جيشنا .

(ومع ذلك ، فبرغم عدد من الاخطاء وبرغم عدم المقاومة الكافية من جانب قواتنا المسلحة في بعض الاحوال ، تم تنظيم الدفاع الاستراتيجي على وجه العموم .)

وكما هو معروف فان القوات الالمانية حين جاء الدور عليها في المرحلتين الثانية والثالثة من الحرب ، سادها الشعور بمرارة الهزيمة على امتداد الجبهة السوفيتية لم تنجح في اقامة دفاع .. كذلك الذي اقمناه نحن .

في ذلك الوقت كانت اهداف دفاعنا الاستراتيجي كما يلي :

● ايقاف القوات الفاشيــة امام خطوطنا الدفاعية لاقصى مدة ممكنة كسبا للوقت حتى يتسنى لنـا الحصول على قوى اضافية من اعماق البلاد، وتكوين احتياطيات جديدة ، وحشدها ثم تحريكها في الاتجاهات الرئيسية .

● تكبيد العدو اقصى خسائر ممكنة ، وانهاكه واستنزاف دمه وبذلك يمكـن الى حد ما تدارك الخلل في ميزان القوى .

● تأمين الاجراءات التي يقوم بهـا الحزب والحكومة لتهجير المواطنين والمنشآت الصناعية الى أعماق البلاد ، وكسب الوقت الضروري لاعـادة تنظيم الصناعة طبقا لمتطلبات الحرب .

● الوصول الى الحد الاقصى من القوة لشن الهجوم المضاد بهدف تصفيـة المخطط الهتلري للحرب على وجه العموم .

واذا كنـا نركز جهودنـا على الدفاع الاستراتيجي فان قواتنا لـم تكتف بالصمـود في مواجهـة العدو في البر والبحر والجو . بل كانت تقوم كلمـا امكنهـا بشن هجمات مضادة على العدو ولقد سببت قواتنا المسلحة وقوات المقاومـة الشعبية للعـدو اضرارا بالغـة حينما استطاعت .

في اليوم الخامس من الحرب بدات بناء على قرارات اللجنة المركزية حركـة تجنيـد واسعـة لاعضاء الحزب والكمسمول . والحاقهم بقوات الجبهـة كموجهين سياسيين . وكان عليهم ان يصبحوا ركيزة للتنظيمات الحزبيـة العسكريـة .

فقبيل الحرب كـان عدد الشيوعيين في الجيش الاحمر والاسطول يبلـغ ٦٥٠ الفـا وفي خلال الشهور الستة الاولى منذ بدات الحرب التحق بالقوات المسلحـة اكثر مـن مليـون و٨٠٠ الف شيوعي .

في المؤلفات الاجنبية ما زلنـا حتى اليوم نصادف تصويرا للشيوعيين والعامليـن بالاجهزة الحزبيـة وكانهم « صفوة » او فئـة من اصحـاب الامتيازات في مجتمعنـا . وكانسان عسكري فانني اتمنى لكل دولـة ان تكـون بهـا مثل هـذه الصفوة « المتازة » التي يلبي ممثلوها النداء للموت في سبيل الوطن ببطولـة ووفاء ..

حدث كثيرا ان التقيت بالمقاتلين السياسيين المتوجهين الى جبهـات القتال كـان هؤلاء الرجال يحملون في طيـات انفسهم ايمـانا لا يتزعـزع بحتميـة انتصارنـا .. « انا لصامدون » .. كانوا يرددون .. وكنت اشعر بانهـا ليست مجرد كلمـات بل هـو اسلوب في التفكير .. هو نمـوذج اصيل للوطنيـة السوفيتية . وبروحهم التفاؤلية السامية كانوا يزرعـون الامل مـن جديد في النفوس التي بدات تجدب .

تضحية الشبان والفتيات

وفي ٣ حزيران القى ستالين كلمة من الاذاعة باسم اللجنة المركزية شرح فيها الموقف في الجبهة وناشد جموع الشعب السوفيتي ان يعيدوا تنظيم حياة البلاد واقتصادها على ضوء متطلبات الحرب مع العدو القوى الشرس . ودعا الحزب والشعب لان يهبا للنضال المقدس ضد العدو ، ولان يقضيا على الغفلة ويرفعا يقظتهما الى ابعد الحدود .

كانت كلمات ستالين التاريخية الى الشعب اشبه بناقوس الخطر المدوى والذي تسمع في اصدائه صيحة لينين الشهيرة « المجتمع الاشتراكي في خطر » وكان واضحا ان الناقوس سيظل يصدر رنينه الرنان حتى يرحل اخر غاصب فاشي عن اراضي الوطن .

ان الحزب باطلاق شعاره التاريخي « كل شيء من اجل الجبهة .. ان كل شيء من اجل النصر » قد وضع كل مواطن امام الخطر وجها لوجه .

وفي الجبهة والخطوط الخلفية ضرب فتياننا وفتياتنا اروع الامثلة على الوطنية السوفيتية . واظهروا استعدادهم للتضحية بحياتهم في سبيل الوطن .

في الايام الاولى من تموز عندما كان العدو يحتل مدينة مينسك ويحاول التقدم الى نهر بريوزينا ، كان من المقرر اسقاط مجموعة من المتسللين للتجسس على الخطوط الخلفية للعدو في منطقة مينسك وكانت المجموعة تضم شابين وفتاتين من الكمسول الذين يجيدون اللغة الالمانية. واعتقد ان الفتاتين كانتا من طالبات معهد اللغات الاجنبية . واتضح من حديثي معهما انهما من موسكو وعندما سألتهما الا يحسان برهبة من الخطوط الخلفية للعدو ؟ نظرتا الى بعضهما وتبادلتا الابتسام :

بالطبع . ثمة رهبة . وسوف يكون الامر سيئا لو اصطادونا في لحظة الهبوط بالمظلات . اما اذا مرت هذه اللحظات دون ان نقع في قبضة العدو فسوف يكون كل شيء على ما يرام .

الوطن ناداهم فلبوا النداء !

كان العدو يخطط لاختراق جبهتنا الغربية بقوات ضارية ضخمة ، وتطويق المجموعة الرئيسية من قواتنا في منطقة سموليتسك ، وفتح الطريق بذلك الى موسكو .

دارت عدة معارك ابلت فيها بلاء حسنا وخاصة وحدات الجيش

الحادي والعشرين بقيادة الجنرال ف ـ كوزيتسوف التي عبرت في ١٣ تموز نهر الدنيبر وحررت مدينتي روجاتشوف وجلوبين وانطلقت في الاتجاه الشمالي الغربي . واستشهد في هذه المعارك الجنرال بتروفسكي الذي اعرفه كواحد من اكثر القادة العسكريين ثقافة وموهبة والذي لولا استشهاده المبكر لاصبح بالتاكيد قائدا من ارفع طراز .

غيران العدو قد حشد قوات اضافية واستطاع في النهاية ان يقتحم مدينة سمولينسك . مما كان له اسوأ الوقع في نفوس اعضاء لجنة الدفاع وستالين شخصيا الذي فقد السيطرة على نفسه .. ولقد شعرنا نحن العسكريين بوطأة الغضب الستاليني . ولكن المعارك لم تخمد في سمو ليتسك بل اشتعلت من جديد وباعنف مما سبق بعد ان انشات القيادة العليا جبهة جديدة انتشرت على الخطوط الخلفية للجبهةالغربية. على ان هذه المعارك رغم القتال العنيف من جانب قواتنا قد انتهت على وجه العموم لصالح العدو ، وفشلت قواتنا في التقدم في اتجاه كييف .. وفي هذه المعارك الطاحنة استخدمت قواتنا لاول مرة قذائف« كاتيوشا »

في نهاية تموز ابلغت بضرورة التوجه بصحبة المارشال تيموشنكو قائد الجبهة الغربية حينذاك ، لمقابلة ستالين .

كنا نظن ان ستالين يريد مشورتنا في التخطيط لعمليات المستقبل . ولكن ثبت لنا ان الاستدعاء كان لغرض اخر فحين دخلنا مكتب ستالين وجدنا جميع اعضاء المكتب السياسي تقريبا جالسين حول المائدة بينما كان هو واقفا في منتصف الحجرة ممسكا في يده بغليونه غير المشتعل وهو دليل قاطع على سوء مزاجه .

قال ستالين : المكتب السياسي بحث وضع تيموشنكو كقائد للجبهة الغربية وقرر اعفاءه من هذا المنصب ـ وهناك اقتراح بتعيين زوكوف خلفا له فما هوو رايكما ـ كان يوجه السؤال الى تيموشنكو والي .

ظل تيموشنكو صامتا وتوليت انا الرد .

ـ ان كثرة تغيير القيادات تنعكس ـ ايها الرفيق ستالين ـ انعكاسا سيئا على تطور العمليات اذ يرغم القادة على الدخول في معارك طاحنة قبل ان يتمكنوا من التعرف على واقع الامور ـ فالمارشال تيموشنكو قد استلم قيادة الجبهة منذ ثلاثة اسابيع . وقد تعرف خلال معركة سمولينسك على قواته وادرك المدى الحقيقي لقدراتها ـ فهو قد فعل ما كان ينبغي ان يفعله اي قائد في مكانه وقد اوقف زحف العدو طوال شهر . واعتقد ان احدا غيره لم يكن ليستطيع ان يفعل اكثر من ذلك . وان القوات تثق في

تيموشنكو . وهذا اهم شيء واعتقد ان لتنحية تيموشنكو من قيادة الجبهة عمل غير عادل وغير حكيم .

علق ميخائيل كالينين على ذلك بقوله :

ـ هذا صحيح بالفعل

دون تعجل اشعل ستالين غليونه واخذ ينظر الى اعضاء المكتب السياسي ثم قال :

ـ هل توافق على راي زوكوف ؟

ـ انت على حق يا رفيق ستالين ـ ترددت بعض الاصوات ـ تيموشنكو يستطيع ان يتدارك الموقف .

وانتهت المقابلة بان طلبوا من تيموشنكو العودة الى الجبهة

الاستيلاء على اوكرانيا

كان واضحا ان تلك الملاحظات قد آلمت تيموشنكو للغاية ولكن الحرب لا تستبعد اي شيء . فليس من الميسور دائما ان تراعى لمشاعر كل فرد اثناء حل المسائل الصعبة والكبرى .

وفي اثناء معارك سموليتسك حاولت احدى مجموعات العدو شق الطريق الى لينينغراد عن طريق لوجا ولكنها لاقت الفشل وقد كررت القوات الفاشية المحاولة من جديد وقد نجحت في اختراق خطوطنا الدفاعية ولكنها اوقفت ثانية .

ما الذي كان يجري في اوكرانيا في ذاك الوقت ؟ حيث كانت قوات الجبهة الجنوبية الغربية تخوض معارك دفاعية عنيفة .

كان الاستيلاء على كييف هدفا كبير الاهمية بالنسبة للقوات الالمانية، فقد كان النازيون يحرصون على سرعة احتلال جمهورية اوكرانيا لكي يحرموا الاتحاد السوفيتي من استغلال امكانيات واحدة من اكبر القواعد الصناعية ، ولكي يستفيدوا هم في مجهودهم الحربي بخامات الحديد في « كريفوري روج » ومناجم الفحم في دونيتسك وخامات المنجنيز في نيكوبيل وكذلك بمحاصيل القمح الاوكرانية الوفيرة .

ومن الناحية الاستراتيجية فان الاستيلاء على اوكرانيا كان يفتح الطريق الى موسكو .

ومنذ الايام الاولى للحرب جاء تطور الاحداث مخيبا لتوقعات الالمان

ومخطط الحرب الخاطفة . فالقوات السوفيتية قد ابدت مقاومة عنيدة طول انسحابها تحت ضغط الهجوم الالماني المركز .

وبشجاعة واقتدار وبسالة قاتلت الجيوش الخامس ، والسادس ، والسابع والعشرين تحت قيادة الجنرالات بوتابوف ، كوستنكوه موزيتشنكو ويسعدني الاشارة بهؤلاء الجنرالات الشجعان خاصة ان ثلاثتهم كانوا من قبل قوادا للكتائب التي عملت تحت قيادتي في الفرقة الرابعة القوقازية في الفترة من ١٩٣٢ الى ١٩٣٦ .

الا ان وصول العدو الى نهر الدنيبر، والانطلاق في اتجاه زابوروجيا ودنبروبتردفسك واوديسا قد وضع القوات السوفيتية على امتداد الجبهة الجنوبية الغربية في وضع سيء جدا . على ان القوات الالمانية قد دفعت ثمنا باهظا لهذا النصر . فقد تكبدت خسائر جسيمة واستنزفت قواها الى مدى بعيد .

لقد رأيت الاحداث التي وصفتها بعد عودتي الى موسكو من الجبهة الجنوبية الغربية ، من موقع رئاسة اركان حرب القيادة العليا . وبهذه الصفة اشتركت فيها ، وتحملت عنها المسئولية بالتضامن مع بقية اعضاء القيادة ، واحسست في خلالها ببعض الراحة ازاء الانتصارات النادرة لقواتنا . وهنا يحيل لي ان الفرصة مناسبة لكي احدث قليلا عن القيادة العليا وعن ستالين شخصيا .

في ١٠ تموز اجرت لجنة الدفاع الوطني تعديلا على تنظيم القيادة العليا بحيث اصبح اعضاؤها : ستالين (رئيسا) مولوتوف تيموشنكو، بوديوفي ، فورشيلوف ، شابوشنيكوف وزوكوف . وفي ١٩ تموز تقرر تعيين ستالين وزيرا للدفاع وفي ١٨ آب اصبح ستالين القائد الاعلى للقوات المسلحة السوفيتية .

وقد استقبل الشعب والمقاتلون نبأ تعيين ستالين قائدا اعلى بامل كبير نظرا لما كان يتمتع به من شعبية كبيرة .

وبعد ذلك قررت القيادة العليا انشاء ثلاث قيادات عامة لادارةالقتال في الاتجاهات الرئيسية . ولكن هذا لم يكن يعني عدم التدخل المباشر من جانب القيادة العليا في شؤون الجبهات . فقد كانت القيادة العليا تتدخل نظرا لانها تخضع لقيادتها المباشرة الاحتياطي المحدود من القوات البرية والجوية في تلك الفترة . ولقد اضعف هذا بالطبع من استقلال القيادات العامة الثلاث .

مكتب ستالين

وقد كان المألوف ان ننفذ قرارات وتوجيهات القيادة العليا عن طريق رئاسة هيئة اركان الحرب . وكان اعداد القرارات واتخاذها يتم عادة في الكرملين في غرفة مكتب يوسف ستالين .

وكانت غرفة فسيحة مضيئة ، مكسوة جدرانها بالواح من شجر البلوط تتوسطها مائدة طويلة مغطاة بمفرش من الجوخ الاخضر . وعلى اليمين واليسار صورة مكبرة لماركس وانكلز ولينين . وفي فترة الحرب اضيفت صور سوفوروف وكوتوزوف (من ابطال الحرب الروسي القدامى ولهم في نفس الشعب الروسي منزلة خاصة فالاول قهر الاتراك والثاني قهر نابليون ومن كلماته الخالدة التي قال زوكوف في مذكراته انها لا تزال الى اليوم شعار الجندي السوفيتي « ضح بنفسك لانقاذ رفيقك ! »

وكان اثاث الحجرة بسيطا وبعيدا عن الابهة ، وفي الحجرة المجاورة نموذج ضخم للكرة الارضية وبجواره منضدة ، وعلى الجدران خرائط للعالم .

وفي اخر حجرة المكتب بجوار الحائط كان يوجد مكتب ستالين الذي كانت تتكدس عليه دائما اكوام من الوثائق والخطابات والخرائط ، وعلى المكتب بضعة اجهزة تليفونية . وفوق المكتب مقلمه بها مجموعة من الاقلام الملونة . وكان من عادة ستالين ان يضع تأشيراته باللون الازرق . كان يكتب بسرعة وبخط واسع لكنه واضح .

كان الداخل الى ستالين يمر عبر حجرة سكرتيره بوسكريبتيف ومقر صغير لرئيس الحرس الشخصي للقائد الاعلى . ومن وراء غرفة المكتب غرفتان احداهما استراحة والاخرى للاتصالات التليفونية واللاسلكية وعن طريقها كان السكرتير يوصل ستالين بقادة الجبهات وغيرهم .

وعلى المائدة الطويلة كان رجال اركان الحرب والقيادة العليا يفردون الخرائط ويدلون بتقاريرهم . كانت العادة ان يدلي القادة بتقاريرهم وقوفا . وكانت عادة ستالين ان يستمع الى التقارير وهويتمشى في ارجاء الحجرة ثم يقترب في بعض اللحظات من المائدة ويحدق في الخرائط باهتمام ليتبين الموقف . ونادرا ما كان يتوجه الى مكتبه ليأخذ كيسا من التبغ ليفضه ويملأ غليونه .

كانت المهمة الرئيسية للقيادة العليا تتلخص في اعداد المهمات الاستراتيجية التي توضع للتنفيذ امام الجبهات المختصة ، وتوزيع القوى والموارد على جبهات القتال وتخطيط وتحديد نشاط القوات المسلحة بوجه عام .

وكانت المسائل الصغيرة ذات الاهمية الاستراتيجية تناقش في حضور اعضاء لجنة الدفاع الوطني ، وقادة هيئة اركان الحرب ، وقواد الاسلحة ، وغيرهم من كبار المسئولين العسكريين ، وكان قواد الجبهات يحضرون هذه الاجتماعات اذا كانت المناقشة تتعلق بامور تدخل في نطاق اختصاصهم . .

وفي اجتماع القيادة العليا كانت تسود الجو روح العمل الجدي، وكان كل واحد يستطيع ان يدلي برايه صراحة ، وكان ستالين يعامل الجميع بطريقة موحدة تتصف بالجدية والرسمية . وكان يجيد الاستماع حين تتلى عليه تقارير جوهرية .

وبالمناسبة فقد تاكدت طوال سنوات الحرب من ان ستالين لم يكن على الاطلاق الشخص الذي لا يمكن ان تطرح عليه اسئلة حادة،ولم يكن الشخص الذي لا يمكن معارضته . بل كان من الممكن ان يتمسك المرء برايه المعارض لراي ستالين . واذا كان هناك من يؤكد عكس ذلك فاني اقول بصراحة : ان مزاعمهم غير صحيحة .

كان ستالين لا يطيق الاجابات المائعة . كان يتطلب الوضوح والدقة الكاملة . ولم يكن من الممكن ان يذهب المرء اليه بخريطة عليها « بقعة واحدة بيضاء » ولم يكن من الممكن ان تدلى في حضرته بمعلومات تقريبية او مهولة .

كان ستالين يتمتع بقدرة خاصة على اكتشاف نقط الضعف في التقارير او الوثائق . .كان يلاحظها على الفور ويحاسب المسئول عن عدم توخي الدقة . . واذا كان يتمتع بذاكرة حادة فانه لم يكن ينسى ما سبق ان قيل له ، ولم تكن تفوته فرصة لوم الاخرين على النسيان . ولهذا فقد كنا نحاول ــ قدر استطاعتنا في تلك الفترة ــ ان تعد له تقارير هيئة اركان الحرب بمنتهى العناية .

وصف ستالين

ويشيد المارشال زوكوف باعضاء هيئة اركان الحرب بكفاءاتهم العالية ويقول انه طوال فترة الحرب لم يفقد حرارة الصلات الوثيقة بمعاونيه.

اتيحت لي فرصة التعرف عن قرب علي يوسف ستالين بعد عام ١٩٤٠ حين عينت رئيسا لهيئة اركان الحرب ، وخاصة في فترة الحرب حين كنت اعمل مساعدا للقائد الاعلى .

كثيرا ما كتبوا عن المظهر الخارجي لستالين . . غير طويل القامة ، غير

مثيــر للانتباه من الوهلة الاولى ، لكنه قوى التأثير في الناس ، وكان ابعد ما يكــون عن التصنع والادعاء ، وقادرا على استمالة جليسه اليه ببساطته الشديدة فيالتعامل مع الغير .

ان طبيعته المنطلقــة في الحوار وقدرته على التعبير عن افكاره بدقة، وعقله التحليلي بالفطرة ، وحنكته الكبيرة ، وذاكرته الخارقة كانت ترغــم حتى الشخصيات الكبير اهميةومهارة على تركيز فكرهم وجمع شتات انفسهم قبيــل التحدث الى ستاليــن .

لميكن ستاليــن يطيق الجلوس طويــلا وفي اثناء الحوار كان غالبــا ما يتمشى في الحجرة ويقف من برهــة الى اخرى ثم يقترب من جليسه ويقف ملقيــا اليه نظرة فاحصة مباشرة لتميز بالصفاء والنفاذ .
كان يتكلم بصوت خافت ومعفواصل محددة بيــن كل عبارة واخرى. وفي خلال الحديث لم تكــن تبدر منه تقريبا ايــة ايماءات وغالبا ما كــان يمسك بغليونه في يده سواء كان مشتعلا ام لا ، وكان من عاداتــه انيسوى شاربــه بطرف غليونه .

كــان يتكلم بلكنــة جورجية ملحوظة . ولكنه كــان يعرف اللغــة الروسية بامتياز وكان يجب استخدام الاستعارة ، والامثال ، والتشبيهات الادبيـــة .

كان ستاليــن نادرا مــا يضحك ، واذا ضحك فبصوت خفيض يكاد الا يكــون مسموعــا لاحد غيره . لكنه كــان يحسن تقديــر النكات والقفشات كــان حادالنظر ، يستطيع القراءة في اي وقت من النهار او الليــل دون استعمــال نظارة . وكقاعدة كان يكتب بنفسه... كــان قارئا نهما وواسع الاطلاع في اكثر المجالات تنوعا . من الصعب القول اي الصفحات كانت في شخصيته ابرز ممــا عداهــا فهو قد كــان انسانا متعـــدد الجوانب ، موهوبا وذو ارادة قويــة .

كان في العادة هادئا رزين التفكير لكن هذا لا يمنع انــه كان احيانا يستشيط غضبا . حينذاك كــان يتخلى عن موضوعيته . كان هذا التحول يظهر على نحو تدركه العين ، فيزداد وجهه شحوبا ، وتصبح نظراته ثقيلة وقاسيــة قليلون اولئكالشجعان الذين عرفت عنهم قدرتهم على احتمــال الغضب الستاليني .

كانت حياة ستاليــن اليوم غير عادية . فقــد كان يعمل اساسا في

المساء والليل . لم يكن يستيقظ قبل الثانية عشرة ظهرا . وكان يعمل وقتا طويلا يمتد من ١٢ ـ ١٥ ساعة في اليوم . وتمشيا مع برنامج الحياة اليومية لستالين كانت اللجنة المركزية ، ومجلس الوزراء، والوزارات واجهزة التخطيط ودواوين الحكومة، تعمل حتى وقت متاخر من الليل .

كان هذا ينهك الناس بشدة !

استطيع ان اكرر : كان ستالين باستمرار يدرس كثيرا مسائل التسليح والتكنيك الحربي وكان كثيرا ما يدعو كبار مصممي الطائرات والدبابات والمدافع ويسألهم في تفاصيل تصميماتهم لهذه الانواع من الاسلحة وتصميم النماذج المشابهة في الخارج . ويجب ان اعطيه حقه، كان يفهم في نوعيات التسلح الرئيسية على نحو غير سيء .

وبدون موافقة ستالين لم يكن يستُخدم اي نوع من الاسلحةوالمعدات او يلغى استخدامه . وطبيعي كان هذا يعوق مبادأة وزير الدفاع ومساعديه الذين يشرفون على شئون تسليح الجيش الاحمر .

قبل الحرب الوطنية العظمى وخاصة بعد الحرب كان يشار الى الدور العظيم الذي لعبه ستالين في انشاء القوات المسلحة ، ووضع اسس العلم العسكري السوفيتي ، والمبادىء الاساسية في مجال الاستراتيجية والعمليات ؟

لقد درست ستالين بمنتهى التفصيل كرجل عسكري . وذلك بحكم انني خضت الحرب كلها معه .

كان ستالين متمكنا من مسائل تنظيم العمليات الجبهويةوالعمليات التي تشترك فيها عدة جبهات . وكان يقودها بمعرفة كاملة للامر . مع فهمه الجيد للمسائل الاستراتيجية الكبرى وقد بدات مواهبستالين كقائد عام تظهر على وجه خاص ابتداء بستالينغراد .

لقد كان قادرا على العثور على الحلقة الرئيسية في الوضع الاستراتيجي ، وعلى ان يبدي ـ قابضا عليها ـ مقاومة للعدو ، وان ينظم هذه او تلك من العمليات الهجومية الكبرى .

لا شك انه كان قائدا اعلى قديرا !

***

ويقول زوكوف انه كان ينسب لستالين شخصيا وضع بعض المبادىء العسكرية السوفيتية في اساليب الهجوم بالمدفعية ، وتحقيق

السيطرة الجوية ، واساليب تطويق العدو ، وتشتيت وحدات العدو المحاصرة ثم القضاء عليها فرادى والواقع ان هذه القضايا في الفن العسكري هي بمثابة ثمار جنيت في التطبيق ، في القتال والمعارك ، وهي حصيلة تفكير عميق وتعميم لخبرات مجموعة كبيرة من القوات والقادة.

« وفضل ستالين في ذلك انه اخذ بنصائح الخبراء العسكريين وطورها ووضعها في صيغة عامة في المراجع واللوائح والتوجيهات كما انه قدمها دون ابطاء للقوات للاسترشاد بها » .

« ومن ناحية تنظيم كل ما تحتاج اليه الجبهة فاني اقول صراحة انه كان موهبة تنظيمية عملاقة » .

وينهي زوكوف كلامه بواقعة مثيرة بينه وبين ستالين اذ كان كمفكر عسكري قد توصل الى ان الهجوم على موسكو لن يكون وشيكا ، وان الهجوم على لينغراد سوف يتأخر حتى تحقق القوات الفاشية نصرا حاسما على الجبهة الوسطى ، وكان سقوطها لو حدث من شانه ان يعرض موسكو للخطر .. وفكر في الحل فوجد ان « الممكن الوحيد في الوضع القائم هو انسحاب القوات السوفيتية الى ما وراء نهر الدنيبر تمهيدا للاستعداد لشن هجمات مضادة قوية ذات طابع استراتيجي . ولكن هذا الحل كان يعني ترك كييف عاصمة اوكرانيا . ويقول زوكوف انه كان يعلم كم كان هذا مؤلما للشعب السوفيتي وستالين .. لكنه لم يستسلم للنزعات العاطفية وعندما واجه ستالين بالحقيقة احتد النقاش بينهما

ـ ما هذا الهراء ..كيف استطعت ان تصل في تفكيرك الى تسليم كييف للعدو ؟

ـ اذا كنتم تعتبرون ان رئيس هيئة اركان الحرب قادر فقط على الهواء فليس له هنا محل عندئذ . وانا اطلب اعفائي من رئاسة هيئة اركان الحرب وارسالي الى الجبهة فهناك ـ فيما يبدو ـ سوف اكون اكثر نفعا للوطن !

ـ لا تنفعل .. وبالمناسبة .. اذا كنت هكذا تطرح القضية فنحن بدونك نستطيع تدبر الامور .

ـ ان لي وجهة نظري الى الموقف ووسائل خوض الحرب . ولقد عرضتها كما تبدو لي وهيئة اركان الحرب .

ـ اذهب الى عملك . وسوف نتشاور هنا ثم نستدعيك .

فجمعت الخرائط وخرجت من الغرفة غاضبا ..

وبعد ٤٠ دقيقة استدعيت لمقابلة القائد الاعلى

ـ تشاورنا في الامر وقررنا اعفاءك من مهام منصب رئيس هيئة اركان الحرب . وسوف نعين شوبوشنيكوف بدلا منك ـ الواقع ان صحته ليست على ما يرام . . ولكنا سنساعده .

ـ الى اين تأمرونني بالتوجه ؟

ـ والى اين ترغب ؟

ـ استطيع ان اؤدي اي عمل . استطيع ان اقود فرقة او جيشا او جبهة .

ـ لا تنفعل . . لا تنفعل . . انت في تقريرك تحدثت عن تنظيم ضربات مضادة في منطقة « يلين » فخذ على عاتقك هذه المهمة سوف نعينك قائدا للجبهة الاحتياطية . متى تستطيع الرحيل ؟

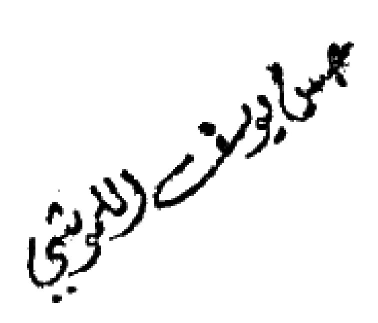
ـ بعد ساعة . .

ـ ليكن في علمك انك لا تزال عضوا في مجلس القيادة العليا .

ـ اسمحوا لي بالانصراف

ـ اجلس لتناول الشاي معنا ـ ثم اخذ يبتسم ـ فسوف نتحدث في بعض الموضوعات

جلسنا الى المائدة واخذنا نشرب الشاي غير ان الحديث لم يتم .



الفصل العاشر

من يلين الى لينينغراد

ـ بالسيف والسيف وحده ـ الاخطار في وجه العمليات الحربية ـ تصورات ستالين عن تطور الحرب ـ

« لم امكث طويلا في مقر الاركان ... بل اخذت اتعرف على المنطقة .. »

ما الذي كان يحترق ؟ لم اكن ادري . الا ان منظر الحرائق كان يثير في نفسي انطباعات مريرة . ففي لهيب النيران كانت تتبدد الثروة الوطنية وعمل الشعب السوفياتي طوال سنوات عديدة . سألت نفسي : كيف وبماذا ينبغي ان يرد الشعب السوفياتي على العدو الذي يبذر الدمار في طريقه الدموي ؟
لم يجل بخاطري غير رد واحد..بالسيف وبالسيف وحده لا بد من ابادة العدو الشرير .

بعد مناقشة الموقف مع القواد ادركت ان العدو قد اتقن اقامة دفاعه ولا بد انه سيقاتل بعنف . ففي الخطوط الامامية وفي الاعماق كان قد حفر خنادق لدباباته ووحدات مدفعيته وحول بذلك منطقة لسان يلين الى منطقة جيدة التحصين .

وفى العشرينات من شهر آب بدأت الضربة المضادة الرئيسية التي قـــام الجيش الرابع والعشرون بتسديدها الـى قوات العـــدو . ونشبت معارك ضارية على خط القتال . لم تقف العمليات اثناء الليل والنهار . وكان التفوق لنا في الجو وكان العدو يسلط نيرانا كثيفة مركزة على مواقعنا .

ويروي المارشال زوكوف كيف استطاعت احدى كتائب المشاة الاستيلاء على قرية فولوسكوفو لكنها بذلك وقعت فـــي حصار . وبمساعدة الطيران وبعض وحدات الفرقة ١٠٧ استطاعت الكتيبة بعـد قتال استمر دون توقف ثلاثة ايام من الخروج من الحصار بل القضاء على العدو والاستيلاء على محطة سكة حديد .

كم كانت مثل هذه الامثلة البطولية تتكرر بجانبك ، ومن حولك ، وفـــي كل موقع ، في الليل والنهار .

دفع العدو ثمنا باهظا في الاحتفاظ بلسان « يليـــن » كراس جسر . وابلغت ستالين بنتائج عملية « يلين » . دمرت للعدو خمس فـرق ، وخسر ٤٧ ـ ٥٠ الف جندي ما بين قتيل وجريح ، وكمية كبيرة جدا مـن المدافع والهاونات . ولكننا لم نتمكن من انجاز تطويق حشود العدو في لسان يلين . اذ لم تكن تتوفر لدينا الامكانيات الكافية .

وطاردنا العدو في ٧ ايلول حتى نهر ستريان وفـــي ٨ ايلول اصدرت تعليماتي بمواصلة التقدم الهجومي مع تنسيق الجهود مـع مجموعة الجنرال سوبينكوف .

كنت قد ازددت يقينا بصحة موقفي فيما يتعلـق بمستقبل العمليات . (الموقف الذي تسبب في اعفاء زوكوف من رئاسة اركـــان الحرب) وحيث انني كنت لا ازال عضوا في مجلس القيادة العليا فقد وجدت من واجبي ان اواصل اقناع القيادة برايي .

في ١٨ آب ابرقت الى ستالين بما يلي :

« العدو يعدل مؤقتا عن الهجوم على موسكو لتأكده مـن وجود حشود كبيرة لقواتنا في الطريق الى العاصمة . وهو قد انتقل الـــى الدفاع ضـد الجبهتين الغربية والاحتياطية موجها كل قواته الضاربة من الآليات المتحركة والدبابات ضد الجبهات الوسطى والجنوبية الغربية والجنوبية .

والتخطيط المحتمل للعدو هو القضاء علـى الجبهة الوسطى والوصول الى منطقة تشرنيجوف ـ كونتوب ـ بريلوكي مع توجيه ضربة خلفية لجيوش الجبهة الجنوبية الغربية ، وبعد ذلك يبدأ الهجوم على موسكو .

ولقطع الطريق على هذا المخطط الخطير للعدو ارى من الضروري والعاجل حشد قوات ضخمة في منطقة تشرنيجوف ـ كونتوب ـ بريلوكي . وبهذه القوات يمكن توجيه ضربة الى جناح العدو المهاجم .

وفي اليوم التالي ١٩ آب تلقيت رد ستالين :

« تصوركم فيما يتعلق بهجوم العدو المحتمل على منطقة تشرنيجوف ـ كونتوب ـ بريلوكي هو في نظرنا صحيح ... تتخذ الاجراءات المناسبة . يجري تكوين جبهة جديدة .. »

الى الجبهة

كنت اعلم ما هي القوة الحقيقية لجبهة برانسك الجديدة التي يجري تكوينها على عجل ، ولذلك وجدت من الضروري ان الح على القائد الاعلى في الامر بانسحاب جميع قوات الجناح اليميني للجبهة الجنوبية الغربية الى ما وراء نهر دنيبر .

لكن نصائحي لم يؤخذ بها .

قال لي ستالين : انه تكلم منذ لحظات مع خروشوف وكيربونوس وان هذين قد اقنعاه بانه لا يجوز الانسحاب من مدينة كييف في الوضع الراهن باي حال من الاحوال . كان هو نفسه معتقدا ان جبهة برانسك اذا لم تقض على العدو فانها على الاقل سوف تعطل تقدمه .

ومعروف ان الجبهة الجنوبية الغربية قد دفعت فيما بعد ثمنا باهظا لهذا الموقف غير القائم على التحليل الدقيق للوضع .

وفي ٨ أيلول استدعاني ستالين .

ـ لا بأس بما فعلته في منطقة لسان « يلين » . كان الحق الى جانبك عندما ناقشنا الامر من قبل (يقصد يوم المناقشة الحادة) والى أين تريد الآن ان تتوجه ؟

ـ الى الجبهة مرة اخرى .

ـ الى أي جبهة ؟

ـ الجبهة التي ترونها .

ـ توجه الى مشارف لينينغراد . فلينينغراد تعاني الآن من وضع حرج ... ان الالمان لو تمكنوا من الاستيلاء على لينينغراد فانهم سوف يلتحمون بالفنلنديين ويبداون في توجيه الضربات في اتجاه موسكو من الشمال الشرقي . مما يزيد الوضع تدهورا .

ـ اوافق على السفر فورا . ارجو السماح لي باصطحاب اثنين او ثلاثة من الجنرالات لاحلالهم محل القواد المنهكين .

ـ خذ معك من تشاء ـ ثم تنهد قليلا واضاف ـ الوضع يتدهور في الجبهة الجنوبية الغربية . وقد قررنا تغيير القيادة . فمن الذي يمكنك ترشيحه .

ـ ان المارشال تيموشنكو قد اكتسب خبرة كبيرة في تنظيم العمليات وهو يعرف اوكرانيا جيدا . ولذلك اقترح ارساله .

تأهبت للخروج حين سألني ستالين :

ـ كيف تتصور الخطط المقبلة وامكانيات العدو .

ـ في هذه اللحظة ارى ان الجبهة الجنوبية الغربية هي منطقة الخطر الاولى بعد لينينغراد . انني اكرر اقتراحي بسحب جميع القوات الى الضفة الشرقية لنهر الدنيبر . وعلى اساسها ينبغي تكوين قوات احتياطية في مكان ما من منطقة كونتوب .

ـ وما هو مصير كييف ؟

ـ مهما كان الامر مؤلما فلا بد من اخلاء كييف. ليس امامنا مخرج آخر.

الصمود سبيل النصر

وقبل توجهي الى لينينغراد قمت بزيارة فاسيليفسكي الذي كان وقتها المساعد الاول لرئيس هيئة اركان الحرب وسألته عن الوضع فيما يتعلق بالاتجاه الجنوبي الغربي فأجاب :

ـ اعتقد اننا تأخرنا جدا في سحب قواتنا الى ما وراء الدنيبر . .

وهنا اريد ان اقطع تسلسل الاحداث مر شهر ونصف مرير منذ بدأ الحرب كانت خسائرنا فادحة في اليوم الاول فقط من الحرب خسرت القوات المتمركزة بمناطق الحدود ما يقرب من ١٢٠٠ طائرة وكان العدو بدباباته ومدرعاته وطائراته يتقدم ليهاجم تجمعاتنا ويضرب اجنحتها ويدمر خطوط وشبكات المواصلات . وراح ضحية ذلك عشرات الالاف من الجنود والمواطنين السوفيات .

ومع ذلك فمنذ البداية لم تكن الاحداث وفق حسابات وتقديرات القيادة الالمانية . فما الذي عاق توغل الالمان في بلادنا بالمعدل السريع الذي توقعوه ؟ البطولة الجماعية لقواتنا ، ومقاومتهم المستميتة وصمودهم الباسل ، والوطنية لدى الجيش والشعب .

ان التاريخ والعصر يقدمان امثلة غير قليلة لقوات فقدت قدرتها على المقاومة ولاذت سريعا بالفرار ملقية اسلحة ممتازة فلا احد يستطيع ان يرسم خطوطا فاصلة بين دور السلاح والمعدات الحربية وبين دور الروح المعنوية

للقوات . الا انه بالتاكيد ، اذا تساوت الامكانيات تكون الغلبة في المعارك الكبرى والحروب من نصيب القوات التي تتسلح بارادة في النصر لا تقهر ، وبادراك الهدف من القتال وبالتماسك الروحي ، وبالاخلاص للرايات التي تحارب تحت ظلها .

وفي هذا المجال ارى من المناسب ان اعطي الكلمة للعدو الذي واجهناه في الحرب الوطنية العظمى (اشرنا من قبل الى ان الحرب العالمية الثانية تطلق عليها هذه التسمية في الاتحاد السوفياتي) .

يشكو الجنرال كورت مدير المخابرات العامة الالمانية من ضعف امكانيات التجسس على الاتحاد السوفياتي مما جعل « تقدير القوة العسكرية للاتحاد السوفياتي ولو على نحو تقريبي مهمة تكاد تكون مستحيلة التحقيق » .. « ولقد كانت الدوائر السياسية في المانيا تامل بشدة ان تنهار الدولة السوفياتية بعد بضع هزائم عسكرية كبرى » ... « لقد تاهب الاتحاد السوفياتي للصدام المسلح على قدر استطاعته . ولم تكن القيادة الالمانية تستطيع الاعتماد على المفاجاة الاستراتيجية وكان اقصى ما يمكن ان نصل اليه هو ان نحتفظ بسرية موعد الهجوم ، لكي تساعدنا المفاجاة التكتيكية على التوغل في اراضي العدو » ... « وكان الهدف الرئيسي لخطة بارباروس يتلخص في تدمير القوات الروسية للجيش الروسي الموجود في المنطقة الغربية من روسيا (كان الاصح ان يقال : « ... من الاتحاد السوفياتي فهذه المنطقة تضم عده جمهوريات قومية مثل اوكرانيا وبيلوروسيا ، ولاتفيا ولوتوانيا ...) ، ودق عدة اسافين ، بواسطة الدبابات والمدرعات التي تتوغل في عمليات سريعة شجاعة لتقطع الطريق على القوات السوفياتية القادرة على القتال للحيلولة دون انسحابها المنظم الى اعماق الاراضي الروسية الشاسعة . وكان على القوات الالمانية ان تتقدم الى المدى الذي يجعل القوات الجوية السوفياتية تتاخر عن القيام بغارات جوية على الاراضي الالمانية وكان الهدف النهائي للعملية هو الوصول الى خط « الفولجا ـ ارخانجل » لكي تتمكن القوات الجوية الالمانية اذا استدعي الامر ـ من شل المنطقة الصناعية الوحيدة المتبقية لدى روسيا .

وتتصف هذه الخطة بالتفاؤل الذي ينبغي تفسيره بالزهو الذي نشأ عن الانتصارات السريعة على فرنسا ..وجاراتها. ولهذا فهي تتوقع من العدو دورا سلبيا كذلك الذي شهدته المانيا في حروبها السابقة » ... « لم يكن لدى هتلر اي شك في ان عملية واحدة تكفي للقضاء على الاتحاد السوفياتي »...

« لقد ابدى العدو قدرة على المقاومة لا نظير لها على الاطلاق . ان الخسائر الفادحة التي تكبدها ليس فقط في صيف ١٩٤١ بل وفي فترة الهجوم الشتوي الذي شاركت فيه مجموعات ضخمة من القوات لم تكن قادرة على تحطيم صلابة الجيش الاحمر . فقد كان لا يزال لديه عدد كاف من الكادرات القيادية للبدء في تكوين تشكيلات جديدة وتدريبها على القتال .

الحرب العالمية الثانية

وفي كتابه « الحرب العالمية الثانية » يستشهد ف. س. فولليرر باقوال الصحافة الالمانية في ٢٩ حزيران ١٩٤١ ومن بينها ما جاء بصحيفة « فيولكشير بيوباختر » : « يتفوق الجندي الروسي على عدونا في الفرب بازدرائه للموت ، فاحتماله وتعصبه يدفعانه الى الصمود حتى يقتل في مخبئه او يسقط في قتال بالسلاح الابيض » .

وفي صحيفة « فرانكفورتر تسيتونج » قيل في ٦ تموز : « ان التسلل النفسي الذي كان يترتب في الفرب عادة على اثر التوغل الخاطف لم يلاحظ الى هذا الحد في الشرق » . ففي معظم الحالات لم يكن العدو فقط يحتفظ بقدرته على التحرك بل كان بدوره يحاول ان يطوق الكماشات الالمانية (يعني الالتفاف المضاد) . ولقد كان هذا الى حد ما ظاهرة جديدة في التكنيك الحربي وهو ما كان مفاجأة لم يتوقعها الالمان .

وفي المذكرات اليومية لرئيس اركان حرب القوات البرية لالمانيا الفاسية الجنرال جالدر جاء ما يلي :

« ٨ تموز ١٩٤١ : اليوم السابع عشر من بداية الحرب : الساعة ١٢٫٠٠ تقرير الى الفوهرر في مقر قيادته العليا . شرح قائد القوات البرية اخر تطورات الموقف على الجبهة ثم القيت انا تقريري عن وضع العدو ووضع قواتنا . اسفرت المناقشة عما يلي :

١ ــ يرى الفوهرر ان الحل المطلوب والامثل هو ان تقوم قوات جيش « الوسط » بمحاصرة قوات العدو المواجهة لها والقضاء عليها .. ثم فتح الطريق الى موسكو .

٢ ــ يقرر الفوهرر بحسم قاطع اقتلاع موسكو ولينينفراد من الارض حتى يتم التخلص نهائيا من سكان هاتين المدينتين . والا فاننا سنكون مضطرين لاطعامهم فيما بعد طوال فترة الشتاء . على الطيران ان يتكفل

بمهمة سحق المدينتين . لا داعي لتدخل الدبابات في تحقيق هذا الهدف ».
ويعترف جالدر في مذكراته اليومية بالخسائر الباهظة التي منيت بها القوات الالمانية « في الشهرين الاولين فقط من الحرب فقدت القوات البرية الالمانية زهاء ٤٠٠ الف جندي » ويشير المارشال زوكوف الى ان « القوات الالمانية المقاتلة فقدت في الفترة من حزيران الى كانون الاول ١٩٤١ على جميع الجبهات الاخرى عدا الجبهة الالمانية السوفياتية قرابة ٩ الاف جندي فقط (!) ثم ارتفعت خسائر العدو حتى نهاية عمليات الصيف والخريف الى ٨٠٠ الف جندي » .
كل هذا على الرغم من الظروف السيئة التي صادفتنا. فالخبرة القتالية كانت متوفرة لدى العدو الذي كان يخوض الحرب منذ فترة طويلة ، وكانت المبادأة في يد العدو الذي شن هجومه الغادر ، كما كان التفوق في جانبه كما وكيفا حيث انه قد استعد طويلا لشن الحرب وطور كثيرا من اسلحته ومكن قواته الى حد بعيد . كذلك فقد كان لدى العدو تفوق بارز في الامكانيات والموارد الاقتصادية خاصة بعد اجتياحه لاوروبا .
ثم يعود المارشال زوكوف في مذكراته الى تكليفه بقيادة الجبهة في منطقة لينىنغراد فيقول انه استقل الطائرة الى موقعه الجديد في ٩ ايلول ١٩٤١ .
« في تلك الفترة كانت لينىنغراد بالفعل تمر بفترة عصيبة . ولقد كان وضع القوات والمواطنين شاقا الى حد اعتقد معه ان احدا غير المواطنين السوفيات لم يكن على الاغلب يستطيع ان يتحمله .
وحين نتذكر نحن الذين بقينا على قيد الحياة تلك الايام فانه لا يسعنا الا ان نحني الرؤوس احتراما عميقا للذكرى المشرقة التي خلدها اولئك الذين وهبوا اثمن ما يملكه البشر .. وهبوا حياتهم فداء للوطن ولمستقبل الاجيال اللاحقة .
ففي نهاية آب كانت القوات الالمانية قد تمكنت من محاصرة لينىنغراد بحيث لم يبق للمدينة اتصال بالوطن الصامد الا عن طريق الجو وبحيرة لادوجا . وكان الفنلنديون يتحينون الفرصة للهجوم على المدينة من الشمال .
وصلت وبصحبتي الجنرال جوزين والجنرال فيديونينسكي الى قصر سمولني حيث مقر اركان حرب جبهة لينىنغراد . واوقفنا الحرس ومنعنا من الدخول وعبثا حاولت تعريفه بنفسي اذ لم يكن معنا تصريح بالدخول . تلك هي الخدمة العسكرية ؟ (كان قصر سمولني هو مقر قيادة ثورة اكتوبر الاشتراكية عام ١٩١٧) .

وحين دخلت مقر اركان الحرب كان النقاش يـدور بين اعضاء المجلس العسكري للجبهة عن الاجراءات التـي يتحتم عملها اذا قـدر لينينغراد ان تسقط في قبضة الغزاة الالمان ، والمنشآت العسكرية التي يجب تدميرها في هذه الحالة .

في مساء ١٠ تشرين الاول ١٩٤١ تسلم المارشال زوكوف قيادة الجبهة وعلى الفور وضع بمساعدة عدد من القواد (استشهد معظم مـن ذكرهم) خطة دقيقة للدفاع عن مدينة لينينغراد « مهـد » ثورة اكتوبر وحاملة اسم الزعيم « لينين » . « جراد » بالروسية تعني مدينة ومـن هنـا تأتي تسمية بعض المدن بأسماء قادة الثورة مثل لينينغراد وستالينغراد الخ . .

« بعد . . ٩٠٠ يوم من الصمود عاشها الجيش الاحمـر ، والاسطـول ، وسكان لينينغراد الجبلية . فلا التضحيات الهائلة ولا الجـوع ولا البـرد استطاع ان يفل عزيمة وبسالة المدافعين عـن مدينة لينين كانت اللجنـة المركزية للحزب تتابع الموقف في لينينغراد يوميا وتعبىء كافـة الامكانيـات والموارد لمساعدة المدينة المحاصرة . لقد اصبحت بطولة لينينغراد اسطورة . كان بودي ان اصف بالتفصيل كل ما دار طيلـة الايام التسعمائة العصيبـة ولكنني ببساطة لا أجد الكلمات المناسبة للتعبير عن بطولة حماة لينينغراد .

واني لافخر بتكليفي قائدا لجبهة لينينغراد في الفترة التي اصبح العدو فيها على مشارف المدينة المهددة بخطر مميت .

وفي كانون الثاني ١٩٤٣ كلفتني لجنة الدفاع الوطني بتنسيق الجهـد مع فورشيلوف لكي تقوم جبهتا لينينغراد وفولخوف بعملية مشتـرك لرفـع الحصار عن لينينغراد .

كل هذا قد زاد ارتباطي بلينينغراد ومواطنيها الذين شعرت ازاءهم ولا زلت اشعر باكبر درجات الاحترام .

كتب الكثير عن بطولة لينينغراد الخارقة لكنني ارى أنه لا بد من اصدار سلسلة من الكتب ــ الملاحم عن لينينغراد وبقية المدن ــ البطلة (« مدينـة ــ بطلة » . . هو لقب حازت عليه بضع مدن سوفياتية تقديرا لبطولتها فـي الحرب العالمية الثانية ومن بينها موسكو ولينينغراد وستالينجراد) . ولا بد ان تكون هذه الكتب ــ الملاحم مزودة بالصور وفي طباعة انيقة ، ومبنية قبل كل شيء على المواد الحقيقية الوثائقية وان تسجل الاحداث فيهـا باخلاص وصدق . . لدينا ما يسمى بالمدن ــ الشقيقة ، « والمدن الرفيقة » الخ هذه المسميات . . ولكن المدن ــ البطلة ليست كثيرة العدد جدا وهي موجودة في بلادنا السوفياتية .

الفصل الحادي عشر

معركة الدفاع عن موسكو

ـ الالمان على ابواب موسكو .. ـ احرق الالمان قريتي .. « وبيت امي » . ـ من الذي يقول « لا » لهتلر ـ .

في ٥ تشرين الاول سنة ١٩٤١ ، اتصل ستالين بالمارشال زوكوف وطلب منه الحضور الى موسكو بالطائرة ، لاخذ رايه فيما ينبغي عمله ازاء تدهور الوضع على الجناح الايسر من الجبهة الاحتياطية . ولكن الاحداث على الجبهة تطورت على نحو منع زوكوف من السفر الى موسكو .... واتصل به ستالين مرة اخرى في ٦ تشرين الاول سنة ١٩٤١ ..

ـ ما هي تطورات الوضع عندكم ؟ وما الجديد في تحركات العدو ؟

ـ خفف الالمان حدة الهجوم ، وبناء على استجوابات الاسرى ، فان قواتهم قد تكبدت خسائر جسيمة في معارك ايلول ، اتخذت على اثرها مواقع الدفاع في ضواحي لينينغراد . ويسلط العدو الان نيرانه على المدينة بالطيران والمدفعية ، وقد رصدت طائراتنا الاستطلاعية تحركات كبيرة لدبابات العدو وطوابير مدرعاته من لينينغراد في اتجاه الجنوب . والغالب انها تتجه نحو موسكو .

كرر ستالين مطلبه بحضور زوكوف فورا الى موسكو وتعيين غيره في قيادة الجبهة مؤقتا .

ويقول زوكوف : « دعوت اعضاء المجلس العسكري لجبهة لينينغراد ، جدانوف ، كوزنيتسوف ، شتيكوف ، كابوستين ، سولوفيوف ، الذين عملت معهم بروح الصداقة الوطيدة اثناء الايام العصيبة للدفاع عن لينينغراد » .

في ٧ تشرين الاول ، توجه زوكوف الى مقابلة ستالين في مسكنه الخاص بالكرملين ، نظرا لانه كان وقتها مصابا بانفلونزا ، واخبره ستالين بأن القيادة لا تعرف الوضع الحقيقي في الجبهة الغربية ، ولهذا فهي لا تستطيع ان تتخذ اي قرارات محددة ، وطلب منه ان يسافر على الفور الى هناك ليدرس الموقف على الطبيعة ويتصل به من هناك في اي وقت ، فسوف يكون في انتظار مكالمته .

وفي الطريق كنت ادرس الوضع على الخريطة في ضوء بطارية جيب .. وحتى لا يغلبني النعاس كنت من وقت الى آخر اوقف السيارة .. واجرى على قدمي برهة يسيرة .

وهناك تدارست الموقف مع القادة . فما الذي حدث على الجبهة الغربية . حتى بداية الهجوم في اتجاه موسكو ، كانت المداخل البعيدة الى العاصمة محصنة بثلاث جبهات : الغربية بقيادة الجنرال كونيوف ، والاحتياطي بقيادة المارشال بوديوني ، وبرانسك بقيادة الجنرال يريمتكو . وفي نهاية ايلول كان تحت تصرف هذه الجبهات قرابة ٨٠٠ الف من انشط المقاتلين ، و ٧٨٢ دبابة ، و ٦٨٠٨ مدافع ميدان وهاونات ، و ٥٤٥ طائرة . وكانت اكثر القوى والموارد تحت تصرف الجبهة الغربية .

وفي اثناء الاستعداد للهجوم على موسكو ، كانت حشود العدو قد تفوقت على حشود جبهاتنا الثلاث ، بما يعادل ١ر٢٥ مرة في المشاة ، ٢ر٢ مرة في الدبابات ، ٢ر١ مرة في المدافع والهاونات ، ١ر٧ مرة في الطائرات.

وفي ٣٠ ايلول شن العدو هجومه على جبهة برانسك ثم في ٢ تشرين الاول امتد الهجوم الى الجبهتين الغربية والاحتياطية .. وبعد ضربات قوية للعدو على الجبهات الثلاث ، استطاعت قواته الضاربة ان تتقدم الى الامام . ومن الشمال والجنوب استطاعت ان توقع مجموعة من قوات الجبهتين الغربية والاحتياطية في حركة كماشة. وتقدمت قوات العدو بقيادة جودريان نحو الجنوب ، فاستولت على مدينة اورل ، حيث لم تكن لدينا قوات كافية لصد الهجوم ، واصبحت قوات الجيشين الثالث والثالث عشر التابعين

للجبهة الغربية في وضع حرج يهددها بالوقوع في الحصار . وقد تم للعدو اختراق جبهة برانسك ، التي تكبدت خسائر جسيمة ، واضطرت الى الانسحاب في سلسلة من المعارك .

واصبح الوضع خطيرا في الطريق الى تولا .

يزداد الجيش الالماني اقترابا من العاصمة السوفياتية . وفي فجر ٦ تشرين الاول ، وقعت في الحصار غربي نهر فيازما مجموعة كبيرة من قوات جبهة برانسك ، والجبهة الغربية ... وفي رايي ان قواتنا كانت تستطيع تفادي الكارثة لو انها استطاعت بتحليل الموقف جيدا ، ان تكتشف اتجاه ضربات العدو المركزة وتعبيء قواتها على نحو يمكنها من صد الهجوم ..

في الثانية والنصف فجر يوم ٨ تشرين الاول ابلغت ستالين — وكان ساعتها يقظا — بانني ارى الخطر الرئيسي الان في ضعف دفاعنا من ناحية ماجايسك ، وانه يتحتم تدعيم هذه المنطقة بقوات من اي مكان . والا فاننا لن نفاجأ اذا ظهر العدو على مشارف موسكو .

ثم اتفقت مع ستالين ، على ان اذهب للبحث عن مقر قيادة بوديوني ، وان اتصل به من هناك ، وفي صباح ٨ تشرين اول وصلنا الى اوبنينسكويا (على بعد ١٠٥ كيلو مترات من موسكو) ، ورأينا جنديي لاسلكي يمدان سلكا من فوق جسر على نهر بروتفا فسألتهما :

— الى اين تمدان السلك يا رفاق ؟

فاجابني جندي فاره الطول ، دون ان يعيرني اي التفات :

— نمده الى حيث امرنا .

واضطررت الى تعريفه بنفسي ، وببحثي عن مقر قيادة بوديوني ، وحينئذ نصب الجندي قامته واستدرك :

— معذرة ايها الرفيق الفريق اول. نحن لم نعرفك شخصيا من قبل، ولهذا اجبناك على ذلك النحو — ثم دلنا على موقع القيادة — .

قابلت رئيس الاركان الجنرال مخليس الذي افادني ان القائد غير معروف مكانه واظهر تخوفه من ان يكون قد جرى مكروه للمارشال بوديوني، خصوصا وانه كان بالنهار بين قوات الجيش الثالث والاربعين ، وفهمت ان رئيس الاركان يحاول تجميع الوحدات المشتتة تمهيدا لاعادة تسليحها وتشكيلها . ولم اصل الى معلومات قيمة عن آخر تطورات الموقع ، فقررت ان اقوم بنفسي بجولة تفقدية .

وحين عبرت نهر بروتفا ، عادت الى ذاكرتي سنوات طفولتي . كنت

اعرف هذه الاماكن جيدا ، ذلك انني في باكورة صباي قد تجولت في انحائها بالطول وبالعرض . فعلى بعد ١٠ كيلومترات من مقر قيادة الجبهة الاحتياطية تقع قريتي ستريلوكفا .. هناك لا زالت تعيش امي ، واختي بابنائها الاربعة . كيف تراهم الان ؟ ماذا لو مررت بهم ؟ لا .. ليس في الامكان . الوقت لا يسمح . ما الذي يمكن ان يلم بهم لو وقعت القرية تحت الاحتلال الفاشي ؟ وما الذي يمكن ان يفعله الفاشيست بهم لو عرفوا انهم اقارب الفريق اول زوكوف ؟ لا بد انهم سيطلقون عليهم الرصاص . ينبغي ان انقلهم الى منزلي في موسكو في اقرب فرصة ممكنة .

وبعد اسبوعين احتل الفاشيست قرية ستريلكوفا . ولكن ابناء بلدتي لم يجلسوا وايديهم على صدورهم . فقد نظموا فصيلة من الفدائيين الذين شنوا كثيرا من الهجمات الجسورة على اركان حرب ، ومواقع ، ومناطق شئون ادارية للعدو . وفي احدى المرات دمروا مقر اركان حرب فيلق من قوات الغزو .

وعندما اضطر الالمان للانسحاب اشعلوا النيران في القرى ، ومن بينها ستريلكوفا . والتهمت النيران بيت امي ...

البحث عن جبهة

ويروى زوكوف ذكريات مثيرة عن بحثه اللاهث عن انقاض جبهة كاملة، وكيف كان هو رئيس الاركان السابق وعضو القيادة العليا ، وقائد جبهة لينينغراد ، يبحث غير بعيد من موسكو عن قوات كبيرة فرقتها ضربات العدو، لكنها لم تقتل فيها روح الفداء والاصرار على القتال وهو يعثر على المارشال بوديوني في مدينة تبدو خاوية من كل سكانها ، فاذا بوديوني لا يعرف اين المقر الجديد الذي انتقلت اليه قيادته ، واذا به يصادف قوات صغيرة ، قوامها بضع مئات من الرجال تتحدى فرقة باكملها ، واذا به في احدى الغابات يتوقف على صوت جندي يحذر من مواصلة المسير . فالالمان على بعد كيلومترات ، ويكتشف ان الجندي يتبع لواء دبابات باكمله استطاع ان ينسحب بانتظام واختار له قائده موقعا تصور ان القتال لا بد ان يجري من حوله، واذا به يسمع عن مدينة كان الطريق اليها خاليا الا من شرطيين اثنين فقط ، ويقف على اخبار فرق وفيالق محاصرة لكنها لا تزال تقاوم ، بل وتقوم داخل الحصار بهجمات مضادة . وليس يشغل بالها قوادا وجنودا الا امر واحد هو الخروج من نطاق الحصار ليس طمعا في النجاة ، بل تطلعا

الى الالتحام مع بقيـــة قوات جبهتهـــا لمواصلة المعركة ، واذا به يشهد معارك محدودة لكنها ببســالة الرجال القلائل قد لعبت دورا عظيمـــا في وقت زحف قوات العـــدو نحـــو العاصمـــة .

ويصف كيف كـــان في طريقه يتوقف من حين الى حين ليدرك ان كان ينطلق الـــى ارض محتلة ام الى ارض صامدة ، خشية ان يقع في ايـــدي العدو ، ويرسم زوكوف لوحات انسانية مؤثرة لجدة تبحث بين انقاض بيت عن شيء ما .. واذ كانت عجوزا متهالكـــة ،فقـــد اشفق عليها وتوقف ليسالها عـــن امرها ، فأهل المدينة كانوا قد رحلوا عنها ، فاذا امراة اخرى تبحث هي الاخرى عن شيء ما .. فأمـــا العجوز فكانت تملأ من البئر اناء حين قصف طيران العـــدو بيوت المدينة ، ورات بعينيها كيف انهار البيت الذي كـــان فيه وقتهـــا حفيدان لها . وجنت العجوز .. وتركها المارشال حزينا وهي تواصل بين الانقاض بحثها عن الطفلين . .واما المراة الثانيـــة فكانت تبحث بيـــن انقاض بيتها عن شيء قد يفيدها من ملابس او خلافه .

ثم يعود المارشال زوكوف الى سرد ذكرياته عن الحرب .. فيقول انه في كالوجا ، تلقى اشارة تليفونية من رئيس هيئة اركان الحرب ، يطلب فيها منه ان يذهب الى رئاسة اركـــان حرب الجبهة الغربية وينتظر مكالمة مـــن ستاليـــن في ١٠ تشرين اول . وفي الوقت المحدد اتصل به ستالين :

ــ قررت القيادة تعيينك قائدا للجبهة الغربية .. هل لديك اعتراض ؟

ــ كلا .. لا يمكـــن ان يكون لدى اعتراض .. فقط ارجو ارسال مزيد من القوات الاحتياطية ، حيث ان العدو يحتمل ا ن يطور في القريب ضرباته في اتجـــاه موسكـــو .

المقاومـــة الخارقـــة

ويقول زوكوف انه شرع على الفور في تنظيم الاجراءات الضروريـــة لاقامة خط دفاعي متماسك ومدعم بمؤخرة قوية ، وفي تاميـــن التسليـــح والامدادات ، « واهم من ذلك كله تنظيم العمل الحزبي السياسي لرفع الروح المعنويـــة للمقاتلين ، وتاكيـــد ثقتهم في قوتهم ، وفي حتمية قهر العدو علـــى مشارف موسكـــو . »

« كانت الجبهـــة تشهد عملا متوترا طوال الليـــل والنهار ، وكان الناس يسقطـــون من الارهاق وقلة النوم ، ولكنهم مدفوعون بالاحساس بالمسئولية الشخصيـــة عن مصير موسكو ومصير الوطن ، قد بذلوا جهودا جبارة لبناء خطوط دفاع قويـــة تحول دون الوصول الى موسكو » .

وفي مساء ٧ تشرين اول ، بدات القيادة العليا تدفع الى الجبهة بقوات كبيرة ، تكونت منها اربعة جيوش قوامها ٩٠ الف مقاتل . وبالطبع فقد كانت هذه القوات غير كافية لاقامة خطوط دفاع متينة على امتداد الجبهة ، ولكن القيادة العليا لم تكن وقتها قادرة على تقديم مزيد من القوات ، ولاسباب عديدة كان قد تاخر استحضار قوات اضافية من الشرق الاقصى (المقصود بالشرق الاقصى هو المناطق السوفيتية المتاخمة لحدود اليابان والصين) .

وهكذا كانت الجبهة الغربية قد تكونت — في واقع الامر — من جديد. تلك الجبهة التي وضع التاريخ على كاهلها عبئا مضنيا ... الدفاع عن موسكو . وحتى هذا الوقت كانت القوات المحاصرة لا تزال تواصل القتال المرير .. .حتى تستنزف قدرات العدو على غزو موسكو .

ومنذ ١٣ تشرين اول ، اشتعل القتال الضاري في كل الاتجاهات الهامة المؤدية الى موسكو .

لقد كانت اياما عصيبة بحق !

واتخذت اللجنة المركزية ولجنة الدفاع الوطني قرارا بتهجير السلك الدبلوماسي ، وعدد من المؤسسات الحكومية المركزية من موسكو الى كوبيشيف . وكذلك بنقل النفائس ذات الاهمية الخاصة .

ويوما بعد يوم كانت الغارات الجوية على موسكو تزداد شدة ، حتى لم يكن مساء واحد يخلو من الغارات . ولكن الحزب في ذلك الوقت كان قد فعل الكثير من اجل تدعيم قوات الدفاع الجوي ، وكان ملايين السكان في موسكو قد خاضوا ، بناء على تعليمات الحزب تدريبا على الوقاية الذاتية من القصف الجوي .. حتى لم يعد « الوهيج » يخيف الموسكوفيين.

ومنذ ٢٠ تشرين الاول ،اعلنت في موسكو وضواحيها حالةالطوارىء. وطبق داخل الوحدات المدافعة عن موسكو نظام في غاية الصرامة . وكانت الاجراءات الحاسمة تتخذ في حالة المخالفات الجدية للقوانين .كذلك فقد قطع سكان موسكو الطريق على اولئك الذين يسهلون مهمة العدو باثارة الفزع .

لقد واجهت العاصمة الخطر المحدق بها ببطولة . وكانت نداءاتاللجنة المركزية بسحق العدو مفهومة للموسكوفيين والمقاتلين ، وكافة الشعب السوفيتي . ووجدت هذه النداءات صدى عميقا لها في افئدة الناس .لقد احال الموسكوفيون العاصمة والمشارف المطلة عليها الى قلعة حصينة لا يمكن اقتحامها . ولمواجهة كافة الاحتمالات ، فقد كون الشعب العامل في

موسكو مئات الكتائب المسلحة وفصائل المقاومة ومجموعات المقاومة الانتحارية للدبابات . وفي وقت واحد كان ١٠٠ الف من مواطني موسكو يتدربون على السلاح دون الانقطاع عن الانتاج . ان العمل المتعدد الجوانب للشيوعيين في موسكو وضواحيها ، من اجل توحيد قوى الشعب العامل في الدفاع عن موسكو ضد العدو الشرير قد امتزج بالملحمة البطولية .

وبمبادأة شعب موسكو ، كان المتطوعون في الشهور الاولى من الحرب قد شكلوا خمس فرق للمقاومة الشعبية للدفاع والهجوم ... كان المتطوعون من مختلف المهن والاعمار ، لكن شيئا مشتركا كان يجمع بينهم ، وهو الصلابة المتناهية ، والايمان بالنصر . وهل هي مجرد صدفة ان كثيرين من المتطوعين لقوات المقاومة الشعبية قد التحقوا بالقوات المسلحة ـ بعد ان احسن تدريبهم ـ وكانوا من خيرة المقاتلين في التشكيلات العسكرية .

وتلبية لنداء اللجنة المركزية ، تطوع آلاف من الشيوعيين والكمسمول ـ من موسكو وغيرها من المدن ـ للالتحاق بالجبهة كموجهين سياسيين ، وفي الوقت نفسه فانهم في القتال قد رفعوا الروح المعنوية بقوة المثال .

ايها الرفاق

وفي ايام تشرين الاول العصيبة ، وجه المجلس العسكري للجبهة الغربية نداء الى القوات جاء فيه :

« ايها الرفاق : ان حياة كل منا هي ملك الوطن ، في هذه الساعة التي تتعرض دولتنا فيها للخطر الرهيب . ان الوطن يتطلب من كل فرد منا اقصى ما يقدر عليه من صلابة ، ورجولة ، وبطولة .. ان الوطن ينادينا لان نقف سدا منيعا في طريق قطعان الفاشيست الى موسكو الحبيبة . ان الوقت ـ كما لم يحدث من قبل ـ يفرض علينا اليقظة ، والانضباط الحديدي ، والتنظيم ، والعمل الحاسم ، والاصرار العنيد على النصر والاستعداد للتضحية بالذات » .

كانت الاحداث الحاسمة تقترب .

ونظرا لان خط دفاع موجايسك ـ مالاويارسلافيتس ـ سيربوخوف ، كان قد دعم بقوات ليست على قدر كبير من القوة ، ولان العدو كان قد سيطر على بعض مواقعه ، وخوفا من ان يخترقه العدو في الطريق الى موسكو ، فقد قررت قيادة الجبهة ، الانتقال الى خط الدفاع التالي . ولما

كان الخط التالي اكثر امتدادا مما يصعب السيطرة على جميع القوات اثناء القتال ، فقد وافقت القيادة العليا على اقتراح الجبهة الغربية بضم جيوشها الثاني والعشرين ، والتاسع والعشرين ، والثلاثين ،والحادي والثلاثين ، الى قوات جبهة كاليفين التي يجري تكوينها جديداً تحت قيادة الجنرال كونيوف .

كان وضع جبهة برانسك لا يزال سيئا نظرا لان معظم قوات الجبهة كانت محاصرة . وبعد معارك بطولية استطاعت هذه القوات ان تخرج من نطاق الحصار المضروب حولها . ولكن طلائع جيش جودريان انطلقت في مطاردة لقوات جبهة برانسك ، حتى وصلت الى مشارف مدينة تولا . (تبعد عن موسكو حوالي ٢٥٠ كيلومترا ، وفي ضواحيها عاش كاتب روسيا العظيم ليف تولستوي) .

قام العدو طوال شهر تشرين الثاني سنة ١٩٤١ ، بمحاولات مستميتة للاستيلاء على مدينة تولا ، وبذلك يشق طريقه الى موسكو من ناحية الجنوب. غير انه فشل في ذلك ، كانت تولا تقف في وجه العدو كقلعة شامخة الاسوار . لقد قيدت تولا بذلك اقدام وايدي كل الجناح الايمن للقوات الالمانية ، مما اضطر العدو الى مواصلة تقدمه من وراء المدينة دون مزيد من الاصرار على اقتحامها ، ولهذا السبب كان العدو مرغما على نشر قواته مما افقدها الكثافة التي تميز بها جيش جودريان في عملياته التكتيكية.

لقد كان لتولا وسكانها فضل كبير في تدمير قوات العدو حول موسكو .

بطولات في سبيل الوطن

ويقول المرشال زوكوف انه لا داعي لذكر تفاصيل العمليات ، فتلك مهمة قد اضطلعت بها كتب التاريخ في الاتحاد السوفيتي مرارا . ويكتفي فقط بأن يشير الى ان القوات الفاشية قد استطاعت طوال عمليات تشرين اول ان تقطع في الطريق الى موسكو ٢٣٠ ـ ٢٥٠ كيلومترا ، بعد معارك طاحنة دامية . على ان خطة هتلر في الاستيلاء على موسكو قبل منتصف تشرين الاول قد باءت بالفشل . واصبح العدو بالقرب من موسكو منهك القوى مبعثر القوات .

ويقول زوكوف ان ذكر اسماء الابطال الذين برزوا في معارك تشرين اول سنة ١٩٤١ ، دفاعا عن العاصمة ، امر غير قابل للتحقيق . فالبطولة لم تكن صفة لافراد بعينهم ، بل كانت من طابع تشكيلات باكملها استحقت

المجد ببطولاتها القتالية في سبيل الوطن . ولقد كانت مثل هذه التشكيلات في كل موقع . وفي اتجاه موجايسك ، واجهت فرقة المشاة الثانية والثلاثون ، بقيادة العميد بولوسوخين ، الفيلق الميكانيكي الاربعين للعدو (واتضح من الحلقات السابقة ان الفيلق يتكون من عدة فرق او فرقتين على الاقل) . وبعد قرابة مائة وثلاثين عاما من حملة نابليون ، كان من نصيب هذه الفرقة تعميد سلاحها مع العدو على ارض بورديفو .. على نفس الارض التي صارت منذ عهد بعيد من مقدساتنا القومية ، وبمثابة نصب تذكاري خالد للمجد العسكري الروسي . ان مقاتلي الفرقة الثانية والثلاثين لم يسيئوا الى هذا المجد ، بل زادوه تألقا (ارض بورودينو هي المساحة التي اقتتل عليها جيشا نابليون وكوتوزف ، وانتهت باول هزيمة لنابليون ... ومن بعدها ظل يتقهقر حتى غرقت بقايا قواته في نهر بريوزينا).

في اول تشرين الثاني سنة ١٩٤١ ، استدعيت الى القيادة العليا .

قال ستالين : بمناسبة ذكرى ثورة تشرين اول .. نحن نريد ان نقيم عرضا عسكريا في موسكو ، بالاضافة الى الاجتماع السياسي . فما رأيك ... هل يسمح لنا الوضع في الجبهة باقامة مثل هذا الاحتفال ؟

فاجبته : في الايام القليلة القادمة لن يشن العدو هجوما واسعا ، فهو قد تكبد خسائر فادحة في المعارك السابقة وهو الان مرغم على استكمال واعادة تشكيل قواته . ولمواجهة طيران العدو الذي لا بد انه سوف ينشط ، اقترح تقوية الدفاع الجوي باستدعاء قواتنا الجوية المقاتلة قريبا من موسكو .

ومعروف ان الاجتماع السياسي قد انعقد قبيل العيد في ردهة محطة مترو « ماياكوفسكي » (نفق يمتد مئات الامتار تحت الارض ، ويستطيع ان يتسع لعدد من المدعوين يزيد على ما تتسع له قاعة الاحتفالات في الكرملين . ولعل المكان قد اختير كاجراء امن في ظروف الحرب خاصة وان المدعوين هم كبار رجال الحزب والدولة والجيش) ، واقيم العرض العسكري يوم ٧ تشرين الثاني في الميدان الاحمر . وكان لهذا الحدث تاثيره البعيد المدى على رفع الروح المعنوية للجيش والشعب . وفي خطابه ردد ستالين من جديد ايمان الحزب والحكومة بالقضاء الحتمي على العدو .

وذات يوم جرى بيني وبين القائد الاعلى اتصال تليفوني لا يسر .

قال ستالين لزوكوف : انه ورئيس هيئة اركان الحرب يعتقدان انه من الضروري تفادي ضربات العدو بتوجيه ضربات مضادة تحذيرية ، وحدد اتجاهات الضربات ، فقال زوكوف : وباي قوى يمكن توجيه هذه الضربات

.. الجبهـة الغربية ليست لديهـا قوات طليقة . لدينا من القوات ما يكفي للدفـاع فقط .

وحدد ستاليـن المواقع التي يمكـن سحب بعض القوات منها .

فرد زوكوف : لا وقت الان للعمل لهذا . فنحن لا نستطيع ان نوجـه آخر احتياطيات الجبهـة للقيـام بضربات احتمال نجاحها محل شك . لـن نجـد ما ندعم بـه الدفاع حيـن يشـن العدو هجومـا بقواته الضاربة .

ستالين : في جبهتك ستة جيوش . فهل هذا قليل ؟

زوكوف : ان خط دفاع الجبهة الغربية قد امتد طويلا ، وهوبانحناءاته يبلـغ الان اكثر من ٦٠٠ كيلومتر . لدينا احتياطي قليل جدا في العمـق، وخاصة في وسط الجبهـة .

ستالين : اعتبر مسالة الضربات المضادة امرا منتهيا . ابلغني بالخطـة مساء اليوم .. هكذا انهى ستالين الحوار متبرما .

تهديد ستالين

وبعد ١٥ دقيقة جاءني بولغانين وقال وهو على عتبة الباب :

ـ يا لغسيل المخ الذي تعرضت له الآن .

ـ ما الذي تعنيه ؟

ـ قال لي ستالين : لقد اصابك الغرور انت وزوكوف .. ولكننا سوف نجد طريقة للقصاص منكما . وطالبني بان اجيئك علـى الفور ، وان ننظـم الضربات المضادة دون ابطاء .

ولمواصلة الزحف الى موسكو ، امدت القيادة الالمانية قوات دعم اضافية حتى بلغت الحشود الالمانية في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٩٤١ : ٥١ فرقة على الجبهة الغربية ، ١٣ فرقة على جبهة كلين ـ فولكولامسك ، ٩ فرق فـي اتجاه تولا ـ كشير ، ٤ فيالق في الاتجاه الجنوبي .

وفي ١٥ تشرين الثاني ، بدات المرحلة الثانية من الهجوم على موسكو . واستمرت المعارك بعنف بالغ حتى ١٨ تشرين الثاني . ولا اذكر بالتحديد في اي يوم بعد هذه المعارك بقليل اتصل بي ستالين تليفونيا وسالني :

ـ هل انت واثق من قدرتنا على الاحتفاظ بموسكو ؟ انني اسالك والالم يحز في نفسي . تكلم بشرف ... كشيوعي .

ـ بالتاكيد فاننا سنحتفظ بموسكو . ولكننا نحتاج الى جيشين ومائتي دبابة على الاقل .

واشتدت حدة المعارك من جديد ، وعلى كل الجبهات « وكانت جبهـة

الدفاع تتلوى كثيرا ، مما يترتب عليه ظهور اماكن ضعف .. وكان يبدو لنا ان الكارثة على وشك الوقوع .. ولكن هذا لـم يحدث ... فالمقاتلون لـم يتخاذلوا ، بل اعتمدوا على قوات الدعم في اقامة خط دفاع لا يقهر .

كان وضع الجبهة محرجا ومثيرا لاكبر انفعالات القلق والتوتر ، ويروي المارشال زوكوف واقعة في غاية الطرافة ، فقـد اتصل ستالين تليفونيا ، وقال له انه قد ابلغ بأن مدينة ديدوفسك قد سقطت في قبضة الالمان (من ضواحي موسكو) فلما اجاب زوكوف بأنه لم يعرف بذلك عنفه ستالين على جهله بتطور الوضع على جبهته . ثم امره بالتوجه فورا الـى هناك وتنظيم عملية هجوم مضاد لاسترجاع ديدوفسك . ولكن زوكوف تأكد من ان فـي الامر لبسا ، فالتي سقطت ليست مدينة ديدوفسك ، بـل قرية ديدوفا .. وحين ابلغ زوكوف هذه الحقيقة الى ستالين ، قال القائد الاعلى ، وهو فـي قمة تبرمه : ما دام الامر كذلك فعليك أن تسافـر فورا ومعـك الجنرال روكوسوفسكي لكي تستعيدا بالقوة هذه القرية الملعونة . ولم يكن من الممكن اقناع ستالين بالعدول عن ذلك.. ويحكي زوكوف كيف دهش روكوسوفسكي ودهش قائد المنطقة التي توجد بالقرب منها هذه القرية لبيوتها التي تعد على الاصابع .. وقد استرجعت هذه القرية فعلا بقوة « اورطة » واحدة .

وفي اول كانون الاول شن الالمـان هجوما علـى الجيشين الخامس والثالث والعشرين وانتهى هذا الهجوم الغادر بالفشل .

وفي الايام الاولى كان قد ظهر جليا ان العدو الالماني لـم يعد بقواه وموارده قادرا على مواصلة الهجوم . ومـن استجواب الاسرى ، ظهـر ان القوات الالمانية لم تعد تثق في امكانية الاستيلاء على موسكو .

وتكبدت الجبهة الغربية بدورها خسائر فادحـة ، واصبحت منهكـة القوى ، لكنها لم تسمح للعدو باختراق الجبهة في أي موقع . لقـد ضاعف المدافعون عن موسكو قواهم عشرات المرات مستمدين صلابتهم مـن الدعم الاحتياطي ، ومن نداءات الحزب .

في خلال المرحلة الثانية من محاولة غزو موسكو ، فقد الالمان مـا يزيد عن ١٥٥ الف قتيل وجريح ، وحوالي ٨٠٠ دبابة ، وما لا يقل عن ٣٠٠ مدفع ميدان ، وقرابة ١٥٠٠ طائرة . ولقد ادت الخسائر الفادحة ، وعـدم انجاز الاهداف الاستراتيجية الى غرس بذور الشك في جماهير القوات الالمانيـة في النصر النهائي في الحرب . وفقدت القيـادة السياسية العسكريـة الفاشية مظهرها في أعين الرأي العام العالمي « كقوة لا تقهر » .

يحاول الجنرالات والمارشالات الهتلريون السابقون القـاء مسؤوليـة

فشل خطة غزو موسكو على هتلر شخصيا ، لرفضه نصائحهم بـــأن نواصل قوات جيش « الوسط » هجومها الظافر المقــرر فــي آب ... واصــدار اوامره بايقاف هذا الجيش وارسال مجموعة كبيرة من قواته الى اوكرانيا .

يقول ف. ملنتين : « كان يمكن لعملية ضرب موسكو ، التـــي كـــان جودريان من انصارها ، والتي تخلينا عنها في آب مؤقتا حتــى نستولي اولا على اوكرانيا ، كان يمكن لهذه العملية ان تنتهي الـــى النجاح لـــو حظيت باستمرار بالنظر اليها كضربة رئيسية يتوقف عليها مصير الحرب . وكـــان يمكن أن تمني روسيا بهزيمة بطعنة في القلب » .

ويرى الجنرالات جودريان ، وجـــوت وآخرون ، ان السبب الرئيسي لهزيمتهم حول مشارف موسكو هو الطقس الروسي القاسي ، بالاضافة الـــى اخطاء هتلر .

طبيعـــة الجـــو

لا شك في ان للطبيعة والمناخ دورهما في أي عمليات حربية . ولكــن هذه الظروف تؤثر بنفس الدرجة في القوتين المتحاربتين . نعم .. لقد كان وطننا حريصا على تدفئة ابنائه بالملابس الشتوية الملائمة ، بينما كــان الالمان يلجأون الى سلب الاهالي كل ما يقع تحت ايديهم من ملبوسات ، ولكن المسألة في النهاية ليست مسالة طقس ، فالقيادة الالمانية قد اعدت جنودها لنزهــة سريعة تستغرق اسابيع او شهورا في روسيا . وذلك خطأ فــــي التقديرات السياسية والاستراتيجية وقعت فيه الزعامة الفاشية .

لا .. ليس المطر او الثلج هو الذي اوقف القوات الفاشية على مشارف موسكو . فالمليون جندي الماني ، قد تحطموا علــى صخرة الدفاع الصلب ، الرجولي ، البطولي للقوات السوفياتية ، التي كان الشعب والوطن والعاصمة يشدون أزرها .

وفيما يتعلق بالاستيلاء على اوكرانيا اولا . فلولا ذلك لامكن ان يصبــح وضع قوات جيش « الوسط » النازي اسوا بكثير مما كان في الواقع .

وبوصفي قائدا سابقا للجبهة الغربية فانني اريد ان اشترك في الرد على السؤال الذي كثيرا ما يطرح نفسه : كيف تمكنت القوات السوفياتية مــن تحطيم مجموعة القوات الالمانية ــ الفاشية الضخمة علــى مشارف موسكو ، وارغام فلولهم في ظروف الشتاء القاسي على الانسحاب غربا .

ان القيادة الهتلرية العليا حين خططت تلـــك العملية الاستراتيجيـــة المعقدة وذات الاهمية البالغة ــ عملية غزو موسكو التي كان يطلق عليها عملية

« طيفون » ـ قد وقعت في خطأ التهوين من قدرات الجيش الاحمر ، والتهويل في قدرات قواتها .

ومن اخطاء القيادة الهتلرية ايضا ، انها لم تحشد قدرا كافيا من المشاة . ولقد ظهر ان الاعتماد على المدرعات في هذه العملية لم يكن صحيحا . فهي قد تكبدت خسائر فادحة شلت قدرتها على النفاذ (الاختراق) ، ومن اخطائها ايضا انها قد ركزت ضرباتها على جناحي الجبهة دون شن هجوم مركز على الوسط ، ولقد كانت قادرة على ذلك ، من ناحية امكانياتها المادية . وقد استفدنا نحن من ذلك الوضع ، بأن سحبنا من المنطقة « السلبية » قوات كبيرة دعمنا بها الجناحين .

وفي الايام الاولى من كانون الاول ، تلقت القوات الالمانية ضربات قوية من فصائل الفدائيين الذين هاجموا بعنف خطوط مواصلات العدو التي كانت تزيد عن الف كيلو متر ، وبهذه الاعمال البطولية ، استطاع الفدائيون ان يحدثوا ارتباكا خطيرا في وصول الامدادات الى القوات المقاتلة .

كذلك فان القتال العنيد للقوات السوفياتية على طول الطريق الذي قطعته القوات الالمانية حتى مشارف موسكو كان قد اضعف الروح المعنوية للجنود الالمان وجعلهم يتشككون في امكانية النصر .

بينما كان المقاتلون على الرغم من كل ما اصابهم من خسائر يتلقون العون من الوطن ، ولقد احتفظوا حتى نهاية القتال دفاعا عن موسكو بروحهم المعنوية العالية وثقتهم التي لا تتزعزع في النصر .

فرحة الانتصارات الاولى

كان الشعب السوفياتي وقواته المسلحة قد مروا باكثر الاوقات مرارة ، وبدأوا يستشعرون فرحة الانتصارات الاولى . فالجيش السوفياتي قد حكم بالفشل على خطة هتلر في الاستيلاء على لينينغراد ، والالتحام مع القوات الفنلندية المسلحة (تقع لينينغراد على الحدود مع فنلندا) ، وفي الجبهة الجنوبية كانت قواتنا قد استعادت مدينة روستوف ، الواقعة على نهر الدون . وفي مناطق اخرى ايضا .كان الهجوم المضاد قد بدا يحقق بشائر النصر .

وفي ٢٩ تشرين الثاني ، اتصل زوكوف بالقائد الاعلى واطلعه على الموقف وطلب منه ان يضم الى جبهته الجيشين الضاربين الاول والعاشر (من قوات جبهات مجاورة) ، لكي يتسنى له توجيه ضربات اشد عنفا الى العدو وطرده بعيدا عن مشارف موسكو . فسأله ستالين :

ـ وهل انت متاكـد من ان العدو دخل فيوضع متأزم لم يعد معه قادرا على تحريك مجموعة كبرى جديدة من قواته ؟

ـ العدو منهك . ولكن قوات الجبهة لا تستطيع تصفية خطر اختراق العدو لخطوطنا .

وفي مساء نفس اليوم ابلغتنا القيادة بموافقتها علـى ان ينضم لقوات الجبهة الغربية الجيشان الاول والعاشر الضاربان ، وجميع وحدات الجيش العشرين .

ورغم هذا الدعم الجديد ، فلم يكن لـدى الجبهة الغربية تفوق عـددي على قوات جيش « الوسط » الهتلري ، (باستثناء الطيران) ، وكان العـدو لا يزال متفوقا علينا في الدبابات والمدفعية .

وفي آخر ليل ٤ كانون الاول ، اتصل بي القائد الاعلى تليفونيا وسألني :

ـ بماذا ايضا نستطيع دعم الجبهة علاوة على ما سبق أن قدمناه ؟

ـ لا بد من الحصول على دعم جوي مـن القوات الاحتياطية الخاضعة للقيادة العليا ، ومن قوات الدفاع الجوي ، ويا حبذا لو أمكن تزويدنا ولـو بمائتي دبابة باطقمها ، فالجبهة تعاني مـن عجز في الدبابات ، ولذلك فهـي لا تستطيع ان تطور هجومها المضاد على نحو سريع .

ـ لا توجد دبابات . نحن لا نستطيع توفيرها. القوات الجوية متوفرة. اتفق مع رئاسة هيئة اركان الحرب . سوف اتصل بهم الآن . في ٦ كانـون الاول سوف تنتقل الى الهجوم المضاد مجموعة مـن الجناح الايمن للجبهة الجنوبية الغربية .

الهجـوم المضـاد

وها هو يوم ٦ كانون الاول قد اقبـل ، وبدأت الجبهـة الغربية تشن هجومها المضاد شمالي وجنوبي العاصمة .

وفي خلال عشرة ايام مـن المعارك الضارية ، سددت قـوات الجناح الايسر للجبهة الغربية ضربات بالغة العنف الى جيش الدبابات الثاني الالماني الخاضع لقيادة جودريان . كذلك فـان جيش جودريان قد بدأ ينسحب تحت الضغط الشديد على قواته من الجناحين ، تاركا في ساحة المعركة عددا من السيارات والجرارات والدبابات والاسلحة الثقيلة .

وعلى يسار الجبهة الغربية ، كانت قوات جبهـة برانسك التي اعيـد تشكيلها تشن بنجاح هجومها المضاد علـى القوات الالمانية ، وترغمها علـى التقهقر حتى لم تعد مدينة تولا مهددة .

بذلك انتهت المرحلة الاولى من معركة الدفاع عن موسكو ، واصبح على قوات الاتجاه الغربي الذي يضم الجبهات الغربية ، وبراتسك وكالينيك ، ان تستعيد مواقعها السابقة لبدء الخطة الالمانية المسماة عملية طيفون .

ولم يكن لدى احد من اعضاء المجلس العسكري او اركان حرب الجبهة الغربية ادنى شك في ضرورة تطوير الهجوم المضاد في الاتجاه الغربي الاستراتيجي . ولكن مقاومة العدو كانت لا تزال قوية ، ليس فقط في الاتجاه الغربي ، بل بوجه عام .

وتحت تاثير تدمير قوات العدو على مشارف موسكو ، والنجاح الذي تحقق في اثناء الهجوم المضاد ، اصبح القائد الاعلى يميل الى التفاؤل . وكان يرى ان الالمان لن يصمدوا لضربات الجيش على الجبهات الاخرى . ومن هنا نشات فكرة شن هجوم شامل يمتد من بحيرة لادوجا (بالقرب من لينينغراد) الى البحر الاسود .

استدعي زوكوف بوصفه عضوا في القيادة العليا ، الى اجتماع في رئاسة الاركان ، وطلب منه ستالين ان يبدي رايه في الخطة التي وضعها لالحاق الهزيمة بالعدو في اكثر من جبهة ، واعترض زوكوف مطالبا بالاكتفاء بتطوير الهجوم في الاتجاه الغربي ، حيث ان جيش الوسط الالماني تحت ضغط القوات السوفياتية . اما في لينينغراد وغيرها ، فالقوات السوفياتية تواجه خطوط دفاع منيعة للعدو ، ولسوف تكون خسائر القوات السوفياتية باهظة ودون مبرر .

وقال ستالين : لقد تحدثت مع تيموشنكو ، وهو يحبذ فكرة الهجوم المضاد ، حتى نستنزف قوى العدو طول الشتاء ، ونعجزه بذلك عن شن هجوم واسع في الربيع .

وابدى فوزنيسينسكي اعتراضه قائلا :

ـ ليست لدينا الآن امكانيات تكفي لتامين الهجوم على كل الجبهات .

فسال ستالين الحاضرين : هل يريد احد ابداء الراي ؟

ولم يرد رد . عندئذ قال ستالين .. اذن .. ننهي الحديث عند هذا الحد .

وحين خرجت من حجرة الاجتماع قال لي شابوشنيكوف (رئيس هيئة اركان الحرب) ، عبثا كنت تجادل فراي القائد الاعلى قد استقر على هذا .

اجبته : اذن ما الداعي لاخذ رايي ؟

فعلق رئيس الاركان متنهدا .. لا ادري .. لا ادري يا عزيزي .

وبالفعل تم تنفيذ هذه الخطة ، وقد حققت عدة انتصارات في عدد من الاتجاهات ، لكنها ايضا كانت حافلة بعدة خسائر جسيمة . وقد وقعت في الحصار تجمعات كبيرة للقوات السوفيالية كان مـن بينها مجموعة الجنرال يفريموف الذي قاتلت قواته حتى أبيدت عن آخرها تقريبا ، اما هو فقد ظل يقاتل على رأس ما تبقى من قواته حتى اصيب بجراح خطيرة ، وحرصا على الا يقع في قبضة الاعداء انهى هذا الجنرال الباسل حياته باطلاق الرصاص على نفسه . ويشيد المارشال زوكوف بكفاءته كعسكري، وشجاعته كانسان ، ودوره الكبير في معركة الدفاع عن موسكو .

ويقول زوكوف : وكما اثبتت المعارك كانت قلة الذخيرة تحول دون شن هجوم مدفعي . ولم يكن من الممكن اسكات مدافع العدو . كذلك فان القوات السوفياتية المهاجمة بدون كثافة من النيران ، كانت تتكبـد خسائر فادحة لا تتمشى مع النجاح الذي تحققه .

وفي نهاية شباط ، وبداية اذار سنة ١٩٤٢ ، قررت القيادة العليـا تدعيم جبهات القتال ، الا ان القرار جاء متأخرا .. ورغم مطالباتنا المتكـررة بايقاف الهجوم والانتقال الى الدفاع ، فقـد استمر القائـد الاعلى يصدر تعليماته بالاستمرار في القتال من اجـل تحقيق الاهداف الموضوعة امـام القـوات .

وفي نهاية اذار واول نيسان حاولت جبهات الاتجاه الغربي تحقيق هـذا الهدف دون جدوى . واخيرا اضطرت القيادة العليا الـى الاخذ باقتراحنا فأمرت بالانتقال الى الدفاع . وكنا حين ذلك قد تقدمنا في فترة الشتاء مـا بين ٧٠ ، ١٠٠ كيلو متر مما جعل وضع العمليات الاستراتيجية فـي الاتجاه الغربي افضل من ذي قبل .

لقد كانت النتيجة العامة للقتال دفاعا عـن موسكو ملهمـة للبـلاد السوفياتية ومفزعة للعدو .

وفي وصفه لمعركة موسكو اضطر الجنرال الالماني فستفال الى الاعتراف بأن الجيش الالماني الذي كان من قبل لا يقهر قد وقف فـي مشارف موسكو على حافة الفناء » .

لقد خسر الفاشيست الالمان في معركة الدفاع عـن موسكو مـا يزيد اجمالا عن نصف مليون جندي ، ١٣٠٠ دبابة ، ٢٥٠٠ مدفـع ميدان ، ١٥ الف سيارة وكثيرا من المعدات المختلفة الاخرى .

لقد كانت معركة موسكو هي اول موقعة كبرى ينتصر فيهـا الجيش

الاحمر طوال شهور الحرب الستة علــى الحشود الرئيسية لقوات الغـزو الالمانـي .

ان الادارة القديرة للمعارك الدفاعية ، والتوجيه الموفق للضربات الحادة ثم الانتقال السريع الى الهجوم المضاد قـد اثرى الفن العسكري السوفياتي واظهر نضج القادة العسكريين السوفيات فيمـــا يتعلق بمسائــل العمليات التكتيكية والاستراتيجية ، وابرز نمو الكفاءة القتالية لمختلف انـــواع اسلحة الجيش .

ان تدمير القوات الهتلرية على اعتاب موسكو قد اكتسب اهمية دولية كبرى .. ولفت نظر الدوائر الرجعية في اليابان وتركيا الى ضرورة اتخـاذ سياسة اكثر حكمة ازاء الاتحاد السوفياتي .. وجعل الـراي العام التقدمي العالمي يعلق املا كبيرا على السلاح السوفياتي في قهر النازية .. واشعـر القوات السوفياتية بقوة الدولة السوفياتية واضعف ثقتها في امكانية تحقيق الاهداف التي رسمها هتلر .

كثيرا ما توجه الي اسئلة عن دور ستالين في ايام معركة موسكو .

كان ستالين طوال هذه الفترة في موسكو ينظم القـــوى والموارد الضرورية لتدمير العدو . ولا بـد مـن اعطائه حقـه . وعلـى راس مجلس الدفاع الوطني ومجلس الوزراء قام ستالين بجهد هائل في تعبئة الاحتياطيات الاستراتيجيــة والوسائل المادية ـ التكتيكية . ويمكن القول انـه بصرامته القاسيــة قـد حقق ما يشبه المستحيــل .

عندما يسالني البعض : ما اكثر احداث الحرب رسوخا في ذاكرتـك فانني اقول : معركـة الدفاع عن موسكو .

ففي الظروف العصيبة البالغة التعقيد والصعوبة انصهرت قواتنـــا المسلحــة وازدادت رجولة وخبرة . فهي اذ حصلت على الحد الادنى مـن المعدات التكنيكية استطاعت ان تتحول من قوة دفاعية ضعيفة الى قـــوة هجوميــة كبيرة . ان ابناء الاجيال القادمة الاوفياء لن ينسوا مطلقا ذلـــك العمل التنظيمي الجبار الذي قام به الحزب ، والمآثر البطولية للشعـــب السوفييتي على جبهــة الانتاج في تلـك الفترة ، والملحمة المجيدة للمقاتلين.

الفصل الثاني عشر

المحنة مستمرة

- كل شيء .. من اجل المعركة - سقوط شبه جزيرة القرم .. - القرار رقم ٢٢٧ - هتلر يلح في الاستيلاء على ستالينغراد -

نتيجة لعدة اسباب تعرضت بلادنا من جديد لمحنة قاسية في عام ١٩٤٢ . ولكن كما كان الامر في معركة موسكو عام ١٩٤١ استطاع الشعب والجيش ، بقيادة الحزب ، ان يتغلبا على الصعوبات ببسالة وان ينتصرا على مجموعة كبرى من حشود القوات الالمانية فيما بين نهري الفولجا والدون ، وان يضعا بذلك بداية طرد القوات الالمانية - الفاشية خارج حدود الوطن .

في نهاية ربيع ١٩٤٢ قام تحالف عالمي بين ٢٦ دولة اتفقت فيما بينها على استخدام كل الجهود والموارد ضد الدول العدوانية ، وعلى الا توقع معها معاهدات صلح او هدنة منفردة .

وعلى الجبهة الالمانية السوفيتية ساد الهدوء المؤقت الى حين .. اذ لجأ كل طرف الى الدفاع عن مواقعه .

وفي داخل الاتحاد السوفييتي كانت القيادة تدرس تطور الاحداث بجدية ، وكان الشعب وقد الهمه النصر في معركة موسكو يعطى « كل شيء

.. من اجل الجبهة » وفي المؤخرة كـان الانتاج الحربي يتضاعف ويتطـور كيفيا ممـا سمح للقيادة بتشكيل فيالق بل وجيوش دبابات مستقلة . كمـا تكفلت جيوش جويـة بلغ عددهـا ثمانية في حزيران ١٩٤٢ ، وكان المصممون قـد انجزوا كثيرا مـن انواع السلاح الحديث واصبح تعداد القوات المسلحة يزيـد عـن ٥،٥ مليـون جندي، مزودة بـ ٤٩٥٩ دبابـة ، ٤٠٧٩٨ مدفعا ثقيلا ، ٢٤٨٠ طائرة . وازدادت القوات تدريبا .

ولكن العدو هـو الاخر كـان يستعد لحملة الصيف . وقد بلغت حشوده على امتداد الجبهـة كلها ٢١٧ فرقة ، ٢٠ لواء . وحتى ايار ١٩٤٢ كـان تعداد القوات الفاشيـة الالمانية والحليفـة يزيد عـن ستة ملايين ، ٣٢٣٠ دبابة ، ٥٧ الف مدفع ميدان وماكينة ، ٣٤٠٠ طائرة حربية . كان التفوق في الافراد والمدفعية لا يزال الى جانب الالمان.

كانت الاستراتيجية السياسية والعسكرية لهتلر في عام ١٩٤٢ تسعى الى قهر قواتنا في الجنوب والاستيلاء على منطقـة القوقاز والوصول الى الفولجا ثم الاستيلاء على ستالينغراد (ويسمى حاليا فولجو جراد) واستراخان وبذلك يمكـن خلق الظروف الموالية لتصفيـة الاتحاد السوفياتي كدولة .

في ربيـع ١٩٤٢ كنت كثير التردد على القيادة العليا ، وكنت كثيـر التفاهم مع القائد الاعلى على عدد من القضايا الاستراتيجية ، ولهـذا كنت اعرف جيـدا اراءه فيمـا يتعلق بتقييم الظروف القائمة ومستقبل احـداث الحرب في عام ١٩٤٢ .

كان واضحا تمامـا ان القائد الاعلى لا يثق كثيرا في وعـود تشرشل وروزفلت بفتح جبهـة ثانيـة في اوروبا لكنه لم يكن يفقد الامل في ان يقوما بعمل مـا في المناطق الاخرى .كان ستاليـن يثق في روزفلت اكثر مما يثـق فـي تشرشـل .

حرب الاستنزاف

كـان ستالين يرى اننا لم نبلـغ بعد من القوة حدا يجعلنا نقوم بعمليات هجوميـة واسعـة ولذلك ففي المدى القريب ينبغي الاقتصار على الدفـاع الاستراتيجي النشيط مع القيـام بعمليات هجومية محدودة فـي القـرم وخاركوف وفي اتجـاه كورسك وسمولينسك .

وكان رئيس الاركان يرى انه ينبغي الاكتفاء بالدفاع الاستراتيجي لانهاك العـدو واستنزاف قواه حتى بدايـة الصيف ثم بعـد حشد القوى المناسبة يمكـن القيـام بعمليات هجوم مضاد واسعة .

وكنت بوجه عام اتفق مع القائد الاعلى ولكنني اختلف معه في التقدير الكمي للعمليات حتى لا نبدد امكانياتنا الاحتياطية في العمليات المحدودة مما يعطل الهجوم العام الشامل للقوات السوفييتية .

وكنت ارى ضرورة القيام بهجوم مضاد في الاتجاه الغربي بهدف اقناع العدو بعدم التفكير في عمليات هجومية واسعة على الاقل في المدى القريب .

وباقتراح ستالين عقد مجلس الدفاع الوطني جلسة لمناقشة الموقف وخطة العمليات المقترحة لعام ١٩٤٢ . واشترك في الاجتماع القائد الاعلى، فورشيلوف ، تيموشنكو ، شوبوشنيكوف ، فاسيليفسكي ، باحرميان وزوكوف . وتعارضت الاراء لكن زوكوف لم يجد من يتحمس لتأييد وجهة نظره . وبناء على ذلك اخذ براي ستالين .

« وجاءت احداث ايار وحزيران دليلا على خطأ تقديرات القيادة العليا فقد تعرضت قواتنا في الجنوب مرة ثانية لمحنة قاسية . وانتهى هجومنا في القرم الى الفشل والخسائر الفادحة مما جعل القيادة العليا تصدر اوامرها الى الجنرال كوزلوف بالانتقال الى وضع الدفاع المتين .

وفي ٨ ايار شن العدو على قوات جبهة القرم هجوما بريا مركزا ومدعما بالقوات الجوية مما هدم خطوط دفاع الجبهة وارغمها على التقهقر واخلاء مدينة كيرتس .. وبعد الاستيلاء على كيرتس وجهت القيادة الالمانية كل قواتها في اتجاه سيفاستوبول الذي كان حماته يدافعون عنه ببسالة منذ تشرين اول .

وفي ٤ تموز انسحبت قواتنا من سيفا ستوبول ، بعد قتال يومي مرير طيلة ٩ شهور . وبذلك سقطت شبه جزيرة القرم باكملها تحت الاحتلال الالماني مما زاد وضعنا سوءا ، وزاد العدو ـ بالطبع ـ قوة .

وفي ٣ ايار ، شنت قوات الجبهة الشمالية الغربية هجوما على مواقع الجيش الالماني السادس عشر في منطقة ديميانسك ، ولم ينته الهجوم بالنجاح وان كان قد كبد العدو خسائر فادحة .

وذات مرة كنت اتحدث مع ستالين تليفونيا عن جبهة القرم والجبهة الجنوبية الغربية . قال القائد الاعلى :

ـ هل ترى الى اي شيء يؤدي الدفاع ؟ لا بد ان نعاقب بشدة كوزلوف ، وميخليس ، وكوليك على اهمالهم ، ولكي لا يتغافل غيرهم .

ـ كلا . اني ارى ان نبدأ بضرب العدو بالطيران والمدفعية . ونلحق به الهزيمة بدفاعنا العنيد ثم ننتقل بعد ذلك الى الهجوم .

وفي ١٢ ايار ، شنت الجبهة الجنوبية الغربية هجوماً في اتجاه خاركوف موجهة ضربتين قويتين في اتجاهين مختلفين .

وفي ١٧ ايار ، هاجمت الفرقة الحادية عشرة الالمانية قوات الجيشين التاسع والسابع والخمسين التابعين للجبهة الجنوبية ، واخترقت خط دفاعهما ، وتوغلت مسافة ٥٠ كيلومترا في خلال يومين ، واصبحت تشكل تهديدا لقوات الجبهة الجنوبية الغربية .

ويشهد المارشال زوكوف بانه كان شاهدا على تحذير ستالين لقائد الجبهة الجنوبية الغربية من خطورة هذا الوضع ولكن القائد طمأنه الى سلامة الموقف ، وانه كان شاهدا كذلك على مكالمة تليفونية بين القائد الاعلى وبين عضو المجلس العسكري للجبهة نيكيتا خروشوف الذي اكد لستالين ـ كما سبق ان اكد قائد الجبهة ـ بان الخطر مبالغ فيه جدا ، وان الوضع لا يستدعي ايقاف العمليات (بقصد العمليات الهجومية)، وبناء على تقرير قائد الجبهة وعضو المجلس العسكري ، رفض ستالين اقتراح الجنرال فاسيليفسكي القائم باعمال رئيس هيئة اركان الحرب .« وان الرواية الشائعة عن التقارير المعبرة عن القلق التي بعث بها المجلسان العسكريان للجبهتين الجنوبية والجنوبية الغربية لهي رواية لا تطابق الواقع . وانا اؤكد هذا لانني كنت حاضرا مكالمات القائد الاعلى.

وحين ادركت قيادة الجبهة خطورة الوضع ، كان الوقت قد ضاع . ووقعت المجموعة المكونة من الجيشين السادس ، والسابع والخمسين ، وبعض وحدات الجيش التاسع في حصار محكم . ولم تستطع اختراق الحصار الا قوات محدودة ، اما غالبية القوات فانها لم تستسلم ، بل حاربت الى آخر قطرة من دمها .وفي هذه المعارك قتل قائد الجبهة بطل الحرب الاهلية والحرب الوطنية العظمى الجنرال كوستنكو ، وقائد الجيش السادس الجنرال بودلاس ، والجنرال بوبكين ، الذي كان زميلي في الدراسات العسكرية العليا . وكانوا قوادا عظماء وابناء مخلصين لحزبنا وشعبنا .

قلق في الجبهة

ويوما بعد يوم كان وضع جبهة برانسك يزداد سوءا . واتخذت القيادة العليا قرارا بتقسيم الجبهة الى جبهتين جديدتين هما جبهة فورونج تحت قيادة الجنرال فاتوتين (المساعد الاول للمارشال زوكوف حين كان رئيسا لهيئة اركان الحرب) ، وجبهة برانسك تحت قيادة الجنرال راكوسوفسكي .

ونتيجة لهذه الخسائر المتلاحقة في قواتنا ، استعاد العـدو المبادأة الاستراتيجيـة . وحاول شق الطريق الى ستالينغراد .

سقطت في ايدي العدو ـ نتيجة للانسحـاب القهـري ـ الدون ، والدورنباس البالغـة الحيوية . واصبح هناك خطر مباشر من وصول العدو الى الفولجا ، وشمال القوقاز ، وخطر سقوط كوبان ، وكل طرق المواصلات مع القوقـاز .

« اصدر القائد الاعلى قراره الشهير رقم ٢٢٧ . وبناء على هـذا القرار اتخذت اجراءات قاسية لمعاقبة مثيري الذعر والمخلين بالنظام ، كمـا قمنـا بحسم الاتجاهات الانهزامية » ، وقد أصبح للقرار فعاليته بالعمل السياسي الحزبي ، وكـان عدد أعضاء الحزب في صفوف الجيش قـد وصل الـى ١،٣ مليـون .

كانت قوات الجبهتيـن الجنوبية والجنوبية الغربية عاجزلين عن ايقاف زحف العدو . واذ كانت القيادة ترى الحيلولة دون وصول العدو الى الفولجا فقد قررت في ١٢ تموز سنة ١٩٤٢ ، لتشكيل جبهة ستالينغراد .

وكما حدث في موسكو ، هب الالاف في ستالينغراد للاسهام في اقامة التحصينـات الدفاعيـة من حول المدينـة .

وتلبيـة لتوجيهات لجنـة الدفاع الوطني قامت المنظمات الحزبية في جمهوريـات ارمينيـا وجورجيا واذربيجان ، بتوفير الامدادات والمؤمن لقوات الجبهة ، كمـا نظمت حملة شعبيـة للتطوع في صفـوف الجيش الاحمر . وبذلك فشلت مخططات هتلـر المبنية على انفصال جمهوريات القوقاز عن الاتحاد السوفيتي بمجرد وصول قوات الاحتلال الفاشي .

وقد لعبت فصائل الفدائيين دورا كبيرا فـي النضال ضد العـدو . فهي بعملياتهـا الشجاعـة ، ومعرفتهـا التامة بطبيعـة الارض قد الحقت بالعـدو خسائر جسيمـة في الارواح والمعـدات .

كانت الجبهـة تتكـون من ١٨٧ الف مقاتل ، ٣٦٠ دبابة ، ٣٣٧ طائرة ، ٧٩٠٠ مدفـع ميـدان وماكينـة .

وفي مواجهـة حشد العدو ٢٥٠ الف جندي ، ٧٤٠ دبابة ، ١٢٠٠ طائرة ، ٧٥٠٠ مدفـع ميدان وماكينة .

وفيمـا بعد دفع العدو الى المعركة بمزيد من قواته وقوات حلفائـه . ودارت معارك طاحنة في كل الاتجاهات المؤديـة الى ستالينغراد ، ولكن العدو كـان يواصل التغلب على المقاومة العنيفـة حتى وصل مشارف ستالينجراد

وبدأت تتصدى له الى جانب القوات المسلحة ، فصائل عمالية مسلحة الحقت به خسائر فادحة .

وفي الجبهة الغربية قامت القوات ، تحت قيادة زوكوف بعدة عمليات هجوم مضاد ، كان الهدف منها انهاك العدو حتى لا يتمكن من تدعيم قواته المتقدمة على جبهة ستالينغراد .. واذا كان هذا الهجوم لم يؤدي الى انتصارات حاسمة فهو باعتراف الجنرال الالماني ك .تيليسكيرخ « تمكنا من صد الهجوم فقط عن طريق استبقاء ٣ فرق دبابات وعدة فرق مشاة كانت معدة للانتقال الى مسرح العمليات على الجبهة الجنوبية . وهي قد ابقيت للتمكن من صد هجوم العدو ثم لدعم الهجوم المضاد » .

« وعلى العموم . لا بد ان اقول ان القائد الاعلى قد ادرك ان الوضع الحرج الذي نشأ في صيف عام ١٩٤٢ ، انما يرجع ايضا الى اخطائه الشخصية التي وقع فيها اثناء اقرار خطة عمليات قواتنا المسلحة في حملة الصيف عام ١٩٤٢ . ولذلك فهو لم يكن يبحث عن مسئولين عن الهزائم بين اعضاء القيادة العليا وهيئة أركان الحرب .

وفي ٢٧ آب سنة ١٩٤٢ ، اتصل بي بوسكريشيف) سكرتير ستالين) وافادني بان لجنة الدفاع الوطني قد عينتني مساعدا للقائد الاعلى وبعد ذلك بقليل اتصل بي ستالين :

ـ ينبغي عليك المجيء باسرع ما تستطيع الى القيادة العليا . اترك محلك رئيس الاركان . فكر فيمن يجدر بنا تعيينه بدلا منك .

وانتهى الحديث عند هذا الحد دون ان يخبرني ستالين بتعييني مساعدا له ويبدو ان القائد الاعلى اراد ان يكشف لي عن ذلك في مقابلته شخصيا ، وعلى العموم ، لقد كان يلفت نظرنا دائما الى ضرورة الحذر في المكالمات التليفونية ، خاصة في مناطق العمليات حين يتعذر تدبير وسائل المخاطبة بالشفرة .

قال القائد الاعلى ان الوضع سيء في الجنوب ، وان تطور الاحداث يمكن ان يؤدي الى استيلاء الغزاة الالمان على ستالينغراد وشمال القوقاز، واضاف ان لجنة الدفاع الوطني قد قررت تعيين زوكوف مساعدا للقائد الاعلى ، مع ارساله الى منطقة لينينغراد . ويوجد الان في ستالينغراد فاسيليفسكي ومالينكوف ، ماليشيف . سوف يبقى مالينكوف مع زوكوف ويعود فاسيليفسكي الى موسكو .

ـ متى تستطيع السفر الى هناك ؟ ـ احتاج الى ٢٤ ساعة لدراسة الموقف ...

كان واضحا ان معركة ستالينغراد ذات اهمية سياسية واستراتيجية كبرى . فبسقوط ستالينغراد لتمكن قيادة العدو من عزل جنوب البلاد عن وسطها . واذا فقدنا الفولجا ، فاننا نفقد بذلك اهم طريق مائي للمواصلات نتلقى بواسطتها امدادات ضخمة من القوقاز .

ودفعت القيادة العليا الى ستالينغراد بكل ما كان تحت تصرفها فيما عدا القوات الاحتياطية الاستراتيجية الحديثة التشكيل والمدخرة لمستقبل الاحداث .

وبعد دراستي للموقف على الطبيعة اتصلت لاسلكيا بالقائد الاعلى وابلغته بان توجيه ضربات مضادة لا يمكن تحقيقه قبل ٦ ايلول ، فافادني بانه لا اعتراض لديه على ذلك .

الحالة في ستالينغراد

وفي ٣ ايلول تلقيت برقية بتوقيع القائد الاعلى :« وضع ستالينغراد ازداد سوءا . قد تسقط ستالينغراد اليوم او غدا اذا لم تقدم قواتنا في الشمال مساعدة عاجلة . اطلب من قواد القوات المتمركزة في الشمال ، والشمال الغربي من ستالينغراد ضرب العدو فورا ،والتقدم لمساعدة ستالينغراد . ان اي تباطوء لا يغتفر . فالتباطوء الان جريمة . ادفع بكل الطيران الى ستالينغراد ، ففي داخل المدينة قوة الطيران محدودة » .

اتصل المارشال زوكوف بستالين واخبره بان الامر ببدء الهجوم ممكن . ولكن امكانيات الهجوم غير متوفرة ،فالمدفعية سوف تبدأالمعركة بلا ذخيرة على وجه التقريب ، كذلك فان تنسيق العمل بين الطيران والمدفعية والدبابات لا يمكن ان يتم قبل يوم ٤ ايلول . ولهذا استاذنه ان يبدأ العملية في٥ ايلول كما هو متفق عليه من قبل . وانه سوف يأمر الطيران على الفور بقصف مواقع العدو .

ـ حسنا . . ولكن اذا شن العدو هجوما شاملا على المدينة ، فابدأ على الفور مهاجمته دون انتظار لاستكمال مستلزمات القتال .

وفي ٥ ايلول بدأ الهجوم العام على امتداد الجبهة بالقصف الجوي والمدفعي وباطلاق قذائف « كاتيوشا » ، بدأ الزحف . ومن موقع القيادةكنت اراقب المعركة ، فتأكد لي اننا لن نصل الى نتائج حاسمة لقلة كثافة نيراننا . وطوال اليوم الاول تقدمت قواتنا ما لا يزيد عن كيلومتر واحد .

وفي اليوم التالي نشب قتال أشــد عنفا من سابقة . وفي اليوميــن الثالــث والرابع استمر التراشق بالنيران والقتــال الجوي .

وفي١٠ ايلول ، اتصلت بالقائد الاعلى . وقلت له ان مواصلة القتــال بنفس القوات التي تحت سيطرة جبهــة ستالينغراد لن تؤدي الى اختراق الحصار والالتقاء بقوات الجبهــة الشرقيــة في داخل المدينة . ان مواصلة الهجوم بنفس القوى والتشكيلات سوف يكون بلا معنى . وسوف تتكبــد قواتنــا بلا شــك خسائر جسيمــة .

بناء على اوامر ستالين ، سافر المارشال زوكوف الى موسكو في ١٢ ايلول ، واجتمع في الكرمليــن في نفس اليوم بالقائد الاعلى ورئيس اركــان الحرب الجنرال فاسيليفسكي ،وبعــد ان قدم زوكوف تقريره سأله ستالين:

ــ ما الذي تحتاج اليه جبهــة ستالينغراد مــن اجــل تصفية قوات الحصار المعادي ، والانضمــام الى قوات الجبهــة الجنوبية الشرقية ؟

ــ على الاقل : جيش بري كامل ، فيلق دبابات ،٣ الوية دبابات ، ٤٠٠ مدفع هاون . وعلاوة على ذلك فلا بــد من حشد جيش جوي على الاقــل للاشتراك في القتــال .

وافق فاسيليفسكي على تقديري ، وفتح القائد الاعلى خريطة توزيـــع القوات الاحتياطيــة التابعــة للقيــادة العليا . ظل ينظر اليها طويلا وبعناية. وتنحيت انا وفاسيليفسكي جانبا ، واخذنا بصوت خافت نناقش ضرورة البحث عــن حل اخــر .

ــ وما هو ذلك الحل الاخر ؟ ــ فجاة رفع ستاليــن راسه ووجه الينا هــذا السؤال ، لم اكن اتوقع مطلقــا ان تكون حاسة السمع لدى ستالين قويــة الى هــذا الحد. ثم واصل القائد الاعلى كلامه :

ــ الان توجها الى رئاســة الاركــان وابحثا معــا امكانيات دعم جبهة ستالينغــراد ... بماذا ؟ ومن اين ؟ وبالمرة فكرا ايضــا فيمــا ينبغي عمله علــى جبهــة القوقاز . وموعدنــا غدا هنــا في التاسعة مســاء .

طوال اليوم اخذ زوكوف وفاسيليفسكي يتدارسان موقف القـــوات الالمانية ، وامكانيات القوات الروسية ، وكل مايتصل بهذه الجبهة من عوامل عسكريــة وسياسية وسيكولوجية ، ثم في الموعد المحدد التقيا بستالين الذي حياهمــا ثم قــال :

ــ ان عشرات ومئات وآلاف المواطنين السوفييت يضحون بحياتهم في النضال ضد الفاشية ، وتشرشل يتاجر في٢٠ طائرة من طراز « هاريكين »

وهـو نوع رديء لا يحبه طيلرونا ـوبعد دون اي تمهيد انتقل بلهجة هادئة جدا الى القول ـ ما الذي هداكم تفكيركم اليه ؟ من منكما سيقدم التقرير.

ـ من تأمره فرأينـا واحد ـ اجاب فاسيليفسكي ـ

واقترح الجنرالان على القائد الاعلى تكوين جبهة جديدة في منطقـة سيرافيموفيتش ، فتساءل ستاليـن عن امكانية تحقيق هذه العملية الكبرى، واجيب بان ذلـك ممكـن في غضـون ٤٥ يومـا فعلق هو متسائلا :

ـ اليس من الافضل انتكتفي بتوجيه الضربات من الشمال الىالجنوب، ومن الجنوب الى الشمال على امتداد نهر الدون ؟

واجاب زوكوف :

ـ في هذه الحالة قد يستطيع الاستدارة والتصدى لضرباتنا . اما اذا سددنـا الى العدو ضربة غربى الدون ، فانه لن يتمكـن من ذلك نظرا لوجود العائق المائـي .

وشرح الجنرالان للقائد الاعلى ان الخطة ذات مرحلتين :

ـ اختراق خط دفاع العدو ، ومحاصرة مجموعة قوات العدو المتمركزة في منطقـة ستالينغراد ، وعزل هذه المجموعة عن القوات الالمانيةالرئيسية .

ـ ابادة العدو المحاصر والقضاء على محاولاته للتخلص من الحصار .

فرد ستاليـن بان هذه الخطـة تحتاج الى مزيد من التفكير وتقديـر الامكانيات السوفيتية . وان الهدف الحالي هو الحيلولة دون سقـوط ستالينغراد ، ومنـع العدو مـن التقدم في اتجاه كاميشين .

وفي اثناء ذلك اتصل بيمنكو بالقائد الاعلى وابلغه بان دبابات العـدو تتحرك في اتجاه المدينة . وان الضربة الجديدة متوقعة غدا . وعندئذ امـر ستاليـن زوكوف بالعودة الى مقر قيادته ، وامر فاسيليفسكي بتنفيذ بعض اجراءات الدعم . وقال في الختام :

ـ ان ما ناقشناه هنا لا يعرفه احد غيرنا نحن الثلاثة . ومؤقتا لاينبغي لاحـد آخـر ان يعرفـه !

الايـام العصيبـة

كانت ايام ١٣ ، ١٤ ، ١٥ ايلول اياما عصيبة بالنسبة لاهالي ستالينغراد ... ايـام محنـة قاسية ، فالعـدو لـم يعبـأ بشيء وهو يواصل تقدمه خطوة فخطوة على انقاض المدينة متجها ناحية الفولجا . كان يبدو ان الناس

على وشـك الاستسلام . ولكن العدو ما ان انطلق الى الامـام حتى قابلـه الابطال من جنـود الجيشين ٦٤،٦١ ملتحمين معه مباشرة في قتال ضار . كانت انقاض المدينـة قد تحولت الى قلعة. الا ان القوى كانت تضعف مـن ساعـة لاخـرى .

وفي اللحظة المناسبة تغير الموقف ، بوصول الفرقة الثالثة عشر المدرعة، بقيـادة رودمتسيف،التي امر ستالين بارسالها . وقد جاءت ضربتها مفاجـأة للعـدو .

وقد لعب الطيران دورا خطيرا في معركة الدفاع عن ستالينغراد .

وفي نهاية ايلول استدعاني ستالين ... دعانـا الـى مناقشة خطـة الهجوم المضاد ... وقد وقعت الخطـة بامضاء زوكوف وفاسيليفسكي واشر عليهـا ستاليـن « يعتمد » .

طوال تشرين اول لم تتوقف المعارك العنيفـة في داخل المدينةوحولها. فقد كان هتلر يلح على قيادة مجموعات الجيش «ب» وعلى الجنرال باولوس قائد الجيش السادس ، في الاستيلاء على ستالينغراد فياقرب فرصة .

وفي منتصف تشرين اول شن العدو هجوما جديدا على امـل تصفية الموقف في صالحه نهائيا في ستالينغراد . ولكنه في هده المرة التقى كمـا حدث من قبل بمقاومـة عنيدة من جانب القوات السوفيتية .

ولعدة ايام استمر القتال ليـلا ونهارا في شوارع المدينـة ، وبيوتها، ومصانعها ، وعلى ضفاف الفولجا ، وفيكل مكان وموضع قدم . وتكبـدت قواتنـا خسـائر جسيمة ، واصبحت تحتل جزرا صغيرة داخل ستالينغراد.

وفي ١٩ تشرين اول ، هبت الى نجدة ستالينغراد قوات جبهة الدون. وفـي نفس الوقت قام الجيش الرابع والستين بتسديد ضربة قوية الىالعدو من ناحيـة الجنوب .. ولولا ذلك لما تحسن وضع الجيش الثاني والستين، ولسقطت المدينـة نهائيـا في قبضـة العـدو .

استمر القتال في ستالنغراد عنيفا وضاريا لمدة ثلاثة شهور متواصلة .

كانت شعوب العالم كله تتابع المعركـة الكبرى في ستالينغراد بانفاث لاهثـة . لقـد كان انتصار القوات السوفيتية وقتالها البطولي ضد العـدو مصدر الهام لكل البشرية التقدمية ، فهي قد بثت الثقـة في النفوس بالانتصار النهائي على الفاشيـة .

ولقد كانت معركة ستالينغراد مدرسة عظمى لتدريب قواتنا علىانتزاع النصر فقد تدربتالقيادة ورئاسة الاركان على التنسيق بين المشاة والدبابات

والمدفعيــة والطيران . وتعلم المقاتلــون اساليب الدفاع داخل المدن ، الــى جانب المناورة على الجناحين . وارتفعت الروح المعنوية لقواتنا الى حــد بعيد . ولقــد كــان لكل هذه العوامل مجتمعة اثرا كبيرا في اعداد الظروف الملائمة لانتقال القوات السوفيتية الى الهجوم المضاد .

وبهذه المعارك الدفاعيــة في ستالينغراد وشمال القوقاز، انتهت فــي منتصف تشرين الثاني المرحلــة الاولى من الحرب الوطنية العظمى التي تحتل مكانا فريــدا في حيــاة الشعب السوفيتي . فقد تميزت هذه الفترة بمحنة قاسيــة للشعب السوفيتي وقواته المسلحة ، وخاصة حين يؤثر الهتلريون على طريقهم الى موسكــو ولينىنغراد الدمــار والموت . وحتى هــذا الوقت كــان العدو يحتل مساحة من بلادنا تقرب مــن مليون و٨٠٠ الف كيلومتر مربع ، ويسيطر على قرابة ٨٠ مليــون مواطن . واضطر ملايين المواطنيــن الى الهجرة من الاراضي المحتلــة الى شرق البلاد . وكانت القوات السوفيتية اثنــاء انسحابهــا القهري الــى الداخل تتكبــد خسائــر جسيمــة فــي الارواح والمعــدات .

ولكن العدو ايضــا خسر الكثير بسبب المقاومة المستميتة التي واجهته، فحتى منتصف تشرين الثاني عام ١٩٤٢، بلغت خسائر العدو في الارواح ٢ مليون قتيل وجريح ومفقــود .

مساعدة الحلفــاء

ما هو الدور الذي لعبته المساعدة العسكرية ــ الاقتصادية من جانــب حلفائنا في عامي ١٩٤١ ، ١٩٤٢ . فالمؤلفات في الغرب تبالغ كثيرا في هذه المســألــة .

يقول المارشال ژوكوف ان هذه المساعدات من وقود ، وبارود ،وصلب، والسيارات والمواد الغذائية كانت تصل اقل بكثير من الكميات التي وعــد الحلفاء بها . وان هذه المساعدات قد لعبت ولا شك دور ايجابيــا . الا ان حجمها كــان محدودا للغايــة بالنسبة لاحتياجات الاتحاد السوفيتي . ويقول ان الطيارين واطقم الدبابات لم تكــن راضية عن الانواع التي قدمها الحلفاء. ويخص بالذات تلك الدبابات التي تعمل بالبنزين ، والتي تحترق مثل شعلة.

ما هو العدو الذي واجهته القوات السوفيتية في الفترة الاولى مــن الحــرب . يقول المارشال ان الاجابة على هــذا السؤال ضرورية لكي تدرك الاجيــال الفتيــة السوفييت مدى النضــال الشاق الذي خاضه الشعــب

السوفيتي ضد عدو قوي محنك ، بعيد النظر .

ويتناول زوكوف بالتقييم الجماهير العريضة لقوات الغزو ، اي الجنود وضباط الصف والضباط . فيقول : ان القوات الالمانية قد اجتاحت بلادنا مخمورة بنشوة النصر الخاطف الذي حققته في بلدان اوروبا الغربية ، ومخمورة بدعاية جوبلز، ومؤمنة بامكانية الانتصار السهل على الجيش الاحمر .. وفي الشهور الاولى من الحرب ، اتيحت فرصة استجواب الاسرى ، ولا بد ان اقول بانني كنت اشعر بايمانهم بكل وعود هتلر المغامرة.

وفيما يختص بتدريبهم واستعدادهم القتالي، فقد كان على مستوى رفيع في كل الاسلحة ، وخاصة الدبابات والطيران .

وفي المعارك والخدمة الميدانية ، كان الجندي الالماني يعرف واجبه ، ويتميز بالانضباط والعناد ، والاعتداد بالذات . وبناء عليه ، فقد كان المقاتل السوفيتي يواجه عدوا قويا مجربا لا يمكن انتزاع النصر من ايديه بسهولة.

وكانت « اركان حرب » الوحدات والتشكيلات والجيوش ملمة باساليب الادارة الحديثة للقتال ، والمعارك والعمليات . وكانت ادارة القوات في المعارك تجري عن طريق الاتصالات اللاسلكية التي كانت اجهزتها متوفرة لدى القوات . كما كانت على درجة عالية من الكفاءة في التنسيق بين القوات الجوية والقوات البرية .

وفي بداية الحرب ، كانت فكرتي حسنة عن الرئاسات العليا لاركان حرب القوات الالمانية . فقد كان واضحا انهم اعدوا جيدا الضربات الشاملة واحسنوا اختيار اتجاهات الهجوم الاستراتيجية ، كما وفقوا في اختيار قادة التشكيلات الميدانية . وكثيرا ما كان النجاح يلازمهم في تحديد موعد وكثافة ونوعية الهجوم . ورغم ذلك كله فقد ظهر ان التقديرات السياسية ـ الاستراتيجية للقيادة العليا الالمانية هي تقديرات خاطئة من الاساس .

ومن بين التقديرات الخاطئة الاساسية ان الهتلريين لم يتوقعوا ان يجد الشعب السوفيتي نفسه بقيادة الحزب قادرا في فترة وجيزة على اعادة تنظيم الاقتصاد الوطني، وانتاج ما تحتاج اليه القوات المقاتلة من دبابات وطائرات ومدافع وذخيرة وخلافه ، بحيث يصبح التفوق في جانب القوات السوفيتية على القوات الفاشية ، وبحيث ينتهي هذا التفوق بالنصر الحاسم وتحرير الارض المغتصبة مؤقتا .

[illegible] يوسف الكويتي

الفصل الثالث عشر

هزيمة القوات الفاشية في منطقة ستالينغراد

ـ الشتاء الروسي الثاني ... ـ ٦،١ مليون جندي الماني على الجبهة ـ تقدير خاطىء للمخابرات الالمانية ـ

في تشرين أول ١٩٤٢ اصبح واضحا ان القيادة الالمانية سوف ترغم على الانتقال الاستراتيجي على امتداد الجبهة الشرقية كلها فالخسائر الفادحة التي تكبدتها القوات الهتلرية قد سلبتها نهائيا قدرتها الهجومية . وكان هذا ـ بعد فشل اهداف المرحلة الاولى من الغزو ـ يعني الاخفاق الثاني لجميع خطط هتلر في الحرب ضد الاتحاد السوفيتي .

وقادت الدعاية الفاشية حملة واسعة من اجل « الاستعداد لمواجهة الشتاء الروسي الثاني على نحو اكثر دقة وصحة توقيت » وطالبت القيادة الالمانية قواتها باقامة دفاع حصين لا يقهر . بحيث تمهد الظروف لانهاء الحرب بالنصر في عام ١٩٤٣ .

في بداية تشرين الثاني ١٩٤٢ كانت قوات الالمان على الجبهة الالمانية السوفيتية تتكون من : ٦،٢ مليون جندي ، اكثر من ٧٠ الف مدفع ميدان

وماكينة ، ٦٦٠٠ دبابة ، ٣٥٠٠ طائرة ، ١٩٤ سفينة حربية .

وكانت قواتنا في نفس الفترة تتكون من : ٦٤١ مليون مقاتل ، ٧٢٤٥ الف مدفع ميدان وماكينة ، ٦٠١٤ دبابة ، ٣٠٨٨ طائرة حربية . وكانت الاحتياطيات الاستراتيجية الخاضعة للقيادة العليا تتكون من ٢٥ فرقة ١٣ فيلق دبابات ومدرعات ، ٧ الوية مشاة ودبابات .

وعلى ذلك فقد بدأت المرحلة الثانية من الحرب وميزان القوى اخذ في التغير لصالح الاتحاد السوفيتي .

كانت قيادة القوات البرية الالمانية تقول في القرار رقم ١ بتاريخ ١٤ تشرين اول ١٩٤٢ « ان الروس قد ضعفت قواتهم بشدة في خلال المعارك الاخيرة ولن يكون في وسعهم هذا الشتاء ١٩٤٢ — ١٩٤٣ ان يحشدوا قدر ما حشدوه من القوات في الشتاء الماضي » .

وفي قيادتنا العليا كانت العمليات النشيطة على الجبهة الغربية تهدف الى تضليل العدو وايهامه بان مصدر الخطر هو على هذه الجبهة بالذات ولقد وقع العدو فعلا في هذا الوهم . ولذلك فانه قد ركز تجمعاته هنا .. بينما كانت القيادة العليا السوفيتية تعد في الحقيقة لهجوم عام من ناحية ستالينغراد .

وقد ازداد وضع العدو سوءا نظرا لاخفاق مخابراتهم في تحديد مكان الخطر .. فقد كانت حشودنا في منطقة ستالينغراد بلغ ١١ جيشا وعددا من فيالق الفرسان والدبابات والمدرعات .

بعد موت ستالين ظهر نوع من الغموض فيما يتعلق بواضع خطة الهجوم المضاد البالغ الاهمية . لقد اشرت من قبل الى العمل الذي بذل في وضع هذه الخطة ورغم ان هذه المسالة قد لا تكون اليوم ذات اهمية خاصة الا انني ارى لزاما على ان اوضح الموقف :

يوجد تصور بان العملية الهجومية المقبلة قد وضعت خطوطها المبدئية في القيادة العليا في آب ١٩٤٢ وان التصور المبدئي لخطة العملية كان يحمل طابعا محدودا .

ولكن هذا لم يكن تخطيطا مبدئيا لعملية الهجوم المضاد بل مجرد خطة لتوجيه ضربات مضادة بهدف تعويق تقدم العدو نحو ستالينغراد .

ويوجد تصور بان الخطة قد جاءت بناء على مبادرة ذاتية من جبهة ستالينغراد . ويرد على هذا التصور الجنرال فاسيليفسكي في مذكراته بما

يؤكد ان الفضل في وضع هذه الخطـة يرجع الى القيادة العليا ورئاسة هيئة اركـــان الحـــرب .

لكي توضع خطـة عمليـة استراتيجية كبرى كتلك التي اشتركت فيها ثلاث جبهـات في منطقـة ستالينغراد ، لا يمكـن الانطلاق فقط من المواقع المحدودة للعمليات . بل لا بـد من الانطلاق من حسابات الامكانيات المادية ـ التكنيكية .

من الذي كـان يستطيع تقدير الموارد والقوى اللازمة لعمليات على هذا المستوى ؟ لا شك انه تلـك الجهـة التي تسيطر على الموارد والقوى . وفي هذه الحالة لم تكـن هذه الجهـة غير القيادة العليـا ورئاسة هيئة اركان الحرب .

ويشيد المارشال زوكوف ببطولـة وشجاعة واستماتة القوات والقيادة في تحقيق هذه العملية الاستراتيجية الكبرى ثم يقول . وعلى ذلك فليس ينبغي ان يدور حديث حول « حق التأليف » لشخصي بالذات .

ويرى المارشال انه لا داعي لسرد تفاصيل الاحداث فكتب التاريخ في الاتحاد السوفيتي قد القت الضوء عليها على نحو صحيح بوجه عام .

« وفي المرحلـة الاولى من خطـة الهجوم المضاد قامت الجبهة الجنوبية الغربيـة بقيـادة الجنرال فاتوتين بالدور الاكبر » .

« وكان على جبهـة الدون ان تسدد الى العدو ضربتين الاولى بهدف اختـراق دفاع العدو على الضفـة اليمنى من نهر الدون .. والثانية بمحاذاة الضفـة اليسرى للدون بهدف عزل قوات العدو في هذه المنطقـة عن قواته الرئيسيـة في منطقـة ستالينغراد » .

« وكان على جبهـة ستالينغراد ان تخترق دفاع العدو في المنطقـة الواقعـة ما بيـن ايفانوفكا والحدود الشمالية لبحيرة بارمنتساك ثم تطوير ضرباتها في الاتجاه الشمالي الغربي حتى تلتقي عند كالانش ـ خروتوسوفيتسكي بقـوات الجبهـة الجنوبيـة الغربية . وبذلك يتـم تطويـق العدو فـي منطقـة ستالينغـراد » .

ويقول المارشال ان الاعداد لهذه العملية قد تطلب تعبئة جبارة للقوى والمعدات والامدادات حتى انـه في الفترة من ١ الى ١٩ تشرين الثاني قـد نقل عبـر نهر الفولجا ١٦٠ الف جندي ١٠ الاف جواد ، ٤٠٠ دبابة ، ٦٠٠ مدفـع ميـدان ١٤ الف سيارة ، وحوالـي ٧٠٠٠ طن من الذخيرة .

« وفي نهاية تشرين الاول وبداية تشرين الثاني قمت بالاشتراك مع فاسيليفسكي وغيره من ممثلي القيادة بمجهود كبير داخل القوات بهدف مساعدة القيادات ورئاسات اركان الحرب على الاستيعاب الكامل لخطة الهجوم المضاد واساليب تنفيذها . ولقد اظهرت اجتماعاتنا في قيادات الجبهات والجيوش والتشكيلات ان القيادات العسكرية والسياسية قد قامت بعملها الضخم المتعدد الجوانب بروح الشعور بالمسئولية الكبيرة والمبادأة المبدعة » .

« وقد كانت المنظمات السياسية والحزبية والكسمولية تقوم بعمل سياسي واسع داخل الوحدات المقاتلة . ولقد كان هذا الجانب الخطير من الاعداد للقتال يجري باقتدار تحت اشراف المجلس العسكري والادارة السياسية برئاسة الجنرال روداكوف » .

« وفي تشرين الثاني احطت القائد الاعلى علما بالموقف واوجه النقص في الاستعدادات وما يترتب على ذلك من تأجيل موعد العملية ».

« ويجب ان اقول ان القائد الاعلى كان في العادة يظهر الاهتمام اللائق بالتأمين الجوي للعمليات . ولذلك فانه ما ان تلقى شكواي من القصور في الاستعداد الجوي لعملية حتى بعث الي بالرسالة الاتية :

« الى الرفيق كونستنتينوف (الاسم المستعار لزوكوف) .

اذا كان الاستعداد الجوي للعملية غير كامل لدى برمينكو وفاتونين فسوف تنتهي العملية بالفشل . فخبرة الحرب مع الالمان تؤكد ان كسب عملية ضد الالمان لا يمكن ان يتحقق الا في حالة واحدة .. وهي ان يكون لنا التفوق في الجو .. وعندئذ ينبغي على قواتنا الجوية ان تؤدي ثلاث مهام .

- تركيز عمليات طيراننا في منطقة تقدم قواتنا الضاربة ، للقضاء على طيران الالمان ، وتحقيق غطاء جوي قوي لقواتنا .
- افساح الطريق لتقدم قواتنا المهاجمة عن طريق القصف المتواصل لقوات الالمان المتصدية لقواتنا .
- تعقب قوات العدو المنسحبة عن طريق القصف والانقضاض المتواصل لكي تتفرق نهائيا وتعجز عن التجمع والتمركز في اقرب خطوطها الدفاعية .

اذا كان نوفيكوف يعتقد ان قواتنا الجوية عاجزة ــ حاليا ــ عن اداء

هذه المهام فالافضل ان تؤجل العملية الـى حين استكمال الحشود الجوية .
التوقيع : « فاسيليف »

(فاسيليف هو الاسم المستعار لستالين ، الذي هو بدوره اسم مستعار اكتسبه خلال العمل السري في الاعداد للثورة الاشتراكية واسمه الحقيقي جيفاشيفللـي) .

الخطـة الجديـدة

وفي ١٣ تشرين الثاني عاد زوكوف وفاسيليفسكي الى موسكو واطلعـا القائد الاعلى شخصيا على التخطيط النهائي لعملية الهجـوم في ضـوء الظروف الواقعية وفي اثناء ذلك دخل اعضاء مجلس الدفاع الوطني وبعض اعضاء المكتـب السياسي للحزب وترتب عليه ان اوجز الجنـرالان عرض الخطوط العريضـة من جديد .

وبعد مناقشة قصيرة تم اعتماد الخطة .

« ولفتنا نظر القائد الاعلى الى ان القيادة الالمانية حين تواجـه موقفا حرجا في ستالينغراد سوف تدفع الى القتال بعض قواتهـا المتمركزة فـي مناطق اخـرى وعلى الاخص في منطقـة فيازما لكي تدعم مجموعـة القوات الجنوبيـة .

ولكي لا يحدث ذلك ، لا بـد من اعداد وتنفيذ عملية هجومية فيمنطقة شمالي فيازمـا واقترحنـا تكليف قوات جبهة كالينين والجبهـة الغربيـة بتنفيذ هـذه العمليـة » .

فـرد ستاليـن :

ـ سوف يكون ذلك مناسبا .. فمنمنكمـاسيتولى هذه المهمة ؟

وحيث انني وفاسيليفسكي كنـا قـد اتفقنا مقدمـا على ذلك فقد قلت:

ـ عملية ستالينغراد جاهزة من كل الجوانب . يستطيع فاسيليفسكي انيتولى مهمـة التنسيق بيـن القوات في منطقـة ستالينغراد واستطيع انا انأتولى الاعداد للهجوم المضاد من جانب جبهة كالينين والجبهة الغربية .

وافق القائد الاعلى على اقتراحنا ثم قال :

ـ سافرا غدا صباحا الى ستالينغراد تأكدا مرة ثانية من استعـداد القوات والقيادة للبدء في العمليـة .

في ١٤ تشرين الثاني عدت من جديد الى قوات فاتونين وتوجـــه

فاسيليفيسكي الى قوات بريمنكو وفي اليوم التالي تلقيت من ستالين البرقية التاليـة الى الرفيـق كوفستنتيوف ـ شخصيا فقط ـ .

يوم رحيل فيدروف وايفانوف يمكنك تحديده بناء على ما تراه . ثـم اخبرنـي عـن ذلك عند عودتك الى موسكو . اذا جاءتك فكرة ان يسبـق احدهـما الاخر بيـوم او يوميـن فانني افوضك في حل هذه المسألة وفقا لتقديـرك الشخصي .

التوقيع : فاسيليف

١٥ ـ ١١ ـ ١٩٤٢ الساعة ١٣،١٠

« وبالتشاور مـع فاسيليفسكي استقر الراي على ان يبدأ هجوم الجبهة الجنوبيـة الغربية والجيش الخامس والستين لجبهة الدون في ١٩ تشرين ثاني، وان تبدأ جبهـة ستالينغراد هجومها في ٢٠ تشرين الثاني واعتمـد القائد الاعلى قرارنـا » .

وفي ١٧ تشرين ثاني عدت الى موسكـو لاعداد عملية الهجوم المضاد المتفق عليهـا في الساعة ٧،٣٠ صباحا ١٩ تشرين الثاني بدأ الهجوم . باحكام . . وبعد معارك عنيفـة في كل الاتجاهات المحددة في الخطة تم اطباق الحصار على قوات العدو في الايام الاولـى من كانون الاول وبذلـك انتهت المرحلـة وجرى الانتقال الى المرحلة التاليـة وهي تصفية القـوات الفاشيـة المحـاصرة .

وفي وقت متأخر من ليل ٢٨ تشرين الثاني اتصل ستاليـن بزوكوف في مقر قيادة جبهة كالينين وساله عن مدى معرفتـــه بتطورات الاحـداث في منطقـة ستالينغراد وطلب منه تقديم مقترحاته بشأن تصفية القـوات الالمانيـة المحاصرة في ضواحي ستالينغراد .

وفي ٢٩ تشرين الاول ارسل زوكوف الى القائد الاعلى برقية حـدد فيهـا التطورات المحتملة للموقف ، واقترح اتخاذ اللازم للحيلولة دون تقدم القوات الالمانيـة في منطقة نيجيتي تشرسكيا وكوتيلنيكوفو للالتحام بالقوات الالمانيـة المحاصرة وخلق ممر بري لانهـاء الحصـار .

« وينبغي تقسيم القوات الالمانية المحاصرة الى مجموعتين منفصلتين . . وبعد فصل المجموعتين عن بعضهمـا لا بد من البدء بالقضاء علـى المجموعة الاضعف ثم يلي ذلك توجيه القوى لضرب المجموعة المتواجدة فـي منطقـة ستالينغـراد » .

« في النصف الاول من كانون الاول كانت عملية تصفيـة قوات العدو المحاصرة تجري على نحـو بطيء جـدا » .

ذلك ان القوات الالمانية ــ وقد وعدها هتلر شخصيا بالمساعدة ــ كانت تقاتل بشراسة في كل موقع . ولم تكـن قواتنا تحقق في هجومها التقـدم المنشود ، وذلك نظـرا لان جانبا كبيرا منهـا كان يتصدى للقوات الالمانيـة القادمـة مـن ناحيـة كوتيلينيكونو .

« وبالنسبة للالمان كانت الهزيمة في موقعة ستالينغراد تهدد بخطـر التصاعـد لتصبح كارثة كبـرى من الناحية الاستراتيجية » .

لانقـاذ الوضـع

ولانقاذ الوضع العام كانت القيادة الهتلرية تجري قبل كل شيء ضرورة اعـادة التوازن الى قوات جبهتهـا الدفاعيـة في اتجاه ستالينغراد .

وتحت حمايتها يمكـن سحب قوات الجيش (أ)من القوقاز . ولهـذا الغرض كونت القيادة الهتلريـة مجموعة جديدة باسم « جيش الدون »تحت قيادة الفيلد مارشال مانشتين الذي يعتبره الزعمـاء الالمان اكثر القـواد موهبـة واستعدادا . ولتكويـن هذه المجموعـة سحبت بعض القواتالالمانية من مناطق اخرى على الجبهة الالمانية ــ السوفيتية ، كمـا من فرنسا والمانيا.

« وكمـا اصبح معروفا فيمـا بعد ، اقترح الفيلد مارشال مانشتيـن لانفاذ القوات المحاصرة» تكوين مجموعتين من القوات الضاربة . الاولى فـي منطقـة كوتيلينيكوفو والثانية في منطقـة تورموسين .

لكن القدر لم يبتسم لمانشتين ولا للقوات الالمانيـة المحاصرة . فالقيادة العليـا الالمانية كانت في ذاك الوقت تعاني من عجز في قواتها الاحتياطية. وامـا القوات التي امكـن حشدها فقد تقدمت ببطء شديد على خطوط مواصلات بالغـة الطول . وكان فدائيونا في مؤخرة العدو يعلمون السبب الذي من اجله تسرع القوات الالمانية في تحركها نحو الجنوب ولذلك فانهم قد بذلـوا كـل المستطاع لتططيل تحرك العدو . ودون وجل من الارهـاب الدمـوي البالـغ العنف ، ورغم اجراءات الامـن المشددة من جانب القوات الالمانيـة ، استطاع الفدائيـون البواسل تدمير عشرات القوافل من القوات الهتلريـة .

كان الوقت يمضي، .. والفشل يلاحق خطط الخروج من الحصـــار واذ شعـــر هتلـــر بدنو اجل قواته المحاصرة في ضواحي ستالينغراد ، فقـــد اصدر تعليمـــاته الى مانشتين ببدا العمليات دون انتظار التجمع الكامـــل للقـــوات .

وفي١٢ .كانون الاول بدا مانشتين عملياته فقط في منطقة كوتيلينكوفو بمحاذاة خط السكة الحديد . وبعد معارك طاحنة تكبدت فيهـــا القـــوات الالمانيـــة المهاجمة والقوات السوفيتية المدافعـــة خسائر باهظة استطـــاع مانشتين ان يتقدم حتـــى اصبح على بعـــد ٤٠ كيلومترا من ستالينغراد .

« كان العدو ــ فيما يبدو ــ يظن ان النصر اصبح قريبا وواقعيا .لكن هذه الامـــال كانت سابقـــة لاوانهـــا . فبناء على اوامر القيادة العليا دفـــع فاسيليفسكي الى ساحـــة القتال بالجيش الثاني بقيادة الجنرال مالينوفسكي (وزير الدفاع السوفيتي الذي توفى منذ عامين) ، وكان جيشا قوي‌التسليح بالدبابات والمدفعيـــة واستطاع هذا الجيش بضرباته ان يحسم مصير القتـــال لصالـــح القـــوات السوفيتية .

وفي ١٦ كانون الاول بدات قوات الجبهة الجنوبية الغربية والجيش السادس التابع لجبهـــة فورنيج الزحف في اتجاه وسط حوض نهر الدون للقضاء على القوات الالمانيـــة هناك والانطلاق لمهاجمة مؤخرة قوات العـــدو فـــي تورموسيـــن .

وازاء التقدم الجامح لهذه القوات اضطر مانشتين الى تشتيت قواتـــه المخصصة لتوجيه ضربتها في منطقـــة تورموسين . وهكذا وجدت قـــوات جيش « الدون » الالماني نفسها في مواجهة قوات الجبهـــة الجنوبية الغربية التي تهاجمها من المؤخرة والجناحين .

وفي ٢٨ كانون الاول اتصل الجنرال فاتوتين قائد الجبهة الجنوبية الغربيـــة بالقيـــادة العليـــا :

ــ يمكن القول بان كل القوات التي كانت في مواجهة الجبهة وقوامهـــا ١٧ فرقـــة قـــد قضى عليهـــا نهائيا . اسرنـــا من جنود العدو ما يزيد عن ٦٠ الفا كمـــا لقى حتفـــه في المعركـــة ما لا يقل عن هذا العدد تقريبا . وباستثناء حـــالات نادرة لم تعـــد بقايا القوات المعادية تبدي‌اي مقاومة تقريبا .

ويتوقف المارشال زوكوف عند بطولة الفيلق الرابع والعشرين بقيادة الجنرال بادانوف فقد تمكن من اختراق دفاع العدو المحاصر وتوغل مسافة ٣٠٠ كيلومتر بعد معارك حامية قضى اثنائها على ٦٧٠٠ جندي من قوات العدو واتجه ناحية محطة تاتسينسك ثم هاجمتها من كل الجهات « على الطاير » اي دون توقف حتى لا يعطي للعدو فرصة التأهب الكامل للمواجهة ، وفي اثناء ذلك استطاع النقيب فومين بقوة من الدبابات اقتحام المحطة وتدمير خط السكة الحديد ستالينغراد ـ ليخايا ، وابادة قوات المحطة ، والاستيلاء على شحنة من الطائرات التي تحتاج فقط الى التجميع ، وللاسف الشديد استشهد البطل النقيب فومين برصاصة غادرة ومات ميتة الابطال .. وبعد ذلك قامت قوة الدبابات بقيادة النقيب نيتشايف بمهاجمة المطار حيث كانت تقبع على الارض ٢٠٠ طائرة نقل على وشك الانطلاق . لكنها لم تتمكن من ذلك فقد دهستها دباباتنا » . ولكن قوات العدو استطاعت ان تحاصر فيلق الدبابات الرابع والعشرين الذي ظل يقاتل خمسة ايام بلياليها . وفي ٢٩ تشرين الثاني خرج الفيلق من الحصار بفضل بسالة المقاتلين والقيادة القديرة للجنرال بادانوف » .

« ونظرا للدور البارز للفيلق الرابع والعشرين في المعارك التي دارت على الفولجا والدون منح الجنرال بادانوف ـ لاول مرة في الاتحاد السوفيتي ـ وسام سوفوروف من الدرجة الثانية كما منح عدد كبير من ضباط وجنود الفيلق ميداليات واوسمة مختلفة .

وبعد معارك ظافرة خاضتها قوات جبهة ستالينغراد والجبهة الجنوبية الغربية انتهت امال قائد جيش « الدون » الفيلدمارشال مانشتين في رفع الحصار عن قوات باولوس الالمانية المحاصرة في منطقة ستالينغراد .

كانت القيادة والقوات الالمانية تدرك هذا ... ولذلك فقد حاولت المستحيل للخروج من الحصار حتى اصابتها خيبة الامل في النهاية ..

اما القيادة العسكرية السياسية الهتلرية فبعد ان تأكدت من الفشل النهائي لرفع الحصار عن قوات باولوس ومن الموت المحقق لهذه المجموعة ، اصبحت ترى الهدف الرئيسي ليس في انقاذ حياة المحاصرين بل في ارغامهم على مواصلة القتال الى اخر المدى بهدف انهاك القوات السوفيتية . فقد كانت في حاجة الى اقصى فسحة ممكنة من الوقت

لكي تسحب قواتهـا من القوقاز ولتجميع قوات اخرى من الجبهات المختلفة. من اجل فتح جبهـة جديدة قادرة الى حـد ما على ايقاف الهجوم السوفيتي المضـاد .

تصفية القوات الالمانيـة

وكانت القيـادة العليـا السوفيتية تدرك انه لا بد مـن تصفية القوات المحاصرة في اسرع وقت ممكـن حتى لتمكـن قوات الجبهتين العاملتين في هذه المنطقـة من القضاء على القوات الالمانية المنسحبة من القوقاز والمتواجدة فـي القطاع الجنوبي من الاتحاد السوفيتي .

وفي نهايـة كانون الاول في اجتماع مجلس الدفاع الوطني قال القائد الاعلـى :

ـ ينبغي ان تسند الى شخص واحد قيادة عملية تصفية العدو المحاصر . حتى لا يتسبب وجود قائدين للجبهتين في تعويق مسير العملية .

وايد اعضاء المجلس هذا الراي .

ـ من هو القائد الذي سنكلفه بالقضاء النهائي على العدو ؟

ثم توجه القائد الاعلى الي قائـلا :

ـ وانت .. لمـاذا تصمت ؟

ـ كل من القائدين جدير بالثقة .. ولكن بريمنكو سوف يحز في نفسه ان يسلم قيادة قوات جبهـة ستالينغراد الى راكاسوفسكي .

ـ ليس هذا وقت الاخذ على الخاطر .. قاطعني بذلك ستالين ، وامرني بابلاغ قرار مجلس الدفاع الوطني الى بريمنكـو .

« وفي نفس الليلة اتصلت باللاسلكي بالجنرال بمينكو وقلت له :

ـ اندريه ايفانوفيتش : قرر مجلس الدفاع الوطني اسناد قيادة التصفية النهائيـة لمجموعـة العدو المحاصرة في منطقـة ستالينغراد الى راكاسوفسكي ، وعليه ينبغي عليك ان تسلم قوات الجيوش السابع والخمسين ، والثانـي والستيـن والرابع والرابع والستين التابعـة لجبهة ستالينغراد الى جبهة الدون لتلحق بقواتهـا .

ـ ما الدافع لذلك ؟ سالني بريمنكـو .

وشرحت له دوافع هذا القرار .

ويبدو ان ذلك قـد اغضب اندريه ايفانوفيتش ، وكان واضحا انـه ليس فـي حالة تؤهله لمواصلـة الحديث بهدوء فاقترحت عليه ان يتصـل بـي بعـد قليـل .

وبعد ١٥ دقيقــة رن الجرس من جديــد .

ايها الرفيق الفريق اول ، انني لا زلت غير قادر على فهم الدافع الــى تفضيل قيادة جبهــة الدون ؟ انني ارجوك ابلاغ الرفيق ستالين برغبتي في ابقائي هنا حتــى التصفيــة النهائيــة للعــدو .

وردا على اقتراحي بان يتصل هو بالقائد الاعلى شخصيا فيما يتعلــق بهــذه المسألة رد بريمنكــو :

ــ لقد حاولت بالفعل ولكــن يوسكريبيشيف (سكرتيــر ستاليــن) اخبرني ان الرفيق ستاليــن قد امر بان يكون التفاهم في هذه المسألة معك انــت وحــدك .

واضطررت الى الاتصال تليفونيــا بالقائد الاعلى وابلاغه بمــا دار بيني وبيــن بريمنكو . وانبني ستاليــن على ذلك بالطبع ثم قال انــه لا بد علــى الفــور من اصدار امر باخضاع جيوش جبهــة ستالينغراد الثلاثة لقيادة راكاسوفسكي . وقد أصدر هذا الامر في ٣٠ كانون الاول ١٩٤٢ » .

« وفي اول كانون الثاني ١٩٤٣ اصبحت جبهة الدون تتكون من ٣١٢ الف مقاتل نشيط ، وقرابة ٦٥٠٠ مدفع ميدان وماكينة ، واكثر من ٢٥٠ دبابة ، وحوالي ٣٠٠ طائرة ،في كانون الثاني ١٩٤٣ ،نتيجة للمعارك التــي خاضتها الجبهة الجنوبية الغربية وجبهة ستالينغراد كان خط الجبهـــة الخارجي في منطقــة الدون قد انتقل قرابة ٢٠٠ ــ ٢٥٠ كيلومترا .واصبح وضع القوات الالمانيــة المحاصرة اكثر سوءا من اي وقت مضى .

وحرصا على عدم اراقة الدمــاء امرت القيادة العليا السوفيتية قيادة جبهــة الدون بان توجه انذارا الى القوات الالمانية المحاصرة بان تسلم نفسها كأسرى حرب طبقــا للقواعد المعترف بها . ولكن القيادة الالمانية ــ رفضت هذا الانذار وامرت جنودهــا بالقتال حتى اخــر طلقــة واعدة اياهـــم بالخلاص الذي لم يكــن ممكنــا . وكان الجنــود الالمان يدركون ذلك.

في ١٠ كانون الثاني ١٩٤٣ بعد التمهيد للهجوم بقصف مدفعي مركز تحركت قوات جبهــة الدون بهدف اختراق دفاع العدو وتفريق حشوده تمهيدا للقضاء عليهــا على مراحل . لكن الهجوم لم يحقق الهدف .

وفي ٢٢ كانون الثاني بعد تمهيد بالقصف المدفعي الكثيف النيــران تحركت قوات جبهة الدون في هجومهــا الثاني . لم يحتمل العدو قـــوة الضربة فبدأ في التفرق وفي هذا القتال حقق الجيش السابع والخمسون بقيــادة الجنرال تالبوخين ، والجيش السادس والستون بقيــادة الجنرال

جادوف افضل النتائج .
وفي مذكراته بعنوان « كارثة على الفولجا » يقول أ. فيدير ضابط المخابرات السابق في جيش باولوس السادس الالماني :« كنا مضطرين الى بدء الانسحاب على امتداد الجبهة كلها .. الا ان الانسحاب تحول الى فرار .. كان طريقنا مفروشا بالجثث التي غطتها العاصفة الثلجية وكأنها تشفق بنا ... كنا ننسحب بلا اي اوامر .. وفي السباق مع الموت ، الذي كان يلحق بنا دون عناء، منتزعا من صفوفنا حزما من الضحايا ، اخذ الجيش ينزوي في بقعة صغيرة » .

وفي ٣١ كانون الثاني قضى نهائيا على المجموعة الجنوبية من القوات الالمانية واستسلمت بقاياها وعلى رأسها الفيلد مارشال باولوس . وفي ٢ شباط ١٩٤٣ استسلمت بقايا المجموعة الشمالية . وبذلك انتهت تماما المعركة العظمى التي دارت على ضفاف الفولجا . حيث انهت وجودها اكبر تجمعات القوات الالمانية وقوات حلفاء المانيا الفاشية (كانت تشترك في القتال مجموعة كبيرة من القوات الرومانية .. غير انها استسلمت بسهولة في ٢١ تشرين الثاني ١٩٤٣ وبلغ عدد الاسرى اكثر من ٣٠ الف جندي) .

المعركة الضارية

كانت معركة ستالينغراد بالغة الضراوة . وانا شخصيا لا اقارنها الا بمعركة الدفاع عن موسكو . ففي الفترة من ١٩ تشرين الثاني ١٩٤٢ الى ٢ شباط ١٩٤٣ تم تدمير ٣٢ فرقة ، ٣ الوية ، وفقدت الفرق الست عشرة الباقية ما يتراوح بين ٥٠ بالمئة و٧٥ بالمئة من تشكيلها .
وبلغت جملة خسائر العدو في منطقة الدون والفولجاوستالينغراد قرابة ١،٥ مليون جندي ، ٣٥٠٠ دبابة وغيرها من الاليات الهجومية ، ١٢ الف مدفع ميدان وماكينة ، ٣ الآف طائرة وقدرا هائلا من المعدات الحربية الاخرى .

ما هي الظروف التي ادت الى الهزيمة المأساوية للقوات الالمانية ، والتي ساعدت على تحقيق انتصارنا التاريخي ؟

ان فشل كافة الخطط الاستراتيجية الهتلرية في عام ١٩٤٢ قد ترتب على التهوين من قوة وامكانيات الدولة السوفيتية ، والقوى الروحية

الجبارة الكامنة في الشعب السوفيتي ، كما ترتب على التهويل في قوة وقدرات القوات الالمانيــة .

ان المقدمــات الهامة للنصر قد تحققت في عمليــات « اورانوس » و« زحل الصغير » ، « الطوق » (اسماء سرية للعمليات الكبرى التي قامت بهــا القوات السوفيتية عام ١٩٤٢) . وكان ذلك يرجع الى التنظيم الماهر لعمليــة المفاجاة التكتيكية ، والاختيار الموفق لاتجاه الضربات الرئيسيــة، والتحديــد الدقيق لنقاط الضعف في دفاعات العدو . كمــا ان التقديــر السليم للاحتياجات الى القوى والوسائل الضروريــــة لسرعــة اختراق الدفاع التكتيكي للعدو ، والتطوير النشيط للاختراق بهدف التطويق النهائي للقوة الرئيسية للعدو ، هذا التقديــر السليم قــد لعب دورا كبيرا جدا .

وقد اكتسبت الدبابات والطائرات اهمية كبرى في جموح العمليات ، وفي التطويق النهائي للعــدو .

ان الاعداد العملي للهجوم المضاد قــد تم من جانب القيادة واركــان الحرب بمنتهى الدقة ، والتفكير العميق ، وفي اثناء الهجوم كانت ادارة القوات على كافــة المستويات تتميز باليقظــة والصلابة والانطلاق العنيد نحو الهــدف .

وكان للعمل السياسي دوره البارز في تربية الجنود على الثقة بقوتهم، والشجاعــة ، والرجولة ، والبطولــة الجماعية اثناء القتال .

لقد كــان انتصار قواتنــا في معركــة ستالينغراد نقطة تحول جذري في الحــرب لصالح الاتحاد السوفيتي ، وبدايــة لطرد القوات المعادية من اراضينــا .

« ان الهزيمة في ستالينغراد ــ كما قال الجنرال الالماني ليستفال ــ قــد ارهبت الشعب الالماني وجيشه القوي . فطوال تاريخ المانيا كله لــم « يوجد ابدا مثل هذا الفناء البشع لقوات بهذه الضخامة .

وفي اواسط الجنرالات والضباط وكذلك في صفوف الشعب الالماني اخذت تظهــر بشكل اكثر حدة مظاهر العلاقة السلبية نحو هتلر شخصيا. بدأ الالمان يدركــون ان هتلــر والمحيطين به قد قادوا البلاد الى مغامــــرة مكشوفــة ، وان الانتصارات التي وعدهم بهــا قــد قتلت مع قواتهم فــي الكارثــة على الدون والفولجــا وشمال القوقاز .

وبعد هزيمة القوات الالمانية والايطالية ، والمجرية ، والرومانية علــى

الدون والفولجا انهار نفوذ المانيا على حلفائها وبدات الخلافات فيما بينها ، كما ظهرت في هذه الدول بعض المحاولات لايجاد مخرج ما من شباك الحرب التي اوقعهم فيها هتلر .

وفي البلدان المحايدة كما في البلدان التي كانت لا تزال تتبع سياسة الترقب ، لعبت هزيمة الالمان في ستالينغراد دور الايقاظ ، والاقناع بعظمة الاتحاد السوفيتي ، وحتمية القضاء على المانيا النازية .

ومعروف للكل كيف انتقلت اخبار هزيمة القوات الالمانية في ستالينغراد عبر العالم كله ، وكيف الهمت الشعوب الى مواصلة الكفاح ضد الاحتلال الفاشي .

وبالنسبة لي شخصيا فقد كانت هناك اهمية كبرى لعملية الدفاع عن ستالينغراد ، واعداد الهجوم المضاد ، والاشتراك في حل المسائل المتعلقة بالعمليات في جنوب البلاد ، فهنا تلقيت تدريبا على الاعداد للهجوم المضاد اكبر بكثير مما تلقيته في منطقة موسكو عام ١٩٤١ . حيث لم تكن الامكانيات تسمح بتنظيم هجوم مضاد يهدف الى تطويق حشود العدو .

وتقديرا للنجاح في القيادة العامة للهجوم المضاد في منطقة ستالينغراد وما ترتب على ذلك من انتصارات كان لها اعمق الاثر في مستقبل النضال المسلح ضد الغزو النازي منحت الحكومة السوفياتية عددا من الاوسمة لبعض الجنرالات ومنهم زوكوف ...

كما ادت هزيمة الالمان في منطقة ستالينغراد والدون والقوقاز الى خلق الظروف المناسبة لتوسيع الهجوم المضاد على كل جبهات القتال في الاتجاه الجنوبي الغربي .

في فترة الشتاء طورت القوات السوفيتية عملياتها غربا فاستطاعت تحرير روستوف ، نوفوتشركسك ، كورسك ، خاركوف ، وعدد من المناطق الهامة الاخرى ، واصبح الوضع الاستراتيجي سيئا للغاية بالنسبة للقوات الالمانية على امتداد الجبهة الالمانية ـ السوفيتية .

« وفي بداية كانون الثاني ١٩٤٣ كلفتني القيادة العليا بالاشتراك مع فورشيلوف في تنسيق الجهد المشترك بين جبهة لينغراد وجبهة فولخوف من اجل رفع الحصار عن لينغراد من ناحية بحيرة لادوجا ».

وتم وضع الخطة المناسبة . وفي ١٢ كانون الثاني بدأ الهجوم

على دفاع القوات الالمانيـــة بقوات برية وجويـــة تابعة للجبهتين وبالتعاون مع القوات الجويـــة التابعـــة لاسطول البلطيق .

وفي ١٨ كانون الثاني بعد قتال ضار التقت قوات جبهتي لينغـــراد وفولخوف في منطقـــة المدن العاملية » رقم ١ ،٥ .

«كنت في هذا الوقت في منطقـــة المدينة رقم ١ ورايت كيف اندفع مقاتلـــو الجبهتيـــن ليعانقـــوا بعضهم البعض فرحا برفع الحصار ، ودون اكتراث بالقصف المدفعي لقوات العدو المحتلية تلال سينيافينسك . كانـــت بحق فرحـــة طال انتظارها . لقد كان لرفع الحصار عن لينغراد اهميـــة سياسية وعسكريـــة كبرى بالنسبة للشعب السوفيتي . لقـــد فشلت خطة هتلـــر لابادة اهالي لينغراد بالموت جوعا .

وهنا اود ان اشيـــد بالعمل الكبيـــر الذي قامت به منظمة لينغـــراد الحزبيـــة في ايـــام محنة الحصار » .

وفي ١٨ كانون الثاني ١٩٤٣ ... يوم انهاء الحصار قررت رئاســـة مجلس السوفيت الاعلى منحي رتبة مارشال الاتحاد السوفيتي .

وفي ٢٠ كانون الثاني دخلت انـــا وفورشيلوف مدينة لينغراد . وهناك شعرنـــا بغبطـــة عميقـــة لان احدا ممن التقينا بهم لم يشك من الحرمـــان الذي ترتب على الحصـــار . كانت كل الاحاديث تدور عن ضرورة التعجيل بتوريـــد الوسائل المادية ـ الاشتراكية اللازمة لانتاج وتصليح المعـــدات الحربيـــة التي تحتاج اليها قواتنا المسلحة .

الفصل الرابع عشر

هزيمـــة الالمــــــان
في مناطق كورسك واريول وخاركوف

ـ تحديد لحظة الانتقال للهجوم ـ تحرير منطقة الكوبان ـ التعبئة لعملية كورسك ـ تنظيم المؤخرة وتموين الجبهـــة ـ

« منذ لحظة الانتقال الى الهجوم المضاد فـــي منطقـة ستالينغراد (تشرين الثاني ١٩٤٢) حتى اذار ١٩٤٣ دمرت القوات السوفيتية ما يزيد عن ١٠٠ فرقـة معادية . بالطبـع لم تحقق قواتنا هذه الانتصارات الكبرى بسهولة . فنحـن ايضـا قد تكبدنا خسائر جسيمة .

بدأ زوكوف يستعد للهجوم وكان اول ما بدء بالاستمداد لمركة كورسك كما يصف لنـا كيف قامت المخابرات السوفيتية بالتجسس علـى الالمـــان وحركاتهم حتى لا يؤخذوا على حين غرة منهم ..

كما اشاد باعمال الفدائيين الروس الذين اضطر الجيش الالماني الـى تخصيص قوات خاصة من جيشه لمطاردتهم وحربهم ..

عمليـة كورسـك

وعلى وجه العموم فقد حققت القوات السوفيتية قبيل نشوب معركـة كورسك تفوقا كميا وكيفيا على القوات الالمالية الفاشية » .

وللقيام بعمليـة كورسك حشدت القيادة الالمانية ٥٠ فرقة ، ١٠ الاف مدفع ميدان وماكينة ، ٢٧٠٠ دبابة واكثر من الفي طائـرة اي حوالـي ٦٠ بالمئة من القوة الجويـة الالمانية في الشرق ، ٩٠٠ الف جندي على الـ استعداد لخوض القتـال .

« كانت القيادة الالمانية واثقـة في النصر . وبذلت اجهزة الدعايـة قصارى جهدها لرفع الروح المعنوية للقوات وامدة بالنصر الاكيد فيالمعركة القادمـة » .

« وكان على قيادتنا العليا ان تختار : الدفاع او الهجوم ؟ .. وبعـد مناقشات طويلـة قرر ستالين بحسم في منتصف ايار تقريبا مواجهة هجوم العـدو بنيران كافـة انواع اسلحة الدفاع النشيط ، وضربات الطيـران المركزة ، وبضربات مضادة من جانب الاحتياطيات التكتيكيـة والاستراتيجية وبعـد انهاك العدو واستنزاف قواه يبدأ تحطيم العدو بهجوم مضاد قوي في اتجاهات بلجوراد ــ خاركوف واربول وبعد ذلك يشن هجوم شامل على العدو فـي كافـة الاتجاهات » .

وفي اثناء اعداد العدو لهجومه قام بعدة عمليـات تحويرية لاخفـاء نوايـاه الحقيقيـة مثل عمل تشكيلات وهمية وغير ذلك من اساليب التضليل المعروفـة .. وكان ينبغي على هيئة اركـان الحرب العليـا ان تفهم ذلك جيـدا وتستطيع التمييز بـن ما هـو حقيقي وما هو زائف .

***

مثل هذا العمل لا يمكـن تنظيمه الا على نطاق واسـع تحت اشراف مركزي يوحـد كل الجهود وليس على اساس هذه او تلك مـن الافكـار والمقترحـات المنفـردة » .

« بالطبع ، حتى على المستوى العالمي يمكـن الوقوع في بعض الاخطاء وعلى سبيـل المثال فقـد توقعت القيادة وهيئة اركان الحرب . ان تكون اقوى تجمعات العدو في مواجهـة الجبهـة الوسطى فـي منطقـة اربول بينمـا اظهـر الواقع فيمـا بعـد ان اقوى التجمعات كانت في مواجهـة جبهـة فورونيـج » .

« في الايام الاخيرة من حزيران ١٩٤٣ اتضح الموقف نهائيا . وتأكد لنا ان العدو سيقوم بالهجوم في اقرب فرصة في منطقـة كورسك بالذات وليس في اي منطقـة اخرى غيرهـا » .

وقام العدو بهجومه فعلا وكان من الفاشلين ..

لقـد وقفنا امامه لا نتحرك ولا نتراجع ونصب عليه كل ما نملك من الاسلحـة ، والايمـان حتى تكسر هجومه وتوقف ..

وبدأ الروس يهاجمون بعد أن وقفوا موقف الدفاع اولا ..

بـدأ الهجـوم

في صباح ٣ آب بدأ الهجوم .. وفي النصف الثاني من اليوم استطاعت قوات جبهـة فورنيج ان تحطم الدفاع التكتيكي للعدو وتتوغل مسافة ٣٠ ـ ٣٥ كيلومترا وفي السادسة صباح ٦ آب دخلت طلائع قواتنا مدينة بيلوجراد وفي ٧ اب حررت قوات جبهـة فورنيج مدينة بوجودخوف ، وبعد معارك حاميـة كانت الغلبة فيهـا للقوات السوفيتية اصبحت جيوش جبهة البراري على ابواب مدينة خاركوف . وفي ضواحي خاركوف اجاد الجنـــــرال ماناجاروف « اللعب » المدفعي الذي كان قد وعد به المارشال زوكوف .

ويبدو ان روح الجنرال كانت ايضا سائدة بين جنوده اذ يقص المارشال زوكوف كيف استطاعت فصيلـة قوامها ١٦ فردا ان تحتل التبـة ٢٠١٫٧ وحين سيطرت الفصيلـة على هذه القمة كان الباقون على قيد الحياة سبعة ابطـال فقط صاح فيهم قائدهم الملازم اول بيتريشيف :

ـ يا رفاق . سوف نصمد على القمة تمامـا كمـا وقف « البنفيلوفيون عنـد دوبوسيكوف » نموت ولا نتراجع !

واضطرت القوات الالمانيـة خوفـا من تطويقها الى الانسحاب من مدينة خاركوف فدخلتهـا قوات جبهـة البراري ومن بينها قوات ماناجاروف .

وفي ٥ اب استطاعت قوات جبهـة برانسك تحرير مدينة اريول ... وعندمـا اتصلنا بالقائد الاعلى واخبرناه بان في امكاننا تطويق مجموعة كبيرة فـي منطقـة اريول والقضاء عليها قال لنا :

ـ ان هدفنـا هو اخراج الالمان من بلادنا باسرع ما يمكـن اما التطويق والتصفيـة فسوف نفعلهـا فيمـا بعـد حين يصبح العدو اكثر ضعفا .

لم نصر على اقتراحنا . ولقد اخطأنـا في عدم الاصرار . فقـد كـان

ينبغي علي" وفاسيليفسكي وانتونوف ان ندافع عن راينا بصلابة اكبر . فقواتنا في ذاك الوقت كانت قادرة على القيام بعمليات التطويق والتصفية .

ونتيجة لبطء هجومنا المضاد على الجبهات الثلاث ، تمكن العدو من اعادة تجميع قواته ودعمها بقوات جديدة ، وسحب قواته بانتظام من منطقة اريول وبتحرير خاركوف انتهت هذه المعركة العظمى في ٢٣ اب ١٩٤٣ .

ما هي النتائج العامة لمعركة كورسك ؟ بعد ٥٠ يوما من القتال الضاري تمكنت قواتنا من القضاء على ٣٠ من افضل فرق العدو من بينها ٧ فرق دبابات . وبلغت جملة خسائر العدو ٥٠٠٠٠٠ فرد ، ١٥٠٠ دبابة، ٣٠٠٠ مدفع ثقيل ، وعدد ضخم من الطائرات . وفي تلك الفترة لم تكن القيادة الالمانية تستطيع تعويض خسائر كهذه باي حال من الاحوال .

واثناء القتال في منطقة كورسك اظهرت قواتنا رجولة فريدة ،وبطولة جماعية ، وفنا قتاليا راقيا . وقد قدرت الحكومة والحزب دور ابطال المعركة فوزعت الاوسمة والنياشين والميداليات على ما يزيد عن مائة الف جندي وضابط وجنرال . كما حصل كثيرون على لقب بطل الاتحاد السوفيتي .

وشعرت المانيا الفاشية بشبح الهزيمة التي لا مفر منها ، ووجد الهتلريون انفسهم مضطرين لان يدفعوا الى الجبهة السوفيتية ــ الالمانية في صيف ١٩٤٣ باربع عشرة فرقة وقوات اخرى كبيرة ، تم سحبها من جبهات اخرى مما اضعف جبهاتها في فرنسا وايطاليا .

انتهت الى الفشل التام محاولة هتلر لانتزاع المبادأة من القيادة السوفيتية . ومنذ ذلك الحين وحتى النهاية كانت المانيا الفاشية تخوض معارك دفاعية فحسب . كانت قوة المانيا قد استنزفت ولم يعد هناك من يستطيع انقاذها من المصير المحتوم .. كانت هذه القضية محسومة .. وكانت المسالة مسالة وقت فقط .

واكتسبت القيادة السوفيتية خبرة كبيرة في قيادة العمليات الاستراتيجية والتكتيكية وارتفعت الى مستوى رفيع في فن القتال .

وكانت معركة كورسك تختلف عن معركتي موسكو وستالينغراد بانها اول معركة كبرى جرى كسبها بضربة ساحقة وتم تنفيذها طبقا لمخطط موضوع من قبل ومعد اعدادا جيدا .

وفي معركة كورسك استخدمت الدبابات والوحدات والتشكيلات المدرعة وعلى نطاق واسع لاول مرة ...

وقد لعبت الدور الحاسم في المناورة اثناء العمليات وفي التطوير السريع للانتصارات في عمق العدو ، وفي قطع الطريق بين قوات العدو والمؤخرة .

ان جيوش الدبابات وفرق وفيالق المدفعية ، والجيوش الجوية للجبهات قد نمت امكانياتنا بشكل حاسم وبالتالي غيرت من طبيعة العمليات التي تقوم بها جبهات القتال من حيث المدى كما من حيث الاهداف . ففي صيف ١٩٤٣ كان بوسعنا ان نحشد في الكيلومتر الواحد من الجبهة من ١٥٠ الى ٢٠٠ مدفع ثقيل ومن ١٥ الى ٢٠ دبابة .

ولقد لعب الفدائيون دورا كبيرا ساعد على تحقيق النصر في معارك كورساك ـ خاركوف ـ اربول . لقد خاضوا حربا ضروسا ضد قوات العدو في بيلوروسيا ، سمولينسك ، وغيرها .

ومن العوامل الحاسمة التي صنعت النصر يمكن ان نعد الروح المعنوية والسياسية العالية في صفوف القوات . ويرجع ذلك الى العمل السياسي . الحزبي الكبير والشاق الذي قام به القادة العسكريون والسياسيون ومنظمات الحزب والشباب ، وذلك في فترة الاستعداد للمعركة كما في اثناء القتال . فقد بذلوا كثيرا من قواهم الروحية لكي يرفعوا اكثر فاكثر من القدرات القتالية للقوات .

وفي ٢٥ اب استدعيت الى القيادة العليا لمناقشة الموقف والمسائل المتعلقة بمستقبل الهجوم الشامل للقوات السوفيتية التي اخذت بعد النصر في منطقة كورسك ابعادا جديدة .

تحرير اوكرانيا

وكان ستالين يرى ان المانيا لا تزال قادرة على مواصلة الحرب ضد الاتحاد السوفيتي خاصة ان الولايات المتحدة وبريطانيا لم تكونا بعد عازمتين على شن عمليات هجومية واسعة في اوروبا . فعملية انزال القوات في جنوب ايطاليا لم تكن قادرة على احداث تغيرات جوهرية في الموقف وان كانت قد سببت لهتلر بعض الاهتمامات الاضافية .

وكنت اوافق هيئة اركان الحرب على ان المانيا غير قادرة على القيام بعملية هجومية واسعة في الشرق ، ولكنها تملك من الامكانيات المادية والتكنيكية ما يكفي للقيام بعمليات دفاعية نشيطة .. ولقد ظهرت

بالفعل قدرة القوات الالمانية على تسديد ضربات مضادة محسوسة الى حد كبير وحققت في ذلك بعض الانتصارات المؤقتة .

الانتصارات

في ١٩٤٣ كان الاتحاد السوفيتي قد وصل بانتاج الطائرات الحربية الممتازة الى ٣٥ الفا ، وبانتاج الدبابات والمدفعية المتحركة ذاتيا الى ٢٤الفا وبذلك كنا قد احرزنا تفوقا على المانيا في الكم والكيف .

وفي٢٥ اب انعقد في القيادة العليا اجتماع لاستعراض الموقف على كل الجبهات ، وانا الان لا اذكر كل ما دار فيه ، لكني اذكر ان اهم شيء كان الحاح القائد الاعلى على ضرورة الاسراع بالسيطرة على نهري الدنيبر ومولوتشنيا حتى لا يتمكن العدو من تحويل اوكرانيا الى صحراء .

وكان القائد الاعلى محقا فيما يراه فالهتلريون في انسحابهم كانوا بوحشية شريرة يحرقون ويدمرون كل ذي قيمة . كانوا ينسفون الفبارك والمصانع ، ويحيلون المدن والقرى الى خرائب ، ويهدمون محطات الكهرباء والافران العالية وخلافه ، ويشعلون النيران في المدارس والمستشفيات، ويعدمون الاف الاطفال والنساء والشيوخ .

وفي ٦ ايلول تلقيت من القيادة العليا تعليمات بتوجيه الجبهات الخاضعة لقيادتي العامة في اتجاه الدنيبر . كان الهجوم يسير ببطء شديد، وكان العدو يبدي مقاومة شديدة ولكنه تحت وطاة خسائره اضطر في منتصف ايلول الى سحب قواته من منطقة الدنباس وبولتافا في اتجاه الدنيبر . واتخذت الجبهات كل الاجراءات التي تضمن مطاردة العدو حتى الدنيبر والاستيلاء على رؤوس جسر في عدة مواقع ثم العبور فورا لهذا العائق المائي الكبير .

ولتحطيم معنويات العدو القت الجبهات في المعركة بكل ثقل قواتها الجوية ، كما انشأت لهذا الغرض وحدات صغيرة سريعة الحركة كلفت بالتحرك السريع الى مؤخرة العدو بهدف السيطرة على المواقع التي يمكن ان يلجأ العدو اثناء انسحابه الى اتخاذها لاقامة خط دفاعه .

ومن اجل رفع الروح المعنوية للقوات اثناء عبور العوائق المائية اعلنت القيادة العليا في ٩ ايلول عن منح وسام سوفوروف لقادة عملية عبور نهر دسنا ولقب بطل الاتحاد السوفيتي لقادة عملية عبور نهر الدنيبر .

وفي شمال كييف استطاعت قوات الجنرال تشيبسوف التابعة لجبهة البراري ان تعبر الدنيبر بعد معارك دامية . وقد امتازت بشجاعة خارقة احدى الوحدات بقيادة الرقيب نيفيدوف الذي منح لقب بطل الاتحاد السوفيتي .

وعلى جبهة البراري نشبت معارك ضارية لعبور النهر انتهت بانتصارات كبرى .

وقد تم العبور في ظل السيطرة الجوية لقواتنا التي قامت بجهود كبرى لدعم القوات البرية ، واشترك في القتال طيران الجبهات المقاتلة والطيران البعيد المدى التابع للقيادة العليا مباشرة واستطاع الطيران اثناء العملية ان يوجه ضربات بالغة العنف الى مطارات العدو ومواقعه الدفاعية واحتياطياته .

وحتى نهاية ايلول كانت قواتنا قد دمرت دفاعات العدو وعبرت النهر في منطقة تمتد الى ٧٥٠ كيلومترا من لويف الى زابوروجي وسيطرت على رؤوس جسور على الجانب الاخر من النهر ، اتخذت كمناطق انطلاق لتحرير الضفة الغربية .

وتقديرا للعبور الظافر لنهر الدنيبر وما اظهرته القوات خلال ذلك من بطولة ، ورجولة ، وفن ، وتقديرا لتدمير دفاع العدو على الدنيبر منحت القيادة العليا لقب بطل الاتحاد السوفيتي لاكثر من ٢٥٠٠ جندي وضابط وجنرال .

وقد تم تغيير اسماء الجبهات بعد عبور الدنيبر فاصبحت جبهة فورنيج تسمى الجبهة الاوكرانية الاولى واصبحت جبهة البراري تسمى الجبهة الاوكرانية الثانية . وفي الفترة من ١٢ تشرين اول الى ٢٣ كانون الاول قامت الجبهتان بعملية كييف الاستراتيجية .

وفي فجر ٥ تشرين الثاني ١٩٤٣ كانت قوات الجيش الثامن والثلاثين بقيادة الجنرال موسكولينكو قد وصلت ظافرة بعد معارك عديدة عنيفة الى مشارف كييف وفي الرابعة صباح ٦ تشرين استرجعت قوات موسكولينكو وفيلق دبابات كرافتشنكو .

وعلى التو ارسلت الى القائد الاعلى برقية جاء فيها : « بسعادة طافية ابلغكم بان قوات الجبهة الاوكرانية الاولى قد حققت مهمتها في استرداد مدينتنا الرائعة كييف عاصمة اوكرانيا . ثم تطهير مدينة كييف

من المحتلين الفاشيست . وتواصل قوات الجبهة الاوكرانية الاولى تنفيذ المهام المقررة » .

وفي تخطيط وتنظيم عملية الاستيلاء على كييف والقضاء على مجموعة القوات المعادية في كييف ، لعب المجلس العسكري للجيش الثامن والثلاثين دورا كبيرا وهاما بقيادة الجنرال موسكولينكو وعضوية الجنرال بيشوف

وكانت اعادة تجميع القوات للاستيلاء على كييف وتوسيع « راس جسر» كييف تجري تحت القيادة المباشرة للجنرال اندريه جريتشكو نائب قائد الجبهة (وزير الدفاع الحالي للاتحاد السوفيتي)

وفي ٣٠ ايلول عبرت قوات الجبهة الاوكرانية الثانية نهر الدنيبر وسيطرت على راس جسر بطول ٣٠كيلومترا وعمق ١٥ كيلومترا .
وقد علمت القيادة العليا من مصادر المخابرات بان هتلر قبل بدء العمليات قد حضر الى مقر اركان حرب جيش « الجنوب » ... واعلن مطالبته الحاسمة للقوات بالدفاع عن الدنيبر حتى اخر فرد والاحتفاظ به باي ثمن .

كان الهتلريون يدركون ان ضياع اوكرانيا من ايديهم يؤدي الى الانهيار النهائي لجبهتهم في جنوب بلادنا ، وضياع شبه جزيرة القرم،ويمكن القوات السوفيتية في فترة قصيرة من الوصول الى حدود الاتحاد السوفيتي،

ولكن برغم التعليمات التي اصدرها هتلر والفيلد مارشال مانشتين خسرت القوات الالمانية المعركة على الدنيبر ... وكذلك لم تفلح محاولات الالمان لاقامة خط دفاعي جديد في كيرمنتشوج ـ دنيبروبتروفسك ـ زابورجي.
طبقا لتقارير هيئة اركان الحرب استطاعت القوات السوفيتية تحرير اكثر من نصف الاراضي التي استولى عليها العدو في عامي ١٩٤١، ١٩٤٢.
ومنذ بداية الهجوم المضاد في ستالينغراد ابادت القوات السوفيتية او اسرت ٥٦ فرقة المانية بالكامل ، والحقت هزيمة مريرة بـ ١٦٢ فرقة مما اضطر العدو الى اعادة تشكيلها او تعويض خسائرها الفادحة ، كما خسر العدو اكثر من ٧٠٠٠ دبابة واكثر من ١٤ الف طائرة ، واكثر من ٤٠ الف مدفع ميدان وماكينة وعددا هائلا من افضل جنوده وضباطه وجنرالاته.

وبينما كانت المانيا الفاشية تزداد عجزا كان الاتحاد السوفيتي يزداد قوة . ففي عام ١٩٤٣ تكونت ٧٨ فرقة جديدة وفي نهاية العام كان لدينا ٥ جيوش دبابات ، ٣٧ فيلق دبابات ومدرعات ، ٨٠ لواء دبابات مستقل، ١٤٩

كتيبة دبابات ومدفعية ذاتيــة الحركة ، ٢٦ فرقــة مدفعية ، ٧ فرق صواريخ وعددا كبيــرا من وحدات المدفعيــة الاخرى .

كان نتيجــة للتحول النهائي للحرب لصالح الاتحاد السوفيتي ، وانــزال قوات الحلفاء في ايطاليــا وخروجها من الحرب ، ونمو قوي المقاومة فــي جميع البلاد المحتلة ،ان تعقدت الاوضاع في البلدان الحليفة لالمانيا الفاشية. وكان سخط الشعوب على الفاشية ينمو ، ورغبتهــا في انهاء الحرب تزداد. وفي ولندا ويوغوسلافيا وتشيكوسلوفاكيا واليونان وفرنسا هبت عواصف حركات التحرير الوطنــي .

وبدات في داخل المانيا تتغير النظرة الفاشية واخذت القوى المعاديــة للفاشيــة تجد من يتعاطف معهــا .

وفي بلادنا تعاظمت الثقة بالذات ــ لا بد ان نخوض الحرب حتى النصر النهائي . كانت خسائرنــا جسيمة .. لكــن الشعب السوفيتي يدرك جيدا واجبــه نحــو الوطــن .

الفدائيــون

وكانت حركة الفدائيين في الاتحاد السوفيتي قد تحولت الى قوة هائلة تهدد العدو تهديدا خطيرا . ففي ١٩٤٣ الحقت الحركة الفدائية بالعدوخسائر جسيمــة فقد فجرت ١١ الف قطار ، ٤٠ الف عربة سكــة حديد، ٦ الاف قاطرة ، اكثر مــن ٢٢ الف عربة واكثر من ٩٠٠ جسر سكة حديد .

وفي ١٩٤٣ اتخذ الحزب عدة قرارات لاعادة الانتاج في المناطقالمحررة. كمــا اصبحنا نتلقى من الولايات المتحدة مساعدات اكبر منها في عام ١٩٤٢ ولكنهــا كانت اقل بكثير من القدر الموعود بل ان حجمها قد تناقص فينهاية سنــة ١٩٤٣ .

ولقد فرحنا بلا شك للانتصارات التي تحققت في ايطاليا والعلمين وتونس والمناطق . لكن هــذا على اي حال لم يكــن ما طال انتظارنا له مــن جانب الحلفاء لكــي نشعر بدورهم الجدير بالتقديــر .

وبعد عودته من مؤتمر طهران قال ستالين :

« قطع روزفلت على نفسه وعدا جادا ببدء عمليات واسعة في فرنساعام ١٩٤٤ واعتقد انــه سيفي بوعده . وحتى اذا لم يف بوعده فان قوتنا الذاتية تكفي لالحاق الهزيمــة بالمانيا الفاشية » .

في نهاية ١٩٤٣ كانت قواتنا قد حققت في هذين الاتجاهين نتائج هامة فهي قد حررت بالكامل اقليمي كالينين وسمولينك وجزءا كبيرا من بيلوروسيا الشرقية .

وفي الاتجاهين الجنوبي الغربي والجنوبي كان خط الجبهة قد اصبح يمر عبر بوليسيا ، جيتومتير ـ فاستوف ـ كيروفوجراد ـ زابوروجي ـ خرسون . اما شبه جزيرة القرم فقد كانت لا تزال تحت الاحتلال الماني.

وفي منطقة لينينغراد والشمال كان الوضع قد تحسن كثيرا عن ذي قبل .

كان اعضاء مجلس الدفاع الوطني كما كنا نحن اعضاء القيادة العليا نرى اننا قد حققنا انتصارات باهرة وان العدو قد مني بهزائم مريرة لكنه مع ذلك كان لا يزال قويا . ولقد استطاع العدو في عام ١٩٤٤ دخول معارك دفاعية قوية نظرا لعدم وجود جبهة ثانية في اوروبا .

ففي بداية ١٩٤٤ كانت القوات الالمانية في الاتحادة السوفيتي لتكون من قراب ٢ مليون جندي ، ٥٤٢٥ الف مدفع ميدان وماكينة ، ٤٥٠٠ دبابة واكثر من ٣ الاف طائرة .

وبعد دراسة شاملة وعميقة للموقف قررت القيادة العليا شن هجوم شتوي شامل على العدو من لينينغراد حتى القرم وقد كلفت وفاسيليفسكي باعداد الشكل النهائي للاهداف الموضوعة امام جبهات القتال المختلفة واستغرق هذا العمل جهدا متواصلا في هيئة الاركان طوال خمسة ايام .

وفي ٣٠ كانون الثاني ١٩٤٤ تم تطويق مجموعة كبيرة من حشود العدو في منطقة كورسون ـ شيفشينكوفسكي . وقد استماتت القوة في فك الحصار فهي بخلاف مجموعة باولوس في ستالينغراد لم تكن في رفع الحصار بواسطة قوات اخرى كما كان باولوس يأمل في جهود مانشتين ولهذا فهي قد بذلت كل ما في وسعها لاختراق خطوط القوات السوفيتية التي تحاصرها .

وفي ٨ شباط ١٩٤٤ قدمت القوات السوفيتية الى القوات الالمانية انذارا بالتسليم لكن قيادة القوات الالمانية المحاصرة رفضت الانذار في ٩ منه .

وفي ١٧ شباط تمت تصفية قوات العدو ، بعد معركة عنيفة واسرت الجبهة الاوكرانية ١٧ الف جندي الماني .

وبالانتصار في هذه المعركة تهيأت الظروف لتحرير اوكرانيا الشرقية باسرها ..

الفصل الخامس عشر

هزيمة القوات الفاشية في بيلوروسيا وانسحابها النهائي من اوكرانيا

ـ انتصارات الجيش الاحمر تحول الشعب كله الى كتيبة مقاتلة ـ محاصرة الجيش الثاني الرابع ـ كيف تم تحرير مدينة « مينسك » ـ اصبح السؤال الان : متى نبدأ في تحرير بولندا ـ جندي سوفياتي يلقي بقنبلة فوق دبابة ويلقي بجسده تحت جنازير دبابة اخرى فتنفجر .

عاش شعب (روسيا البيضاء) تحت نير الاحتلال ثلاث سنوات . كان الهتلريون خلالها يغتصبون ويدمرون ثروة الشعب البيلوروسي ، فقد احرقوا ١٢٠٠ مبنى في القرى ، ونسفوا ٧ آلاف مدرسة ، وابادوا ٢ مليون و ٢٠٠ الف شخص من المدنيين والاسرى . ولم تكن هناك اسرة واحدة لم تعان من بشاعة الحرب . ولكن بيلوروسيا برغم كل المحن ظلت صامدة رافعة الراس في مواجهة العدو .

وحين وصلت اخبار انتصارات الجيش الاحمر في تحرير اوكرانيا استمد الفدائيون البواسل قوة جديدة في تحدي العدو . وحتى صيف ١٩٤٤ بلغ عدد الفدائيين في روسيا البيضاء ٣٧٤ الف مقاتل . وكانت القيادة العامة للنضال الفدائي تجري تحت اشراف اللجنة المركزية للحزب

في جمهورية بيلوروسيا وعلى راسها السكرتير الاول بونومارينكو الذي كان في نفس الوقت رئيسا لاركــان حـرب الحــرب الفدائية فــي الاتحاد السوفياتي .

كانت عملية روسيا البيضاء تجري على مساحة تزيد فــي الطول عــن الف كيلو متر ، وتزيد في العمق عن ٦٠٠ كيلو متر ، وفــي مواجهة ٩٠٠ الف من خيرة جنود العدو المسلحين ٩٥٠٠ مدفع ميــدان وماكينة ، ٩٠٠ دبابة ، ١٣٠٠ طائرة ، وكان خط دفاع العدو بعمق ٢٥٠ ــ ٢٧٠ كيلو مترا .

كانت بداية العملية في ظروف الذكرى الثالثة للحرب بعــد ان كانت قواتنا قد حققت انتصارات ساحقة على العدو ممــا جعل جنودنا يدخلون المعركة وهم على ثقة بالنصر .

ولا شك ان معنويات المقاتلين قد زادت ارتفاعا حين جاءتهم الانباء بان الحلفاء قد انزلوا قواتهم فــي نورماندي مــن اعمال فرنسا . وفتحوا بذلك جبهة جديدة في اوروبا . ورغم ان مصير المانيا الفاشية كان قد تحدد نهائيا الا ان القوات السوفياتية قد ابتهجت لفتح جبهة جديدة لعلمها ان ذلك مــن شأنه ان يعجل بانتهاء الحرب قريبا .

في ٢٣ حزيران بدأ الهجوم العام . كان على جبهة البلطيق الاولــى ان تحرر بولوتسك وتواصل زحفها نحو جلوبوكيا . وكان على الجبهتين الثانية والثالثة تحرير مدينة يفسك عاصمة بيلوروسيا ، وكان على جبهة بيلوروسيا الاولى ان تتجه بقواتها الرئيسية نحــو سلونسك وان توجــه بعض قواتها لتسديد ضرباتها في اتجاه مينسك لكي تحتله من الجنوب والجنوب الغربــي وكان هذا التخطيط يجري تحقيقا لرغبــة القيادة العليا لتطويق جميــع مجموعات جيش « الوسط » الالماني وتصفيته بالكامل .

ولقد حققت القوات السوفياتية اهدافها طبقا لما ورد في الخطة وكــان تحقيق الخطة تعبيرا عــن نضج وبعد نظـر القيادة السوفياتية واتقانهــا المتعاظم للفن العسكري الاستراتيجي .

كانت الظروف قد اخذت تنضج لاطباق الحصار علــى جميع وحدات الجيش الالماني الرابع ، وكنا جميعا في القيادة العليا وهيئة اركان الحــرب والجبهات نشغل بالنا كثيرا بالقرار الذي يمكن ان تتخذه القيادة الالمانية .

وكما هو المتبع في مثل هذه الحالات ركزت القيادة على جهد المخابرات في استطلاع تفكير العدو والاجراءات العملية التي يمكن ان يلجــأ اليها .. لكن جهودنا لم تفلح في معرفة اي شيء ذي قيمة .

وافادنا الفدائيون بان العدو قد بث الالغام حول مقـر الحكومة ومقـر

اللجنة المركزية للحزب في مدينة مينسك المحتلة ، وحفاظا على هذه المباني الضخمة من التدمير قررنا ارسال قوة من الدبابات لتحاول الوصول سريعا الى داخل المدينة دون اشتباك مع قوات العدو في مشارف العاصمة ، وزودنا القوة بوحدات من سلاح المهندسين لرفع الالغام .

وقد تمت العملية بنجاح . ففي فجر ٣ تموز اقتحم فيلق الدبابات الثاني بقيادة بوردليني المدينة من الشرق . وفي نفس الوقت احتل الفيلق الاول للدبابات التابع لجبهة بيلوروسيا الاولى اطراف المدينة من ناحية الجنوب الشرقي . ثم اخذت تتوالى بقية التعزيزات . وتم تحرير مينسك نهائيا في مغيب يوم ٣ تموز .

وتم تطويق قوات للعدو قوامها ١٠٠ الف جندي .

كانت المدينة قد تغيرت كثيرا . لقد عشت فيها من قبل ٧ سنوات وكنت اعرف كل شارع فيها .. اين المسارح والجسور والاستاد والعمارات .. كان ذلك كله قد تحول الى انقاض .

وكان اكثر ما يؤلم النفس هو رؤية وجوه الناس .. كان معظمهم يلوح لي كاشباح .. وكانت الدموع تسيل على الخدود بغير حدود .

وفي ٨ تموز صفيت المجموعة المحاصرة فقتل من قتل ووقع في الاسر من تبقى . وكان عدد الاسرى ٥٧ الفا من بينهم ١٢ جنرالا . ثلاثة منهم قواد فيالق وتسعة قواد فرق . وكان بعض الاسرى قد تمكن من الفرار لكنهم لم يلحقوا بقواتهم المنسحبة لانها كانت تتقهقر بسرعة كبيرة . وقد وقع هؤلاء في قبضة الفدائيين .. اسياد غابات بيلوروسيا الحقيقيين .

« كانت مسالة هزيمة المانيا في الحرب مسالة محسومة ليس لدى احد شك فيها . فقد حسمها القتال على الجبهة السوفياتية الالمانية في عامي ١٩٤٣ ، ١٩٤٤ . ولكن التفكير كان فقط في موعد انجاز هذه المهمة كما في النتائج العسكرية ــ السياسية » .

كان ستالين يفهم الامور بعمق ، وكان يعتقد ــ ولقد كان على حق ــ ان الاتحاد السوفياتي قادر على خوض الحرب منفردا حتى الحاق الهزيمة النهائية بالمانيا الفاشية بالاعتماد على القوى الذاتية للاتحاد السوفياتي . ورغم ذلك فقد كان القائد الاعلى يرحب بفتح جبهة جديدة في اوروبا لما يمكن ان يؤدي اليه من انهاء الحرب سريعا .. وهو امر بالغ الحيوية بالنسبة للشعب السوفياتي الذي ضحى كثيرا طوال هذه السنوات .

« ثار سؤال : ما الذي يمكن ان تطمع فيه المانيا في هذه الظروف ؟ رد ستالين على هذا السؤال بما يلي :

ــ يطمع فيمــا يطمع فيه اي مقامر حتى يخسر كل ما معــه ، واضاف مولوتوف ــ هتلر ــ فيما يبدو ــ سوف يحاول التوصل الــى اتفاقيــات منفردة مع الدوائر الحاكمة الامريكية والبريطانية فرد ستالين :

ــ هذا محتمل من جانبه .. لكن روزفلت وتشرشل لــن يقبلا الاتفاق مع هتلر . سوف يحاولان تحقيق مصالحهم السياسية في المانيا ليس عــن طريق التعاون مع الهتلريين الذين فقد الشعب ثقته بهم ، وانما عــن طريق البحث عن الطريق الى تشكيل حكومة المانية موالية لهم .

ثم سالني القائد الاعلى :

ــ هل تستطيع قواتنا البدأ في تحرير بولنــدا والزحف دون توقف حتى فيسلو .

فاجبته : ان قواتنا ليست فقط قادرة على ذلك بــل ملزمة بالاستيلاء على رؤوس جسور على النهر لكي تؤمن عملية الهجوم الاستراتيجي فــي اتجــاه برلين .

واصلت القوات السوفياتية زحفها حتى قضت على ثلاثة مــن جيوش « الوسط » الالماني وهي جيش الدبابــات الثالث وجيشي المشاة الرابــع والتاسع . وتكونت نتيجة لذلك فجوة في الارض التي يسيطر عليها العدو .. فجوة (!) بامتداد ٤٠٠ كيلو متر وعمق ٥٠٠ كيلو متر . ولم تستطع القوات الالمانية ان تغطي هذه الفجوة بوحدات اخرى .

ووصلت القوات السوفياتية الى فيسلين فــي منطقة ديمبلين حيث حررت من بقي على قيد الحياة في معسكر الابادة النازي في ميدانيكا حيث اباد النازيون مليونا ونصف المليون من الناس .

وفي ٢٨ تموز قضت قوات جبهة روسيا البيضاء على قوات العدو في منطقة بريست وحررت المدينة وقلعة بريست البطلة التــي كانت اول ارض روسية تعرضت للعدوان الفاشي في ٢٢ تموز ١٩٤١ .

وقد لعب الفدائيون دورا مجيدا في القضاء علــى مجموعــة جيوش الوسط بالمساعدات التي ادوها للقوات المسلحة النظامية . ــ

وفي ٢٧ تموز بدات القوات السوفياتية عبور نهر فيسك الامر الــذي لعب دورا هاما في تحرير بولندا فيما بعد . واذ كان الالمان يدركون خطورة العبور فقد وجهوا مزيدا من قواتهم لمواجهــة الجيشين العابرين الثامــن والتاسع والستين .. ودارت معارك طاحنة صدت فيها القوات السوفياتية جميع هجمات العدو وكبدته خسائر جسيمة .

كان البقاء على الشاطىء الاخر عملية قتالية تفوق فــي ضراوتها اي

وصف . وهذا ما قاله لي احد الابطال الجرحى :

« صدرت الاوامر لفصيلتنا بعبور فيسلو في الشروق . كنا اكثر قليلا من خمسين بقيادة الملازم بوربا . وبمجرد وصولنا الى الشاطىء اطلق العدو نيرانه علينا ثم شق هجومه فتصدينا لهجومه الاول ثم الثاني ثم الثالث . وفي اليوم التالي بدأ العدو يهاجمنا بالدبابات والمشاة . وكان الهجوم الاخير بالذات عنيفا للغاية . لم يبق منا على قيد الحياة غير ١٢ فردا » .

وقبل الهجوم الاخير للعدو قال لنا الملازم بوربا : « عددنا قليل « يا اولاد » . في المساء سوف يجيئنا التعزيز .. وحتى المساء لا بد ان نقاتل حتى آخر قطرة من دمائنا . لن نستسلم !

وبعد قليل هاجمنا العدو بالدبابات وفصيلة مشاة اقتربت منا جدا بضعة دبابات . القى الملازم قنبلة على دبابة فدمرها ثم القى بنفسه تحت دبابة ثانية وفي يده قنبلة . لقد ردعنا العدو .. لكن القائد استشهد . بقي من الفصيلة ٦ افراد فقط حين جاءتنا نجدة ولم يسقط موقعنا في ايدي العدو » .

« كان الجندي يقص بطولة قائده ورفاقه عاجزا عن حبس الدموع في مقلتيه . وانا ايضا لم اقو على سماع روايته دون تأثر بالغ وحزن عميق .. هذه قصة هؤلاء الرجال الشجعان . وقد منح لقب بطل الاتحاد السوفياتي للملازم الشهيد بوربا » .

المخابرات

« وهنا اريد ان اتحدث عن المخابرات مرة ثانية بوصفها عاملا خطيرا في النضال المسلح . فخبرة الحرب تؤكد ان معلومات المخابرات وتحليلها الصحيح لا بد ان تتخذ اساسا لتقدير الموقف والقرارات المتخذة والعمليات المرسومة . واذا لم تتمكن المخابرات من تقديم معلومات صحيحة او حدثت اخطاء جوهرية في تحليلها فلا بد في هذه الحالة ان تنحرف قرارات القيادة والاركان في جميع المستويات عن الاتجاه السليم . ونتيجة لذلك فان سير العمليات لن يتم كما هو متصور في اثناء التخطيط » .

وهكذا ، في خلال شهرين من القتال المنيف المتواصل ، تم القضاء على اثنين من اكبر التجمعات الاستراتيجية لالمانيا الفاشية في الاراضي السوفياتية وتحررت جمهورية بيلوروسيا كما تم تحرير جمهورية اوكرانيا ، وتطهير جانب كبير من جمهورية ليتوانيا مع تحرير شرق بولندا .

عبد الرحمن الكويتي

الفصل السادس عشر

فـــي الطريق الـــى برلـــين

ـ زوكوف وقيادة الزحف على برليـن ـ الحلفـــاء يحررون فرنسا وبلجيكـا وهولنـدا ويقتربون من الحدود الالمانية ـ حمامات الدم التي اقامها رجال الجستابو ـ سحق البرابـرة الفاشيون مدينة وارسو ـ ستالين يراجع عملية غزو برلين .

في نهاية ايلول ١٩٤٤ عدت الـــى القيادة العليا مـــن بلغاريا وبعد ايام قلائل كلفني القائد الاعلى بالسفر الى منطقة وارسو حيث تجتمع قـــوات الجبهتين الاولـى والثانيـــة البيلوروسيتين ـ روسيا البيضاء ـ .

قبل كل شيء كنت اود ان اعرف الموقف فـــي وارسو ذاتها . فالقيادة الالمانية قد صبت نقمتها بوحشية خاصة على اولئك الذين اشتركوا في انتفاضة المدينة . اباد الالمان عددا هائلا من المدنيين ودمروا المدينة حتـــى الاساس . وتحـت الانقاض لقي آلاف البولنديين حتفهم .

ادرك المارشال زوكوف ان القوات السوفياتية لـم تحط علما بموعـد انتفاضة وارسو ولهذا لم تستطع تقديم اي عون للمقاومة الشعبية وحيـــن حاولت القوات دخول المدينة تكبدت خسائر فادحة واقتنع المارشال بـــان مواصلة الهجوم لن يؤدي الى نتيجة ايجابية وان الخسائر الفادحة ليس لها ما يبررها وكان يشاركه الرأي الجنرال واكوسوفسكي .

وعاد المارشال والجنرال الى موسكو ليطالبا ستالين بالامر بالانتقال من وضع الهجوم الى وضع الدفاع في الجبهة البيلوروسية الاولى وكان ستالين يصر على رايه بينما كان زوكوف هو الاخر يصر على رايه المعارض .

– ارى ان الهجوم لن يؤدي الا الى التضحيات . وفي النهاية اقتنع ستالين .

وفي اليوم التالي سال ستالين زوكوف :

– ما رأيك في ان تكون قيادة كل الجبهات خاضعة في المستقبل للقيادة العليا مباشرة .

وفهمت انه يعني اعفاء مندوبي القيادة العليا للتنسيق بين كل مجموعة من الجبهات . وان هذه الفكرة قد راودته ليس فقط نتيجة لحديث الامس.

– توجد امكانية تامة لادارة الجبهات مباشرة من القيادة العليا فعدد الجبهات قد تناقص ، وتناقص كذلك امتداد الجبهة العامة كما تناقص عدد القواد .

– هل تقول ذلك دون استياء ؟

– وفيم الاستياء . اعتقد انني وفاسيليفسكي لن نصبحا عاطلين .

وفي مساء نفس اليوم استدعاني القائد الاعلى وقال لي :

– الجبهة البيلوروسية الاولى تشق طريقها الى برلين . نحن نفكر في وضعك في هذا الاتجاه .

فاجبته بانني مستعد لان اقود اي جبهة .

– وسوف تظل في المستقبل نائبا لي سوف اتصل الان براكاسوفسكي واقترح عليه الانتقال الى الجبهة الثانية البيلوروسية .

كانت الانتصارات الاقتصادية للاتحاد السوفياتي لتيح توفير الامكانيات الضرورية ليس فقط للقوات المسلحة السوفياتية ، وانما ايضا للشعوب المناضلة في وسط وجنوب شرق اوروبا وعلى سبيل المثال فقد قدم الاتحاد السوفياتي الى قوات التحرير البولندية ٣٥٠٠ مدفع ميدان ، ١٢٠٠ طائرة ، ١٠٠٠ دبابة ، ٧٠٠ الف بندقية ومدفع رشاش ، ١٨ الف سيارة ، وقدم الى قوات التحرير اليوغسلافية ٤٤٢٩ مدفع ميدان وماكينة ، ٥٠٠ طائرة ، واكثر من ١٣٢٩ محطة اذاعة وكثير جدا من المعدات الحربية المختلفة .

في هذه الفترة كان الاتحاد السوفياتي قد حرر اراضيه من قوات الاحتلال الالماني واسترد حدوده الدولية باستثناء كورلياندا ، ونقل العمليات الحربية الى اراضي دول اوروبا الشرقية والمانيا الفاشية .

وكانت القوات البلغارية قد اتخذت مواقعها على الجبهة . كما كانت

قوات جيش التحرير الشعبي بقيادة المارشال تيتو قد وصلت الى بحر الادرياتيك .

وكانت قوات الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا قد حررت فرنسا وبلجيكا وجزءا من هولندا واقتربت من حدود المانيا الفاشية عند ما يسمى بخط زيجفريد .

المانيا في حرج

واصبحت المانيا في وضع حرج فقدرتها على انتاج السلاح قد انخفضت جدا في نهاية ١٩٤٤ وكان الضغط على المانيا يتزايد من جميع الجهات . من الشرق والجنوب الشرقي والجنوب والغرب . وبذلك وقعت في حصار استراتيجي كان من الصعب جدا ايجاد مخرج منه .

وفي ذلك الوقت كان رجال الجستابو يسحقون بلا هوادة اي مظهر لعدم الثقة بنظامهم او الاختلاف عنهم في التفكير ، وخاصة بعد محاولة اغتيال هتلر في ٢٠ تموز ١٩٤٤ وتكونت بقيادة هملر قوات احتياطية خاصة تضم الرجال من ١٨ الى ٦٠ سنة . بل كون الهتلريون كذلك فيلقا نسائيا . كانت المانيا الفاشية تستجمع في يأس آخر قواها . محاولة التغلب على الكارثة المحققة .

ومع ذلك فقد كانت المانيا لا تزال قادرة على خوض معارك دفاعية قوية فقد كان لديها في ذلك الوقت جيش قوامه ٥ر٧ مليون جندي من بينهم ٣ر٥ مليون في الجيش العامل . وحتى ذاك الوقت كانت المانيا تحتفظ بقواتها الرئيسية على الجبهة الشرقية : ١ر٣ مليون جندي ، ٥ر٢٨ الف مدفع ميدان وماكينة وحوالي ٤٠٠٠ دبابة ، حوالي الفين طائرة . ويجب مراعاة ان خط الجبهة السوفياتية الالمانية كان اصبح اقصر كثيرا من السابق ويعني ذلك ان كثافة القوات الالمانية كانت لا تزال عالية .

لكن القوات السوفياتية كانت وقتذاك تتفوق على القوات الالمانية من جميع النواحي : حوالي ٦ ملايين جندي في الجيش العامل ، اكثر من ٤ر٩١ الف مدفع ميدان وماكينة ، حوالي ١١ الف دبابة ومدفع ذاتي الحركة ، واكثر من ٥ر١٤ الف طائرة .

وكانت الى جانبنا قوات بولندية وتشيكوسلوفاكية وبلغارية ورومانية قوامها ٣٢٠ الف جندي .

وفي صفوف قوات الجبهة الثالثة البيلوروسية قاتلت ببطولة كتيبة الطيارين الفرنسيين « نورمانديا – نيمان » .

وفي الغرب كانت القوات الامريكية والانكليزية والفرنسية تتكون من ٨٧ فرقة جيدة التسليح ٦٥٠٠ دبابة ، واكثر من ١٠ آلاف طائرة . وفي مواجهة هذه القوى حشدت المانيا ٧٤ فرقة صغيرة العدد ، ١٦٠٠ دبابة ، ١٧٥٠ طائرة بعد دراسة دقيقة للموقف وامكانيات جميع القوى المتحاربة قررت القيادة العليا السوفياتية ان تقوم في بداية ١٩٤٥ بعدة عمليات هجومية واسعة في عدة اتجاهات :

- تصفية حشود العدو في بروسيا الشرقية والاستيلاء عليها .
- تصفية قوات العدو في بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر والنمسا .
- الوصول الى خط نهر فيسلو – برومبرج – بوزنان – برسلاو – جزر موارفيا .

في ذلك الوقت كانت قد تكونت علاقات مرضية بين القيادة العليا السوفياتية وبين قيادات الحلفاء .

« ولا بد هنا ان اذكر احد الحقائق الهامة وهو ان برلين كانت على بعد واحد من الجبهة السوفياتية وجبهة الحلفاء . وليس صدفة ان ونستون تشرشل في مذكراته قد تحدث عن برلين في اكثر من موضع كهدف رغب الحلفاء في الاستيلاء عليه رغم ان رؤساء الدول كانوا قد اتفقوا على ان تتولى القوات السوفياتية احتلال برلين » .

« لا بد أن اقول ان ستالين كان يثق بالمعلومات الواردة من ايزنهاور .

ومن المكاتبات المتبادلة بين ستالين وروزفلت يتضح انه كان هناك وضوح تام في تنفيذ الاتفاق المبرم بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة في مجال التوريدات كما في مجال المسائل الاستراتيجية .

« ولكن هذا لا يمكن قوله فيما يتعلق بونستون تشرشل . فخطاباته لم تكن تتسم بالصراحة بل كان يحس المرء في ثناياها بنوع من المماطلة. والسعي باصرار الى الاستيلاء على المناطق الوسطى من المانيا . مما جعل الحكومة السوفياتية تصبح اكثر حذرا » .

« في نهاية تشرين الاول كلفتني القيادة العليا بالعمل على وضع الخطوط الرئيسية للعمليات النهائية للحرب وفي مقدمتها العمليات في اتجاه برلين » .

وأمرت باجراء « مباراة حربية » على مستوى الجبهة والجيوش وفي هذه المباريات كانت تجري عملية موازنة بين القوات السوفياتية وقوات

العدو وكانت لهذه المباريات فائدة كبرى في ادراك جميع الوحدات المقاتلة لدورها في المعركة القادمة .

وقبل توجيه الضربة الى برلين ذاتها كـان المقـرر اجـراء عمليتين هجوميتين واسعتين في الاتجاه الغربي الاستراتيجي الاولى فـي بروسيا الشرقية والثانية في اتجاه وارسو ـ برلين .

كانت الجبهة الاولى روسيا البيضاء مكلفة بتسديد ضربتها في الاتجاه العام نحو بوزنان ، والجبهة الاولى الاوكرانية مكلفة بالوصول الى نهر اوديـر شمال شرقي جلوجاو ، برسلاو ، راتيبور . اما الجبهة البيلوروسية الثانية روسيا البيضاء فكانت مكلفة بمواجهة مجموعة حشود العدو فـي بروسيا الشرقيـة .

في مذكراته عن معركة فيسلو يقـول الجنرال الالمانـي تيبيلسكرنج : « كانت الضربة قوية الى حد انه قذف الـى الوراء ليس فقط بفـرق خط الدفاع الاول ولكن ايضا بقوات احتياطية كبيرة ومتحركة كانت قـد انضمت الى القوات بناء على التعليمات المشددة لهتلر شخصيا . وقد تكبدت هـذه القوات ما تكبدت من خسائر اثناء « الاعداد المدفعي» للروس (قصف تمهيدي يسبق الهجوم) . وفيما بعد لم يعد يمكن استخدام هـذه القوات اثنـاء الانسحاب الشامل .

ويضيف زوكوف ان استخدام هذه القوات لـم يكـن ممكنا لان قوات الجبهة الاكرانية الاولى كانت قد قضت عليها . وفي ١٧ كانون الثاني دخلت الجيوش السوفياتية وارسو .

تدمير فرصوفيا

وكما بعد كل هزيمة كبرى اجرى هتلر حركة تغييرات جديـدة للقـواد فاستبدل الجنرال جاربي بالجنرال شيرنر ، واستبدل الجنـرال لبوتفيتش بالجنرال يوسي .

وحين دخلت القوات السوفياتية وارسو وجدتها انقاضا . وقد ارسل المجلس العسكري للجبهة برقية الى القائد الاعلى :

« سحق البربريون الفاشيست وارسو .. عاصمة بولنـدا . فبتفنن سادي متوحش هدم الهتلريون احياء وارسو واحد اثر واحد ... لـم يعد هنالك اثر على سطح الارض للمنشآت الصناعية الكبرى . العمارات السكنية

نسفت بالالغام او تلتهمها النيران . اقتصاد المدينة مدمر . عشرات الالوف ابيدوا والباقون طردوا . . ماتت المدينة !»

وقد ارسلت القيادة الالمانية ٦ فــــرق لايقاف زحف الجبهة الاولــى (روسيا البيضاء) لكن هذه القوات ابيدت قبل ان تتخـــذ مواقعها بضربة قاسمة بددت امل المانيا الفاشية في الاحتفاظ ببولندا . وفي ٢٣ كانـــون الثاني استولت القوات السوفياتية على مدينة برومبرج ثم استولت في ٢٥ كانون الثاني على مدينة بوزنان .

واتصل زوكوف بستالين وابلغه بانتصار قواته وطلب الاذن له بمواصلة الزحف حتى نهر اودير لكن ستالين حذره من ان قوات الجبهة البيلوروسية الثانية لم تحقق بعد مهمتها . . . وان وصول الجبهة البيلوروسية الاولــى منفردة الى نهر اودير سوف يجعل جناحها مكشوفا وانــــه يفضل ان يؤجل الزحف قرابة عشرة ايام حتى تستطيع قوات الجبهـــة الثانية الانتهاء مــن تصفية العدو في بروسيا الشرقية وتجميع حشودها على الجانب الاخر مــن نهــر فيسلو .

وتحت الحاح زوكوف وافق ستالين بعد عدة ايام مــع تكرير التحذير بضرورة التفكير الجدي في تأمين الجناح الايمن . ويعترف المارشال زوكوف بان ستالين كان على حق فقد اثبتت الاحداث صحة رايه . وقد كان الخطر يتعاظم اثناء القتال الا ان الجبهة استطاعت من ١ الى ٤ شباط الوصول الى النهر وعبوره واتخاذ راس جسر في غاية الاهمية في منطقة كوستريمد .

ومن اتصالاتي بالقائد الاعلى كنت اعلم ان قوات جبهاتنــا الاوكرانيــة الثانية والثالثة والرابعة كانت في غمار المعارك العنيفة من كانون الثاني حتى منتصف نيسان قد طهرت من القوات الالمانية الفاشية اراضي المجر ، وجانب كبير من تشيكوسلوفاكيا ، ودخلت النمسا وحررت فيينا ، وشقت طريقهــا الى المناطق الوسطى من تشيكوسلوفاكيا .

وعلى الجبهة الغربية كانت قوات حلفائنا في شباط واذار قــد عبرت نهر الراين وحاصرت مجموعة كبيرة من القوات الالمانية فــي منطقة رور ، استسلمت للحلفاء في ١٧ نيسان .

ونتيجة لتصفية القوات الالمانية الرئيسية علـــى الجبهـــة السوفياتية الالمانية ، ولعبور الحلفاء نهر الراين . حلت بوادر الكارثة التي لا مفر منها . لم تكن المانيا قادرة على مواصلة الحرب . كانت نهاية الحرب قد دنت وفــي

علاقاتنا مع الحلفاء اخذت بعض المسائل السياسية تتخذ شكلا حادا . كان هذا ابعد ما يكون عن الصدفة .

فالبطء الشديد في تحرك القيادة الاميركية الانكليزية تحول الى عجل شديد . وكانت الحكومتان الامريكية والبريطانية تتعجلان قيادة قوات الحلفاء في اوروبا للاسراع في احتلال المناطق الوسطى من المانيا قبـــل ان تتمكن القوات السوفياتية من الوصول اليها .

وفي اول نيسان ١٩٤٥ كتب تشرشل الـــى روزفلت : ان الجيـوش الروسية سوف تستولي بلا شك على النمسا كلهـــا وتدخل فيينـــا . فاذا استولت كذلك على برلين . أفلا يكون لديهم تصور ــ مبالــغ فيـه للغاية ــ بأنهم هم الذين اسهموا بالقسط الاكبر في انتصارنا العام . افـــلا يمكن ان يؤدي ذلك بهم الى اطار من التفكير يخلق في المستقبل متاعب بالغة الاهمية والجدية ولهذا فانني ارى من وجهة النظر السياسية انـــه ينبغي علينا ان نتوغل شرقا في المانيا الى ابعد مدى مستطاع واذا حدث ان اصبحت برلين في نطاق منالنا ، فبلا شك ، لا بد ان نستولي عليها .

وكما علمت فيما بعد ، اتخذت القيادة البريطانية ، وعدد من الجنرالات الامريكيين كل الاجراءات للاستيلاء علـــى برلين والاراضي الواقعة شمالها وجنوبهـــا .

ابـــن ستاليـــن الاسيـــر

في ٧ وربما ٨ اذار سافرت الى موسكو باستدعاء عاجل مـــن القائـــد الاعلى ومن المطار توجهت فورا الى « داتشـا » ستالين حيث كـــان معتـــل الصحة نوعا ما .

وبعد ان وجه الي بعض الاسئلة عن الموقف في الجبهة قال القائد الاعلى:
ــ هيا نتجول قليلا . . فانني اشعر باعياء .

في مظهره العام ، وحركاته ، وحديثه كان يبدو عليه الارهاق الشديد. لقد انهكت سنوات الحرب ستالين الى ابعد الحدود ، فطوال الحرب كـــان يعمل بتوتر شديد ، وينام وقتا قليلا جدا ، ويعانـــي بشدة مرارة الهزيمة خاصة عامي ١٩٤١ ، ١٩٤٢ . ولم يكن من الممكن الا ينعكس هذا كلـــه علـــى صحته واعصابه .

وفجاة بدا ستالين ـ بينما كنا ـ نتنزه يحكي لـي عن طفولته واستمر حديثه قرابة ساعة ثم قال لي :

ـ هيا نشرب الشاي فثمة موضوعات ينبغي ان نتناولها .

ـ وفي طريق العودة سالته :

ـ يا رفيق ستالين منذ وقت طويل وانا اريـد ان اعرف اخبار ابنـك ياكوف .. اليست هناك معلومات عن مصيره ؟

لم يجب فورا على السؤال .. وبعد ان سار قرابة مائـة خطوة قـال بصوت محتبس :

ـ لن ينجو ياكوف من الاسر . سوف يقتلـه السفاحون . طبقـا لمعلوماتنا فانهم يعزلونه بعيدا عن بقية الاسرى ويحاولون التاثير عليه ليخون الوطن وبعد دقيقة صمت :

ـ لا .. ياكوف سيفضل الموت باي طريقة على خيانة الوطن احسست انه يعاني كثيرا من جراء ما حل بولده . وقد جلس الى المائدة صامتا ولمـدة طويلة لم تقرب يده الطعام .

ثم وكانه يتابع تفكيره قال بحزن :

ـ ما اقساها من حرب ... كم اودت بحياة البشر ... يبدو انه لـم تعد هناك اسرة لم تفقد عزيزا عليها ...

وتحدث ستالين مع زوكوف عن مؤتمر يالتا وعـن احترامه لروزفلت ، وعن الاتفاق على ادارة المانيا بعد التسليم ، وعن تقسيم المانيا الـى مناطق احتلال ، وعن الخطوط التي اتفق علـى وقوف قوات الحلفـاء والقوات السوفيات عندها ، وعن مستقبل حدود بولندا ، ونشات خلافات كبيرة على تشكيل الحكومة البولندية القادمة قال ستالين :

ـ تشرشل يريد ان تكون على حدود الاتحـاد السوفياتي بولنـدا بورجوازية غريبة علينا ، ونحن نريد مرة والى الابـد ان تكون بجوارنا بولندا صديقة . وذلك ما يريده الشعب البولندي ايضا .

وفي اثناء الحديث دخل بوسكريشيف وقـدم لستالين بعض الاوراق فالقى القائد الاعلى نظرة عليها ثم قال :

ـ اذهب الى هيئة الاركان وراجع معهم حسابات عملية برلين . وموعدنا هنا غدا في الساعة الثالثة عشرة .

وفي اليوم التالي اقر القائد الاعلى عملية برلين .

الفصل السابع عشر

عمليـــة بــرلـين

ـ الاهمية التاريخية لمعركة برلين ـ الحلفاء يستولون على نهر الراين دون مقاومـــة ـ ضربة قاصمة للعدو على نهر الاودير ـ الخطة الهتلرية لانقاذ برلين .

« تحتل معركة برلين مكانــة خاصة ، بصفتها العمليـة الختامية للحرب العالمية الثانية فــي اوروبا . وفي اثنـــاء الاستيلاء على برلين ، تم التوصل الى حلول عدد من المسائل السياسية والعسكرية الهامة التي حددت ـ الى مدى بعيد ـ تكوين المانيا بعد الحرب ودورها في اوروبا » .

وكانت القوات المسلحة السوفياتية في اعدادها لعملية برلين ، تنطلـق من روح الاخلاص للاتفاق المبرم بين الحلفاء على استسلام المانيا بدون قيـد ولا شرط في المجالات العسكريـة والسياسية والاقتصاديـة . وكان الهدف الرئيسي لنـا في هذه المرحلة هو التصفية النهائية للفاشية في نظام الحكم في المانيا ، وتحميل جميع المجرمين النازيين الاساسيين المسؤولية الكاملة عـن فظائعهم ، وجرائم الابادة والتدمير ، والطغيان في البلدان المحتلة ، وخاصة في بلادنا التي عانت الكثير .

وقد ظهرت فكرة عملية برلين لدى القيادة العليا في تشرين الثاني سنة ١٩٤٤ . وتم اعداد الخطوط النهائية في اثناء عمليات « فيسلو ـ اودير » « بروسيا الشرقية » و « بوميرانيا » .

وفي اعداد الخطة ، أخذ في الاعتبار جهد قوات الحلفاء في أوروبا ، الذي ادى الى وصول الحلفاء الى نهر الراين في اذار ـ نيسان سنة ١٩٤٥ .

ورغم ان مؤتمر يالتا كان يحدد منطقة الاحتلال السوفياتي غرب برلين بكثير ، ورغم ان القوات السوفياتيه كانت على نهري اوديـر ونيسي (٦٠ ـ ١٠٠ كيلو متر من برلين) ، فان القوات البريطانية لم تتخل عن حلمها في الوصول الى برلين قبل الجيش الاحمر .

ورغم عدم وجود وحدة بين الزعماء السياسيين والعسكريين في بريطانيا وامريكا على الخطط الاستراتيجية في المرحلة الختامية من الحرب ، فقد كانت القيادة الموحدة لقوات الحلفاء في اوروبا تميل الى احتلال برلين لو سنحت لها الفرصة .

ففي ٧ نيسان سنة ١٩٤٥ ، حين ابلغنا القيادة الموحدة للحلفاء بقرارنا فيما يختص بالعملية الختامية ، قال الجنرال دوايت ايزنهاور :

ـ بعد اخذ ليبزغ ، اذا ظهر انه من الممكن اخذ برلين ، فانني اريد ان افعل ذلك . وفيما بعد :

ـ انني اول من يوافق على ان الحرب تجري لتحقيق اهداف سياسية. واذا رات القيادة الموحدة ان جهود الحلفاء للاستيلاء على برلين اهم على هذا المسرح من الاعتبارات العسكرية البحتة ، فانني بسرور سوف أغيـر خططي وتفكيري على نحو يكفل تحقيق هذه العملية .

كان يوسف ستالين يعرف ان القيادة الهتلرية تقوم ذلك الوقت بنشاط كبير من اجل التوصل الى اتفاقيات انفصالية مع الحكومتين الامريكية والبريطانية .

واخذا في الاعتبار بالوضع اليائس للقوات الالمانية ، كان يمكن توقع ان يكف الهتلريون عن ابداء المقاومة على الناحية الغربية ، وان يفتحوا الطريق الى برلين امام القوات الامريكية والانكليزية حتى لا يسلموها للجيش الاحمر .

كيف جرى تقدم القوات الامريكية والبريطانية في منطقة الراين ؟

معروف ان الهتلريين لم تكن لديهم تغطية قوية في المنطقة ، كان الالمان يستطيعون ان ينسحبوا وراء الراين وينظموا مقاومة عنيفة ، لكنهم لم يفعلوا لان قواهم الرئيسية كانت في الشرق على خط المواجهة مع الجيش الاحمر .

وفي بداية الحملة الامريكية البريطانية كانت قوات المانيا في الغرب ٦٠ فرقة ضعيفة ، تعادل ٢٦ فرقة كاملة في مواجهة ٨٠ فرقة كاملة ، من بينها ٢٣ فرقة دبابات .

وكان للحلفاء تفوق جوي ساحق ، مما جعل عملية عبور الراين تجري

في ظروف سهلة ، حتى ليمكن القول بانهم في الواقع قد استولوا على الراين دون مقاومة المانية .

السباق الى برليـن

ومن المقابلات العديدة بعد الحرب مع عدد مـــن الجنرالات الامريكيين والبريطانيين ومن بينهم ايزنهاور ومونتغمـــري ، وروبرتسون ، وسميث ، ظهر ان مسالة استيلاء الحلفاء على برلين قد صرف النظر عنها فقط ، بعد ان وجهت القوات السوفياتية على الاودير والنيس ضربـــة قويـــة بالمدفعية والطيران والدبابات والمشاة ، كان مـــن نتيجتها تحطيم الدفاع الالماني مـــن اساسه .

عندما تلقت القيادة العليا بلاغا مـــن الجنرال ايزنهاور ، عـــن قراره بتوجيه ضربتين في شمال شرقي ، وجنوب المانيا وعـــن اعتزام القـــوات الامريكية الوقوف عند الخط المتفق عليه فـــي اتجاه برلين ، وصف ستالين الجنرال ايزنهاور ، بانه رجل مخلص للالتزام الذي اخذه على عاتقه . ولقـــد ظهر ان هذا الرأي كان سابقا لاوانه .

في ٢٩ كانون الثاني ، استدعاني ستالين من الجبهة ، وقابلته منفـردا في مكتبه في الكرملين ، فمد يده الي صامتا ثم قال كعادته ، وكانـــه يتابـع الحديث :

ـ الجبهة الالمانية في الغرب سقطت نهائيا ، والالمان ـ فيما يبـــدو ـ غير راغبين في اتخاذ اي اجراءات لايقاف زحف قوات الحلفاء . وفي نفس الوقت فانهم يدعمون مقاومتهم لقواتنا على كل الاتجاهات .

ـ اعتقد ان المعركة ستكون حامية . وسالني عن تقديري للعدو فـــي اتجاه برلين ، وعن موعد بدء العملية فاخبرته بـان جبهة بيلوروسيا الاولى ، وجبهة اوكرانيا الاولى تستطيعان بدء العملية فـــي غضون اسبوعين ، امـــا جبهة بيلوروسيا الثانية ، فسوف تتاخر حتى منتصف نيسان .

وسلمني ستالين رسالة جاءته من احد فاعلي الخير ، وفيها يقص كيف تجري من خلف الكواليس عمليات اتصال بين عمـــلاء هتلر وبيـــن الممثلين الرسميين للحلفاء ، حيث يعرض الالمان علـى الحلفاء ايقاف النضال ضدهم في مقابل عقد صلح منفرد . وجاء بالرسالة ايضا انه على الرغم مـــن رفض الحلفاء ، فان الالمان مع ذلك قد يفتحون الطريق امام الحلفاء الى برلين .

قال ستالين : ما رايك في هذا . ولم يمهلني حتى ارد ، بل أجاب هـــو قائلا : « اعتقد ان روزفلت لن ينقض اتفاقية يالتا . اما تشرشل .. فانـــه يمكن ان يفعل أي شيء » .

في اول نيسان سنة ١٩٤٥ ، وقع ستالين اوامر تكليف الجبهات الثلاث بادوارها في عملية برلين .

« طوال الحرب اشتركت في عمليات هجومية كثيرة كبرى ، لكنها جميعها تختلف عن عملية برلين ... ولقد عدت بذاكرتي الى معركة موسكو ، واخطاء كل من الجانبين ، وحاولت ان استفيد من ذلك لعلمي بأن معركة برلين ستكون بالغة العنف والضراوة . وفي اثناء التفكير فيما يمكن ان نفعله لكي نفاجيء العدو ونشل قدرته على المقاومة ، وهنا ولدت فكرة الهجوم الليلي على ضوء الكشافات، وقد تم تدريب الجنود عليها وحظيت بموافقتهم .

في ١٤ نيسان قال هتلر في ندائه الى الشعب الالماني :

لقد توقعنا هذه الضربة من العدو وحشدنا في مواجهته جبهة قوية . فسوف يستقبل العدو بنيران مدفعية بالغة العنف ... سوف تبقى برلين المانية » .

تحصين برلين

كانت الطرق المؤدية الى برلين من الناحية الاستراتيجية ، تحت سيطرة قوات مجموعة « فيسلو » الفاشية التي تحمي الطريق الى برلين من ناحية الشرق والشمال الشرقي ، ومجموعة « الوسط » التي تحمي سكوفيا والمناطق الصناعية التشيكوسلوفاكية من ناحية الشمال الشرقي ، ومجموعة الجنوب التي تحمي النمسا والمداخل الجنوبية الشرقية لتشيكوسلوفاكيا .

اما المداخل المباشرة الى برلين ، فقد كان الدفاع عنها تحت قيادة هملر وجنرالات الجستابو .

وفيما بعد ، وفي اثناء استجوابه ، صرح رئيس غرفة عمليات القيادة العليا الالمانية ، الجنرال جوديل بقوله : « وبهدف تدعيم الجبهة الشرقية ، قبل الهجوم الروسي الحاسم ، اضطررنا ان ندفع الى المعركة بكل الجيش الاحتياطي ، أي جميع وحدات المدفعية والمشاة والدبابات والقوات الخاصة والكليات العسكرية » .

وقد تم تدعيم الجيش التاسع تحت قيادة الجنرال بوسي بالافراد والمعدات لتغطية المدينة ، وفي مؤخرتها تكونت فرق والوية جديدة ، وقد أعطت القيادة الالمانية اهمية خاصة لتعزيز الدفاع بالدبابات والمدفعية الصاروخية .

ومن اودير حتى برلين ، اقيمت شبكة دفاعية في منتهى القوة ، تتكون من خطوط دفاع متوالية ، على كل خط منها سلسلة من الخنادق المتراصة في صفوف متعاقبة يبلغ عددها خمسة ، كما استغل العدو كل المواقع

الطبيعية من انهار وبحيرات وقنوات ووديان . كذلك فقد كانت جميع المناطق السكنية محصنة ومعدة للدفاع الدائري .

وفي المنطقة شمال شرقي المدينة ، تكونت مجموعة جيش شتينير ، التي كانت مكلفة بتوجيه ضربتها الى جناح الجبهة البيلوروسية الاولى ، وقد عززت هذه المجموعة بوحدات مشاة الاسطول . وعلاوة على ذلك ، فقد اتخذت « اجراءات خاصة » للدفاع عن برلين ، فقد انقسمت المدينة الى ٨ قطاعات دفاعية تحيط بالمدينة ، وقطاع خاص تاسع لحماية قلب المدينة ، حيث كانت توجد مباني الحكومة ، وقصر الامبراطورية ، والجستابو ، والرايخستاج .

وعلى حدود المدينة مباشرة ، كانت توجد ثلاثة خطوط دفاعية : المنطقة الوقائية الخارجية ، طوق الدفاع الخارجي ، طوق الدفاع الداخلي ، وفي الشوارع اقيمت المتاريس الثقيلة ، والعوائق المضادة للدبابات والستائر الخرسانية وخلافة .

وانشيء مجلس دفاع عن برلين ، كان يعد السكان لخوض معارك الشوارع الدموية ، وللقتال في البيوت ، على الارض وتحت الارض ، ونصح الاهالي باستخدام انفاق المترو . واصبح كل شارع وبيت وجسر وحديقة تشكل عنصرا من عناصر الدفاع العام عن المدينة . ودربت عشرين كتيبة من القوات الخاصة على خوض معارك الشوارع . وقد دعم دفاع المدينة بستمائة مدفع مضاد للطائرات لاستخدامها ضد الدبابات والمشاة ، كما استخدمت الدبابات المعطلة والسليمة مدافعها ، وقد تلقى الشباب الهتلري تدريبا انتحاريا خاصا لمقاومة الدبابات .

لقد اشترك في تحصين برلين ما يزيد عن ٤٠٠ الف فرد ، وحشدت قوات البوليس والجستابو . وتولى مونكيه رئيس الحرس الخاص لهتلر قيادة القوات المدافعة عن قطاع قلب المدينة .

كانت القيادة الفاشية تتصور ان في امكانها الدفاع عن برلين ، كما دافعنا نحن عن موسكو . لكن حساباتهم قدر لها بالفشل .

وقد تطورت الاحداث ، بحيث لم تكن لدينا فرصة لاخفاء نوايانا عن العدو . فقد كان حتى ابعد الاشخاص عن العلم العسكري ، يدرك ان مفتاح برلين يقع على نهر اودير ، وان عبور النهر يعني الانطلاق نحو برلين .

« كانت هيئة الاركان تدرك ان مصير معركة برلين سوف يحسم على نهر اودير ــ كما ظهر ذلك من استجواب الجنرال جوديل ــ ولذلك فان الحشود الرئيسية للجيش التاسع الذي يدافع عن برلين قد وجهت الى

الشمال من برلين ، تمهيدا لكي توجـــه ضربـــة مضادة الى جناح قــوات المارشال زوكوف » .

وحين امداد الهجوم ، كنا ندرك تماما ان الالمان يتوقعون ضربتنا فـي برلين ، ولذلك فان قيادة الجبهة قد عكفت على دراسة كل التفاصيل التـي تجعل للضربة المتوقعة اقصى قدر ممكن من المفاجاة .

قررنا ان ننقض على دفاع العدو بقوة تكفي لاثارة ذهول العدو ، وهــزه حتى الاعماق ، باستخدام الطيران والمدفعية والدبابات . ولكننا كنـا نحتاج الى جهود عملاقة لكي نحشد بالقرب من مسرح العمليات كل هــذه الحشود الجبارة من الوسائل والمعدات على نحو غير مكشوف .

ولمدة يومين قبل بدء المعركة ، قامت ٣٢ كتيبة من قواتنا المشاة بعملية استطلاعية (طوال ١٤ ، ١٥ نيسان) الغرض منها اكتشاف التوزيع النهائي لشبكة نيران مدفعية العدو . كما كان الغرض منها ايضا استدراج العدو الى دفع المزيد من أفراده ومعداته الى خط المواجهة ، حتى يمكن التخلص مـــن أكبر قدر منها ، أثناء التمهيد المدفعي للهجوم .

ابتدأ الهجوم

وبدأ الانقضاض التاريخي على عاصمة المانيا الفاشية .

وفــي ٢١ نيسان بــدات وحــدات الجيوش : ٢،٤،٧،٤٧،٥ تقتحـم اطراف برلين وفي أجزاء داخل المدينة ، واسرعت بعض الوحدات في تحركها نحو نهر البا حيث كان المكان المحدد للالتقاء بالحلفاء .

وفي ٢٣ ـ ٢٤ نيسان ، دمرت قوات الجبهـــة البيلوروسية الاولــى قوات العدو في المداخل المؤدية الى قلب المدينة .

وفي ٢٥ نيسان التقت وحدات جبهة بيلوروسيا الاولى بوحدات جبهة اوكرانيا الاولى في القطاع الغربي من مدينة برلين .

واصبحت القوات المدافعة عن برلين وقوامها ٤٠٠ الف جندي منشقة الـى مجموعتين .

ومضى القتال بنجاح في داخل برلين ، وظهــر ان الدفاع فــي داخل المدينة قد ضعف كثيرا اثناء عملية الاقتحام ، حيث ان القيادة الالمانية كانت قد سحبت بعض وحدات المدفعية لتدعم بها القوات المتمركزة علـــى التلال المحيطة بالمدينة من الخارج .

ولكن المقاومة اتخذت شكلا عنيفا ، بالاقتراب من قلب المدينة . وظهرت الضراوة في القتال من الطرفين . وقد استغل الالمان بالطبع معرفتهم بالمدينة

فكانـوا مـن البيـوت والمبانـي يوجهون اسلحتهم الى المهاجمين ،كما كانوا يلوذون بالمخابىء والانفاق وينتقلون من حي الى حي تحت الارض ، ويظهرون فجأة في مؤخرة المهاجمين في بعض الاحوال .

وقد كان نهر شبريه يقسم المدينة الـى نصفين ، ويحمـي مبانـي الوزارات في قلب المدينة ، وفي كثير من الاحوال كانت كتيبة باكملها تدافع عن بيت واحد .

وكنا قد اعددنا بالتفصيل مسؤولية كل جيش عن الهجوم فـي احـد القطاعات من المدينة . ومع ان القتال في المدينة كان يبدو عفويا وفوضويا ، الا ان الواقع كان غير ذلك ، فالقتال كان يجري مـن جانب الطرفين طبقـا لخطة دفاع وهجوم محددة .

كان الهدف الرئيسي لنا من قتال الشوارع هو الحيلولة دون استجماع العدو لقواه وحشدها من جديد .

ومن ٢١ الى ٢ ايـار ، بلغت عدد القذائف المدفعية التي اطلقت علـى برلين مليونا و ٨٠٠ الف .

وتحطم دفاع برلين .

وفي اثناء استجوابه قال المارشال كيتيل : فـي ٢٢ نيسان ، اصبـح واضحا ان برلين سوف تسقط ما لم تسحب اليها جميع قواتنا على نهـر البا . وبعد الاجتماع الذي عقده هتلر مع جوبلز وجوديل وانا ، تقـرر سحب الجيش الثاني عشر من مواقعه في مواجهة الامريكيين ـ مـع ابقاء وحدات رمزية ـ وتوجيهه للتصدي للروس المهاجمين لبرلين .

وقـال جوديل :

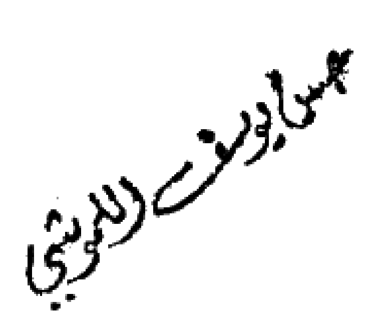
« سألني جوبلز : هل يمكن عسكريا الحيلولة دون سقوط برلين » .

فأجبته : « يمكن اذا سحبنا الجيش الثاني عشر ودفعنا به الى مواجهة الروس . فأشار جوبلز علي بأن اقدم هذا الاقتراح الى الفوهرر الذي وافـق وامرني انا وكيتيل بالخروج من برلين وقيادة الهجوم المضاد » .

وقال قائد ثكنات برلين :

« قال لي هتلر في ٢٥ نيسان ان الوضع سوف يتحسن (!)» فالجيش التاسع سوف يقترب من برلين ويشترك مع الجيش الثاني عشر فـي توجيه ضربة الى العدو .. سوف تجيء هذه الضربة مـن الجنوب ومـن الشمال سوف توجه قوات شتينير » .

كانت هذه الخطط مجرد اوهام لدى هتلر ومعاونيه الذين كانـوا قـد فقدوا القدرة على التفكير .



الفصل الثامن عشـــر

استسلام المانيا الفاشية بلا قيد او شرط

- كريبس يطلب التفاوض من اجل الصلح .. - اللحظات التاريخية الحاسمة لاستسلام المانيا الهتلرية - انتهت الحرب وبدات عملية تضميد الجراح .

في الساعة الرابعة يوم اول ايار اتصل بـــي الجنرال تشوكوف وابلغني ان رئيس اركان حـــرب القوات البريـــة الالمانية الجنرال كريبس قد جاء الـــى قيادته وطلب التفاوض من اجل الصلح . وان كريبس افاده بان هتلر قد انتحر فـــي الساعة ٥٠ر١٥ يوم ٣٠ نيسان ، ويحمل كريبس معه رسالة من غوبلز بها :

بناء على وصية الفوهرر الراحل تفوض الجنرال كريبس فـــي ابـــلاغ زعيم الشعب السوفياتي بأن الفوهرر قـــد فارق الحياة بارادته في الساعة ٥٠ر١٥ يوم ٣٠ نيسان . ولقد كلفت بورمـــان بالاتصال بزعيـــم الشعب السوفياتي . وهذا الاتصال ضروري للمفاوضات السلمية بين الدول التـــي تكبدت اكبر الخسائر .

توقيع : غوبلز

وكانت وصية هتلر مرفقة بخطاب غوبلز .

واتصلت فورا بالقائد الاعلى وكان نائما فاستيقظ واحطته علما بمـــا

جرى وطلبت منه الامر بما يتبع فقال :
ـ خسر الوغد اللعبة . المؤسف اننا لم ناخذه حيا .
ايـن جثـة هتلـر ؟
ـ يقول كريبس ان الجثة احرقت .
ـ لن تكون هناك مفاوضات مع كريبس او غيره من الهتلريين . لا شيء غير الاستسلام بلا قيد ولا شرط .

وحين ابلغت القيادة السوفياتية رأيها الى (غوبلز) جاء رد غوبلز في اليوم التالي برفض التسليم بلا قيد او شرط .

وردت القوات السوفياتية على ذلك بقصف مركز عنيف لم يسبق له مثيل . وفي الساعة ١٥٫٠٠ يوم ٢ ايار قضى على اخر معاقل العدو في برلين واستسلمت بقايا قوات برلين تسليما جماعيا وكان عددها يبلغ اكثر من ٧٠ الف جندي . ويبدو ان كثيرين ممن قاتلوا بالسلاح قد آثروا الهرب في الايام الاخيرة .

وبعد الاستيلاء على مقر الامبراطورية ذهبت الى هناك ومعي الجنرال برزارين اول قومندان لبرلين المحتلة ، والجنرال بوكوف وآخرون .

وحين كدنا نغادر قصر الامبراطورية قيل لنا انه قد عثر في البدروم على جثث اطفال غوبلز الستة . واعترف بانني لم اجد في نفسي القدرة على رؤية جثث اطفال اغتيلوا بايدي والديهم . وغير بعيد من المخبأ عثر الجنود على جثتي غوبلز وزوجته . وللتأكد من شخصية المنتحرين استدعي الدكتور فريتشي نائب وزير الدعاية النازي (نائب غوبلز) فاكد صحة ذلك .
ولقد كنت في بادىء الامر اشك في ان يكون هتلر وبورمان قد تمكنا من الفرار لكن التحقيق فيما بعد جعلني اتخلى عن هذا الشك واعتقد انه لا أساس للشك في انتحار هتلر .

كان القادة الفاشيون شانهم كالمقامرين لا يفقدون الامل في « الورقة السعيدة » . فقد ظلوا حتى النهاية يماطلون تحت ستار السماح لحكومة ديونتسي (التي سلمها هتلر الحكم) بدخول برلين لاجراء المفاوضات الخاصة بالتسليم .

« وفي ٧ ايار اتصل بي القائد الاعلى وقال لي :
ـ وقع الالمان اليوم في مدينة رايمس وثيقة الاستسلام غير المشروط مع الحلفاء ان الشعب السوفياتي هو الذي قدم اعظم التضحيات في الحرب

وليس الحلفاء ولذلك فان توقيع وثيقة الاستسلام ينبغي أن يتم في حضور القيادات العامة لجميع الدول المعادية للهتلرية وليس فقط في حضور قيادة قوات الحلفاء .

كذلك فانني لا اوافق على توقيع وثيقة الاستسلام في غير برلين ـ مركز العدوان الفاشي . لقد اتفقت مع الحلفاء على اعتبار التوقيع السابق توقيعا مبدئيا ، وغدا سوف « يتوافد على برلين ممثلو القيادة الالمانية وقيادة قوات الحلفاء » .

تم تعيينكم ممثلا للقيادة العليا للقوات السوفياتية » .

وفي منتصف نهار ٨ ايار وصلت الى مطار تيمبيلجوف وفود الحلفاء وكان مارشال جو آرثر تيدر يمثل بريطانيا والجنرال سباتس قائد القوات الجوية الاستراتيجية الامريكية يمثل الولايات المتحدة ، والجنرال ديلاتر دي تاسينيه يمثل فرنسا . وفي المطار استقبلهم نائب الجنرال سوكولوفسكي وقومندان برلين الجنرال برزارين وآخرون .

وفي القطاع الشرقي من برلين في مبنى من طابقين كان من قبل مطعما لطلبة كلية الهندسة العسكرية تم توقيع وثيقة الاستسلام .

دخلنا القاعة في تمام الساعة ٢٤,٠٠ يوم ٨ ايار .

وافتتحت الاجتماع بقولي :

« نعلن نحن ممثلي القيادة العليا للقوات المسلحة السوفيانية : والقيادة العليا لقوات الحلفاء عن تفويضنا من قبل حكومات التحالف المعادي للهتلرية في قبول الاستسلام غير المشروط لالمانيا من قيادة القوات الالمانية . ادعوا الى القاعة ممثلي القيادة الالمانية .

وادار الجميع رؤوسهم نحو الباب ليروا اولئك الذين اعلنوا بغرور على العالم كله عن قدرتهم على الحاق الهزيمة بفرنسا وانكلترا وسحق الاتحاد السوفياتي في غضون شهر ونصف شهر او شهرين على الاقصى .

وجلس الجنرالات الالمان في المكان المخصص لهم . ثم توجهت انا اليهم بقولي :

ـ هل تحملون في أيديكم وثيقة الاستسلام بدون قيد او شرط ؟ هل درستموها جيدا وهل لديكم تفويض لتوقيعها ؟

رد المارشال كيتيل تصوت متحشرج .

ـ نعم . درسناها ، ومستعدون لتوقيعها .

وفي تمام الدقيقة الثالثة والاربعين من بعد منتصف ليل يوم ٨ ايـــار ١٩٤٥ انتهى توقيع الوثيقة. وطلبت من ممثلي القيادة الالمانية مغادرة القاعة.

كانت المادة الاولى من الوثيقة كما يلي :

« نحن الموقعين ادناه ، بوصفنا ممثلين للقيادة الالمانية العليا نوافق على الاستسلام غير المشروط لكافة قواتنا المسلحة في البر والبحر والجو وكذلك جميع القوات الموضوعة حاليا في القيادة الالمانيـــة ، للقيادة العليـا للجيش الاحمر ، وفي الوقت ذاته ، للقيادة العليا لقوات الحلفاء » .

هكذا انتهت الحرب الدموية .

قضى نهائيا على المانيا الفاشية وحلفائها .

وفي منتصف ايار ١٩٤٥ دعا المجلس العسكري للجبهة الـــى عقـــد اجتماع جماهيري اشتركت فيه الهيئات الشعبية والمسؤولون عـن قطاعات الصناعة والمواصلات والصحة ، والثقافة وخلافـه حيث نوقشت المسائـل المتعلقة باعادة الحياة العادية الى المدينة وحضر الاجتماع انستاس ميكويـان نائب رئيس الوزراء السوفياتي ووالتر اولبريخت سكرتير الحزب الشيوعي الالمـانـي .

لو لم ... لما كان النصر

في خاتمة مذكراته يقول المارشال زوكوف ان الحرب الوطنية العظمى كانت « اصطداما عسكريا مروعا بين الاشتراكية والفاشية ، ومعركة شعبية عامة ضد عدو طبقي شرير اعتدى علـى اقدس مقدسات الشعب السوفياتي وهي منجزات ثورة اكتوبر الاشتراكية العظمى » .

« واقول مباشرة انه لو لم يكن لدينا حزب قوي ذو نفوذ ، ولو لـم يكن لدينا نظام اشتراكي لما كان النصر تحقق . فالامكانيات الماديـــة والروحية للنظام الاشتراكي السوفياتي هي التي اتاحت الفرصة لاعادة تنظيم حيـــاة البلاد ــ في فترة وجيزة ــ على نحو امكن معه الحاق الهزيمة بالقوات المسلحة لالمانيـا الامبريالية » .

« ولقد ضاعفت من قوتنا وحدة الامـم والشعوب الاشتراكية (فـي الاتحاد السوفياتي اكثر من مائة قومية) ، وحدة العمال والفلاحين والشباب والمثقفين من حول شعار :

« كل شيء من اجل الجبهة « .. كل شيء من اجل النصر » .

« وتحت تأثير طابع الحياة السوفياتي والعمل التربوي الكبير للحزب ، تكون في بلادنا انسان يؤمن بعدالة قضيته، ويشعر اعمق الشعور بمسؤوليته الشخصية عن مصير الوطن الاشتراكي » .

ويقول المارشال ان الحرب ليست مخيفة اذا احسن الاستعداد لهـا ، واذا كان كل فرد ابناءها يعلم دوره في الدفاع عن بلاده .

ويتناول التقدم العلمي الحديث وما ادخله ذلك على فن القتال مـن اساليب جديدة في التسليح والتنظيم العسكري ثم يقول :

« وترتفع الان بعض الاصوات زاعمة انه قد اقبل عصر حرب «الازرار» حيث يلعب الانسان فيها دورا ثانويا . ذلك راي خاطيء . فرغم كـل اهمية الاسلحة الذرية والصاروخية يبقى الانسان ابـدا صاحب الدور الرئيسي . فالحرب مهما كانت مقاييسها واساليبها وطبيعتها لا بـد ان تحتاج الـى الجماهير الشعبية اما للاشتراك المباشر في النضال المسلح واما للانتاج الحربي الذي لا غنى عنه للنضال المسلـح » .

وآخر كلمات المارشال في كتابه الطويل « ذكريات وتأملات » :

● فكرت طويلا فيم اختتم به ذكرياتي فلم اجد افضل من كلمات لينين : « مستحيل ان يقهر شعب تدرك وتشعر الغالبية العظمى من عماله وفلاحيه ان انتصار القضية التي يدافعون عنهـا انما يتيح لهـم ولذريتهم فرصة الاستفادة من كنوز الثقافة وثمار العمل الانساني » .. (1)

انتهـت المـذكـرات

---

(1) الاهـرام المصريـة مع بعض الاختصار ..

فهرست

مطابع دار الغد ـ شارع سوريا ـ تلفون ٢٣٠٥١٢

مساء يوسف الدويش

مذكرات زوكوف

مذكرات اعظم القـادة الروس (**زوكـوف**) في الحرب العالمية الثـانية .. مع دراسات ومقدمات مثيره حول الزعماء الثلاثة الذين شاركوه في الحرب العالمية الثانية ، هتلر وتشرشل وستالين .

قصة الحرب الروسية يكتبها القائد الروسي الاشهر ، كيف تراجع الروس وكيف هزموا مرة وثانيه وثالثة ، ثم كيف تمكنوا من ألوقوف على اقدامهم ، وتعزيز سلاحهم ، والكر على العـدو وقهره ، واجباره على اخلاء الارض التي احتلها ..

وعندئذ بدأ الروس يطاردون الغزاة الالمان النـازيين في بلادهم حتى دخلوا الى عاصمتهم (برلين) وانتحر هتلر على الاثر .

المذكرات مثيره تامـة يصف فيها (**زوكوف**) جميع الحوادث والاخبـار التي كانت تجري في روسيا وفي الكرملين اثناء الحرب ..

الثمن : ٥٠٠ ق. ل.